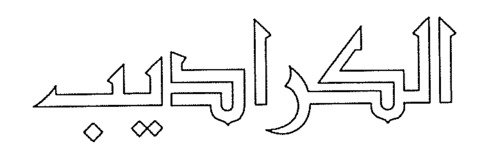


أطياف الأزقة المهجورة

تركي الحَمَد



الكراديب



دار الساقي



إهداء

إلى الإنسان الكامن في ذواتنا...

لعل ذواتنا تدرك ذواتنا

- ١ -

بدأت الطائرة في الهبوط التدريجي نحو الأرض، وأخذ المضيف يعلن عن قرب الهبوط في المطار، متمنياً للجميع طيب الإقامة في مدينة جدة، وابتسامة عابثة حزينة ترتسم على فم هشام وهو يسمع هذه الأمنية التي يعلم استحالتها بالنسبة له. ولم تلبث الطائرة أن توقفت تماماً أمام مبنى المطار، وهديرها يصم الآذان، ويلقي الرعب في قلب هشام، فهو إعلان عن نهاية رحلة معلومة وبداية أخرى مجهولة.

ها هم في جدة... عروس المدن، ومدينة الكرنفال الدائم، وهو مزفوف إليها في عرس تقليدي لا إرادة له فيه، ويشعر بالرعب من مجرد التفكير في لياليه. افتر ثغره عن ابتسامة واهنة وهو يفكر ساخراً... من تكون العروس ومن يكون العريس في هذا العرس؟.. لقد اختلطت الأمور، فما عاد عريس ولا عروس، بل حفلة جنس سادية ومازوخية لا بد أن تفتض فيها بكارة، وتسيل دماء حمراء قانية قرباناً لسيد مجهول... دماء من؟ لا يهم... المهم أن تسيل الدماء وتزال البكارة، وتختلط اللذة بالألم والصراخ بصرير الأسنان... سادية ومازوخية ممزوجة بعرق الشبق، ودموع الألم، ورائحة الأجساد المحترقة بنار جنس مقدس... أو مدنس. لا فرق. فالألم لا يعرف التصنيفات، كما اللذة.

ومن نافذة الطائرة، أخذ يراقب بحسرة جموع ركاب الدرجة السياحية وهم يهبطون سلم الطائرة بفرح وحبور، ويتراكضون نحو مبنى المطار. كان بعضهم يرتدي ملابس الإحرام البيضاء... يهللون ويلبون، يدفعهم شوق عارم إلى الاتصال بالحبيب في مكة. لم يكن يسمع ما يقولون، ولكنه كان يعرف ما يقولون. ألا ليتهم يأخذونه معهم. ولكنهم لو عرفوا بوضعه، فلعلّهم لن يفعلوا شيئاً، بل ربما فروا منه فرار الصحيح من المجذوم، وهم يرددون عبارات الشفقة في أحسن الأحوال، وعبارات اللامبالاة في كل الأحوال... أهذا هو الشعب الذي من أجله يضحي، أم أن الشعب شيء آخر لا يدريه، أم أنه لا هذا ولا ذاك؟ إنه فعلاً لا يدري، فقد اختلطت الأمور، وضاعت الحقيقة... هذا إن كان هناك حقيقة.

وهبط آخر الركاب، وهشام يتابعه بنظراته وأغنية لطلال مداح تطوف في ذهنه: «على سلم الطائرة، بكيت غصباً بكيت...»، ولكن طلال يبكي على فراق الحبيب، فعلى فراق أي حبيب يبكي هو؟ بل على ما هو يريد البكاء؟ أعلى ماضٍ انتهى، أم على مستقبل مجهول، أم لمجرد الرغبة في البكاء؟ ربما لا شيء من كل ذلك، ولكن لسبب خفي هو نفسه لا يعرفه. ولكن حتى الدموع تأبى الخروج، ولا يبقى سوى الألم في الحلق والحنجرة، وذلك الخفقان في قلب عرف خفقاناً مختلفاً قبل ذلك، ولكن ذات القلب سيان لديه هذا الخفقان وذاك... هل أصبح القلب منافقاً في جوقة المنافقين؟.. إنه لا يدري، وليس لديه الوقت كي يدري، ولا يريد أن يدري. وفجأة فتح باب الدرجة الأولى، ثم لم يلبث أن دخل منه رجل فارع الطول، بلباس مدني، وبنية رياضية. اتجه نحوهما، واستلم أوراقاً من الحارس، ثم تقدم الجميع في الطريق إلى

الخارج، فيما كان المضيف يقف عند باب الخروج بأدب جم، وهو يحاول رسم ابتسامة على وجهه الوسيم.

كانت الحرارة المرتفعة، والرطوبة الخانقة هي أول شيء قابلته به جدة، وإن كانت أرحم من حرارة ورطوبة الظهران. ولكن الحرارة التي كانت تعتمل في داخله، جعلته لا يحس بأي شيء من حوله. كانت ساحة المطار في تلك الساعة من الليل، خالية إلاّ من بعض عمال كانوا يفحصون الطائرة بعد هبوطها، وبعض جنود كانوا يلوحون من بعد عند بوابة المبنى. نزل الجميع، وأخذ بعض العمال ينظرون إلى هشام وحارسه وقد ارتبطا بالقيد الحديدي، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلى أعمالهم وكأن الأمر لا يعنيهم، أو أنهم تعودوا على مثل هذا المنظر الذي أصبح اعتيادياً في مثل هذه الأيام. ولم تلبث سيارة جيب رمادية اللون، كتلك التي أقلتهم من الخبر، أن أتت من إحدى الزوايا، وتوقفت بمحاذاة سلم الطائرة تماماً. ركب هشام وحارسه في المقعد الخلفي، وركب المرافق بجوار السائق، ثم انطلقت السيارة خارج المطار. وقبل أن تختفي الطائرة عن الأنظار تماماً، التفت هشام باتجاهها، فلمح المضيف وهو يقف على باب الطائرة، ينظر بعيداً إلى لا شيء، وقد غابت ملامح وجهه، وإن هُيِّىء له أنه كان يغالب دمعة تصارع للخروج من عينه.

وأخذت السيارة تخترق شارع المطار، في طريقها إلى مكان عرس يعرفه كل من في السيارة إلا العريس صاحب الشأن. لقد كان هشام أشبه بعريس يزف إلى عروس مجهولة، في مكان مجهول. وأخذ يراقب العمارات الفاخرة في شارع المطار وهي تمر بسرعة غريبة، لا يدري أبسبب سرعة السيارة، أم لأن الزمن قد أصبح أقصر، أم الاثنين معاً، أم لأن الأشياء تفقد طبيعتها في مثل هذا البعد الذي حكم عليه أن يعبر

خلاله. ثم عبروا خلال شوارع أقل فخامة وجمالاً، ولكنها كانت أكثر حياة وحركة. تنتشر المقاهي على الجانبين، مزدحمة بروادها، وقد تسللت رائحة تبغ الجراك الحجازي المميزة إلى السيارة رغم النوافذ المغلقة. قال الحارس للسائق: «لن تجد أحداً لم ينم بعد إلا هنا»، فهزّ السائق رأسه وهو يقول: «باب شريف هو جدة، وإن قالوا لك غير ذلك فلا تصدق». كان الجميع من رواد المقاهي يضحكون ويتحدثون ويلعبون، وهو ينظر إليهم بحسرة وحسد. كم كان يحتقر مثل هؤلاء الناس، الذين كانت أمه تسميهم بالصيع والدشر و «السراسرة»، ولكنه يتمنى اليوم لو أنه كان صائعاً أم داشراً مثلهم، فهم أحرار على الأقل وهو مقيد، وللحرية طعمها في أي شيء. ولكن... هل هم أحرار فعلاً يا ترى؟.. طاف هذا السؤال بذهنه، ولكنه ما لبث أن ابتسم ساخراً وهو يحدث نفسه قائلاً: «أحرار أو غير أحرار... لتنتحر الكلمات، ولتمت الأسماء... المهم أن لا أزف لعروس لا تعرفني ولا أعرفها، في حفلة عرس عابثة... المهم أن أنفك من أسر هؤلاء القوم، وسمني حيواناً إن شئت... لكم تأسرنا الكلمات والأسماء، ولا ندرك ذلك إلا حين نفقد ما كنا نسخر منه وننتقده»، وجفل من صوت كأزيز الرصاص مر بجانب السيارة، ثم لم يلبث أن هدأ روعه حين تبين دراجة نارية تتجاوز السيارة بسرعة، وعليها شابان يتحدثان ويضحكان بصوت عال، غير مدركين لنوع السيارة التي تجاوزاها ومن بداخلها. أو لعلهما مدركان، ولكن ما المهم في ذلك؟ بالنسبة لهما سيارة كأية سيارة، ولكنها بالنسبة له أكثر من مجرد سيارة... شابان يعيشان على هامش الحياة. ربما... هكذا قال لنفسه وهو يرى الدراجة تبتعد في طريقها المجهول. ولكنهما سعيدان... أيمكن أن تكون السعادة كامنة في هامش الحياة؟ أن تكون

السعادة في البهيمية؟.. أو البوهيمية؟ ربما... لا فرق... وابتسم من جديد وهو يحدث نفسه: يا لك من متغطرس أيها الإنسان، حتى وأنت تسف التراب، ويلعب الدود في منخريك وكل مخارجك... ومن أنا حتى أحدد هامش الحياة من متنها؟ وهل للحياة متن وهامش، أم أننا نحن من وضع هذه الفوارق وسمى تلك الأسماء للنفخ في ذوات يسرها النفخ وتشمئز من رائحة الصديد، رغم أن حياة البعض ومماته ليست إلا صديد في صديد..

وبعد فترة لا يدري كم طالت، فالزمن لم يعد الزمن الذي يعرف. خرجت السيارة الصامت أهلها من لجّة الحياة في جدة، وسارت في طريق بري هادىء، تنتشر بيوت قليلة على جانبيه، وعواء كلاب تتناقله الريح من بعيد، عند هبوبها بين فترة وأخرى. كان واضحاً أنه طريق المدينة المنورة، فقد كانت اللوحات الإرشادية الخضراء تشير إلى المدينة المنورة والمسافة المتبقية عنها. واستمرت السيارة في المسير، حتى قلت البيوت لدرجة الندرة، واختفت أعمدة الإنارة من الشوارع، وازداد عواء الكلاب الشاردة. ثم عرجت السيارة على طريق ترابي مظلم وضيق، سارت فيه متأرجحة لبعض الوقت، حتى لاح في الأفق مبنى ضخم غارق في الظلام، إلا من بعض أنوار خافتة تطل على استحياء من بعض جهاته، ويحيط به سور عال جداً مرصع بمصابيح كهرباء متفرقة أنوارها إلى الخارج، يخفي الجزء الأكبر من المبنى. وما لبثت السيارة أن توقفت أمام بوابة فولاذية ضخمة، فأطلق سائقها البوق بسرعة، ثم كبس النور الأمامي كبسات سريعة، ولم يلبث أن جاء صوت صرير حاد ومزعج، معلناً عن فتح البوابة.

دلفت السيارة إلى ساحة واسعة، بأنوار خافتة جداً، بعض الجنود

ينتشرون حول السور، فيما كانت مجموعة منهم تجلس في ركن قصي منها، تشاهد التلفزيون وتحتسي الشاي، غير آبهة بالسيارة القادمة، وكأنها شيء معتاد، كالهواء الذي يتنشقونه من حولهم. واتجهت السيارة مباشرة إلى المبنى الذي يتوسط الساحة، فيما كان صرير الباب يعلن مرة أخرى عن انفصال العوالم. كان المبنى يتكون من ثلاثة أدوار واسعة، وأمامه ساحة صغيرة ترتفع قليلاً عن الساحة الرئيسة، ينتشر بعض الجنود ببنادقهم حولها. توقفت السيارة مباشرة أمام المبنى، وهبط منها الرجل الذي استقبلهم في المطار، وفتح الباب له ولحارسه، واتجه الجميع إلى الساحة الصغيرة، صاعدين عدة درجات رخامية، أحس هشام وهو يصعدها أن روحه ذاتها تصعد إلى مكان لا يدريه، فيما كانت السيارة تبتعد بسرعة عن المكان.

وقف الجميع أمام مكتب خشبي يقع مباشرة بجانب البوابة ذات القضبان الفولاذية المؤدية إلى داخل المبنى، ثم لم يلبث أن جاء رجل قصير القامة، نحيف البنية، أحول العينين، شديد سمرة الوجه، مع آثار جدري واضحة على وجهه، ولحية مثلثة صغيرة، وشاربان ضخمان تتخللهما بعض الشعيرات البيضاء، ويرتدي ثوباً أبيض، وغترة بيضاء دون عقال، ويتدلى مسواك ضخم من جانب فمه. جلس الرجل على الكرسي خلف المكتب، وأخرج ملفاً من أحد الأدراج، أخذ يقلبه تحت ضوء باهت يأتي من مصباح كهربائي مثبت على الجدار إلى جانبه. وفيما كان الرجل يقلب في الملف الذي أمامه، أخذ هشام يستطلع المكان الذي قدر له أن يعيش فيه لفترة لا يعرف مداها إلا الله، وربما ملائكة العذاب في هذا المكان.

كانت النوافذ ذات القضبان الفولاذية تنتشر على جدران المبنى، ومن

خلال هذه النوافذ والبوابة ذات القضبان الفولاذية، كان هناك نور ضئيل ينبعث من الداخل، وصور أشباح تتحرك بتثاقل، وأصوات لم يسمع مثلها من قبل، ولكنها أشبه ما تكون بالصوت الذي تصدره الحية ذات الأجراس لحظة الخطر، يتخللها أصوات واهنة لشيء يُجر. واعتادت عيناه على الضوء الخافت، فأخذ يتبين معالم أشخاص وراء القضبان، وكأنهم مجرد ظلال لأشخاص حقيقيين، ارتسمت ظلالهم على جدار أوقدت أمامه نار عظيمة، وهم قابعون بين النار والجدار. كان المنظر مرعباً لهشام، خاصة وقد اختلط بأصوات تلك الأشياء المجهولة التي تجر، وأجراس أفاعي عدة أخذت تقرع في ذات الوقت... إنها أشبه شيء بصورة باهتة أرضية لجهنم. تلك الصورة التي أصابته بالرعب، وجعلته لا ينام عدة ليال، عندما قرأ وصفاً لها في كتيب عن الإسراء والمعراج عندما كان في حدود الثالثة عشرة من العمر. وفجأة لاح له شبح من أشباح الداخل وراء إحدى النوافذ، وهو يظهر ويختفي بسرعة، ويؤشر له بسرعة علامة النفي... من يكون هذا الشبح، وماذا يريد أن يقول له نافياً؟ وحاول أن يدقق النظر أكثر، فاستطاع أن يتبين معالم وجه تغير كثيراً، ولكنه كان واضحاً جداً... لقد كان زكي، الرفيق أبو ذر. إنه يحاول أن يقول له شيئاً، ولكنه لا يدري ماذا يحاول أن يقول. إشارات تنفي شيئاً ما لا يدري ما هو.

ـ اسمك يا مسجون...

وجفل هشام عند سماعه صوت الأحول، فأدار رأسه خائفاً ناحيته، فالتقت العيون. لقد كان الرجل شديد حول العين فعلاً، ينبعث من عينيه الصغيرتين كره وحقد شديدان لا يدري لماذا، فهما لم يعرفا بعضهما قبلاً، فلِمَ الكره؟

ـ هشام . . . هشام ابراهيم العابر.

ـ عابر من الدنيا إن شاء الله.

قال الرجل ذلك، وأخذ يضحك، كاشفاً عن أسنان حادة مفرقة، ثم عاد إلى ملفه وهو يقول:

ـ سلمنا ما معك . . . أمتعة، نقود . . . كل ما في حوزتك.

لم يفهم هشام أول الأمر، أو أنه أراد التأكد مما يريد الرجل، فقال:

ـ أرجو المعذرة . . . ماذا؟

وبقرف ونفاد صبر، نخر الأحول وهو يقول بحدة:

ـ هل أنت حمار؟ . . ما تتكلم عربي؟ سلمنا ما معك من حاجيات . . . لا تخف، سوف ترد إليك حين تخرج.

ثم وهو يضحك بسعادة غريبة:

ـ هذا إن خرجت.

وأحس هشام برعشة تعتريه، وخوف رهيب يستولي عليه، فمد يداً مرتعشة بحقيبة الملابس إلى الرجل، الذي كان يبدو في غاية السرور وهو يرى ارتعاش يديه. ثم حاول إخراج محفظته من جيبه، إلا أن القيد كان عائقاً، فنظر إلى الرجل قائلاً بصوت جفت نبراته:

ـ المعذرة. ولكن القيد . . .

فضحك الأحول مرة أخرى، وتراجع بظهره إلى الوراء وهو يشير إلى القيد، آمراً الحارس أن يفكه وهو يقول:

ـ الود ودي أن تقطع أيديكم . . . ولكن الله يعز الحكومة.

وأحس هشام ببعض الراحة بعد أن انفك القيد، وأخذ يحك معصمه

مكان القيد، فيما كان الحارس ينطلق إلى الركن القصي من الساحة حيث الجنود يتحلقون حول التلفزيون.

وأخرج هشام حافظة نقوده من جيبه، ثم أمره الأحول أن يخلع ساعته، ثم أخذ يجرد الحاجيات ويسجلها في الملف الذي أمامه: «ثوبان أبيضان. سروالان داخليان. فانلتان. غترة بيضاء وطاقية. نعلان بلاستيكيان. ساعة يد ماركة ويست اند أبو صليب. محفظة جلدية بنية اللون، تحتوي على ستة وثمانين ريالاً، وبطاقة شخصية صادرة عن الجامعة . . .» وانتهى الأحول من الجرد والتسجيل، ثم نظر إلى هشام بزاوية عينه وهو يقول:

ـ أهذا كل شيء؟ . . أليس هناك شيء آخر؟

ـ كلا . . . كلا يا سيد.

كان هشام يريد أن يقول «يا سيدي»، ولكنه منع نفسه في آخر لحظة لسبب لا يدريه، فقد كان مستعداً لأن يقول أي شيء لأيِّ كان في حالة الرعب التي يعيش. نهض الأحول، وأخذ يفرك أسنانه بالمسواك بشدة وهو يتفحص هشام صعوداً ونزولاً، ثم يقول:

ـ وماذا بشأن الحذاء والنظارة؟

ـ ماذا؟

ـ هل أنت أطرش أم غبي؟ . . قلت الحذاء والنظارة. هيا اخلعهما.

وعاد الأحول إلى الجلوس وهو يغمغم بصوت مسموع: «ويقولون إنهم سياسيون! . . . بلا سياسيين بلا زفت، إن الحكومة أعزها الله تقدرهم أكثر من اللازم». كان هشام في تلك الأثناء قد خلع الحذاء والجوارب، فيما أخذ الأحول يدون من جديد.

ـ والنظارة... لِمَ لا تخلعها، أو تحب أن نخلعها لك.

ـ إنها نظارة طبية لا أرى بدونها.

فغمغم الأحول وعاد إلى ملفه وهو يسأل: «هل تدخن؟»، «نعم»، «نوع الدخان؟»، «أبو بس». ثم طلب من هشام التوقيع على ورقة في الملف، ثم أغلقه وهو يصيح:

ـ يا جندي صالح. يا جندي صالح...

وأقبل جندي من أحد الأركان، وأدى التحية للأحول وهو يصيح: «أمرك يا عريف»

ـ احضروا اللازم للسجين.

وغاب الجندي صالح، وبقي هشام وحيداً أمام العريف الذي كان يتفحصه لبعض الوقت، ثم انشغل عنه بمسواكه. وفي تلك اللحظات من الانتظار الرهيب، لحظات مخاض شيء مجهول لا يعرف عنه شيئاً، وإن كان يعلم أنه عذاب في عذاب، رأى شبح زكي عدة مرات وهو يظهر ويختفي، ويشير له إشارات النفي المبهمة تلك... راح يفكر بذهن مشوش وقلب يرتجف بعنف... إذن لقد قبضوا على زكي... هل أمسكوا بالبقية؟.. فهد وحديجان وحسن الصباح. وماذا حدث لراشد ومنصور؟.. وأين عدنان؟ هل هرب أم أنه هنا، أو في الطريق إلى هنا؟.. أين أمي وأبي الآن يا ترى، وماذا يفعلان؟ وأحس بعينيه تبتلان، وحلقه يجف عندما خطر والداه على ذهنه، وألم رهيب يخترق أعماقه أخذه بعيداً عن مكانه وزمانه... ثم فجأة خطرت سوير على ذهنه وقد بدى بطنها منفوخاً ومكوراً بشدة... ماذا تفعل الآن يا ترى؟ لا بد أنها تتصوره نذلاً وقد تخلى عنها فجأة في اللحظات التي تحتاجه فيها،

ولكنها لا بد أن تعلم بما حدث... ألم تقل إن للمرأة إحساساً لا يخطىء. لا بد أن إحساسها سوف يبلغها أن شيئاً قد حدث، وأنه لم يتركها فجأة نذالة أو خسة... وعلى أية حال، لا بد أنها ستسأل موضي، وقد انكشف كل شيء لها، ولن تكون موضي التي عرفها بتلك القسوة التي تمنعها من مقابلة سوير وإبلاغها أخبار هشام. مسكينة سوير... ما الذي ستفعله، بل ما هو مصيرها... وتنهد بصوت مسموع لفت انتباه الأحول، ثم ردد في نفسه: «أياً كان الأمر، فالأمر لصاحب الأمر... الأمر لصاحب الأمر».

وأفاق من تفكيره على حركة الجندي وقد عاد وهو يحمل بعض الأشياء: إزار ملون، وشبشب مطاطي. أمر الأحول هشام أن يخلع ملابسه ويرتدي الإزار والشبشب، ثم سحب من تحت المكتب قيداً فولاذياً، بسلسلة طويلة، قيد به رجلي هشام، الذي كان قد انتهى من لبس الملابس الجديدة. ودوَّن الأحول الملابس في الملف، ثم صاح منادياً جندياً آخر لم تلبث قدمه أن ضربت الأرض بقوة. أحس هشام بالرعب عندما التف القيد حول رجليه، وكأن أفعى أمازونية التفت حوله وأخذت تعصره بقوة... لقد جاءت ساعة المخاض. ثم أمر الأحول الجندي الجديد بأخذ هشام إلى الداخل، فدفعه من ظهره وهو يقول: قدامي يا مسجون... قرفتونا، الله يقرفكم...». وسار الإثنان باتجاه البوابة ذات القضبان الفولادية، فيما لا يزال زكي يحاول أن يقول له شيئاً من تلك النافذة البعيدة. كان القيد يصدر صوتاً هو مزيج من الفحيح والرنين وهو يحتك ببلاط أرضية الساحة الصغيرة، وعندها أدرك هشام مصدر تلك الأصوات التي كان يسمعها في جوف المبنى.

دلف الجميع إلى صالة واسعة جداً، تنتهي بدرج عريض، وتنتشر

البوابات ذات القضبان الفولاذية على جنباتها. ثمة نورٌ خافت يأتي من تلك الحجرات وراء القضبان، وبعض الأشباح تظهر وتختفي، فيما كان خلف كل باب جندي مسلح يقف بملل واضح وهو يحاول أن يطرد السأم، وكان صوت الفحيح المختلط بالرنين يدغدغ الأذان بألم بين فينة وأخرى. اتجهوا إلى واحدة من تلك الحجرات تقع إلى يمين الداخل. فتح البوابة حارس الداخل، فدلفوا إلى شيء أشبه بشقة سكنية واسعة، حيث عدة غرف تتناثر حول صالة صغيرة، وممر صغير لا ريب أنه يؤدي إلى غرف أخرى. كانت كل الغرف ممتلئة بفرش على الأرض مباشرة، يستلقي عليها أشخاص أشبه بالظلال تحت الضوء الخافت، كان بعضهم مقيد الأرجل، والبعض الآخر طليقها، والجميع يرتدون الإزار الملون المخطط، والفانلة البيضاء.

اتجه الثلاثة إلى أول غرفة صادفتهم، وألقى المرافق نظرة على الغرفة: كان هناك أربعة أشخاص، كلهم مقيدو الأرجل، مستلقون على فرشهم. نظر المرافق متفحصاً، ثم قال: «لا بأس... ما زال هناك متسع»، ثم أمر الجندي الآخر بجلب فراش جديد، فيما بقي المرافق منتظراً وهو يعبث بسبحة من الكهرمان الأصفر. ثم عاد الجندي وهو يحمل فراشاً ألقاه في مكان خالٍ مواجه لباب الغرفة، وأعطى هشام مصحفاً جلبه مع الفراش، فيما كان المرافق يقول وهو يبتسم: «اقرأه جيداً... لعلّ الله يتوب عليك ويغفر لك»، ثم خرج وتبعه الجندي الآخر، وصوت البوابة الفولاذية يعلن نهاية المخاض، وبداية حياة علمها في لوح محفوظ عند أصحاب الأمر هنا.

بقي هشام واقفاً في مكانه لا يعلم ماذا يفعل... إنه في حالة أشبه بلحظة الاختفاء في بعد آخر: لا مكان ولا زمان ولا إحساس بأي شيء،

وكأنه في كابوس رهيب لا يلبث أن ينجلي بعد لحظات. ثم عاد إليه الإحساس بالمكان والزمان ومعه الإحساس بالرعب والرهبة. نظر حوله مستكشفاً القبر الذي ألقي به فيه، إنه عبارة عن غرفة ضيقة، بنافذة واحدة ذات قضبان فولاذية غليظة، وسقف مرتفع تتدلى منه «لمبة» تصدر ضوءاً خافتاً كئيباً، أقرب إلى ضوء سراج قديم في ليلة شديدة العتمة. جلس على فراشه المطوي، وهو يتحسس القيود في رجليه، وينظر إلى البوابة أمامه، متوقعاً أن يلج منكر ونكير في أي لحظة، ومعهما تلك المرزبة الرهيبة، ولكن الوقت يمر ولا أحد يجيء... ثم نظر إلى النافذة، وتلك النجوم التي تتبدى من ورائها على استحياء، وهو يتصور أن يأتي ملاك رحمة من هنا أو هناك، فينقله على جناحيه إلى حيث نسمة هواء طليقة. ولكن حتى الملائكة اختفت في هذه اللحظة، ويبدو أنها نفسها تخاف الدخول إلى هذا المكان، وليس إلا الرعب والسكون والانتظار...

- ٢ -

بقي ساكناً لفترة لا يعلم مداها، وهو يراقب حارس المكان يمتص السيجارة تلو السيجارة، ويذرع المكان بخطواته الثقيلة، ثم يعود إلى مراقبة النافذة، ونفسه تحدثه بإمكانية حدوث شيء ما في أي لحظة... فربما لا يكون عهد المعجزات قد ولى. وفجأة، وكأنما قام ميت من قبره، تحرك السجين الذي كان فراشه تحت النافذة مباشرة، وتقدم إلى حيث هشام. ودون أن يتفوه القادم بكلمة واحدة، بسط الفراش المكوم، وغطاه بالشرشف، ثم وضع المخدة باتجاه الحائط، ووضع البطانية في

الجهة المقابلة، ثم نظر إلى هشام وهو يشير إلى الفراش: «تفضل... شرفت الكراديب... شرفت بيت العصاة والمارقين»، ثم عاد إلى فراشه، وغطى نفسه بالبطانية رغم حرارة الجو والرطوبة المزعجة، تاركاً المجال لإحدى عينيه تنظر إلى هشام دون أي تعبير. أما الثلاثة الآخرون، فقد انتبهوا للحظات حين جاء هشام، ولكنهم عادوا إلى تزميل أنفسهم بالبطانيات دون صوت أو حركة، رغم أن أعينهم لا تزال مفتوحة على آخرها.

اضطجع هشام على الفراش وهو يحس أن صدره قد تحول إلى علبة مفرغة من الهواء، بحيث انطبقت جنباتها على بعضها. إنه يريد أن يتنفس، وهو يتنفس، ولكن لا هواء في الغرفة، أو أن رئتيه مثقوبتان لا تستوعبان هواءً. ويتنفس بقوة أكثر، وقوة أكبر، ولكن الهواء لا يريد أن يستقر هناك. وعاوده الإحساس بالقرف من جسده المغموس بالرطوبة والعرق، مع ذلك الضيق الذي يحطم كل ضلع من أضلاع صدره. إنه يريد أن ينام، لعله ينسى القبر وساكنيه، أو لعله يستيقظ فيكتشف أن كل ما يجري ليس إلا كابوساً مريعاً. ولكن النوم لا يريد أن يأتي هو الآخر. كل شيء ساكن ومرعب، مثل سكون مقبرة معزولة، في ليلة غاب قمرها واشتد ريحها، لا تزعجه إلا أصوات صراصير تغني في الخارج، وكلب يعوي من بعيد، وشخير بعض قاطني الغرفة الذي أخذ يعلو ويملأ المكان بالخوف... رباه... كيف يستطيع أحد أن ينام في مكان هو خارج المكان؟! وما زال الحارس يذهب ويجيء بخطاه الثقيلة المنتظمة على بلاط الشقة، ويدخن، وهو يدندن بأغنية لفوزي محسون: «يا طير ماذا الصباح، ذكرتني بالحبايب»، قتلاً للوقت في انتظار أن تنتهي نوبته ويأتي خليفته سريعاً. وأحس برغبة محرقة في التدخين، ولكنه ترك العلبة

في جيب ثوبه الذي خلعه قبل الدخول. وأخذ يتقلب على فراشه وهو يحس أن كل شيء ابتدأ يطبق عليه مع ازدياد ندرة الهواء، أو اتساع ثقوب الرئة، أو هما معاً. لقد تحولت ذاته إلى شيء أشبه بثقب أسود يمتص ما حوله بعنف وقوة... الجدران، السقف، الأرضية، الناس، الصراصير، الكلاب، الهواء، بدأت تضغط عليه بعنف وهو غير قادر على صدها، بل هو يجذبها بقوة السواد في داخله. وابتسم للحظات وهو يتخيل نفسه وقد تحول إلى «الفتاة الشبح» التي كان يقرأ مغامراتها في مجلة «سوبرمان». تصور أنه قادر على التحول إلى طيف قادر على اختراق الجدران الصلدة دون أن يستطيع أحد منعه، بل هو ينظر إليهم ويضحك. وتخيل أنه قد تحول إلى عصفور صغير، بجناحين من ريش ناعم، يحملانه إلى حيث الهواء البارد، والنسمة العذبة والانطلاق دون حدود أو قيود، ودون أمل ولا ألم... ألا ليته كان مثل ذاك العصفور الذي اشتراه ذات مرة بربع ريال، وأطلقته أمه في الهواء!! ولكن أين العصفور وأين أمه وأين الهواء... ليس إلا هذه العلبة المفرغة من الهواء، والتي يزداد انقباضها مع سريان الوقت وسكون المكان.

وبقي في هذه الحالة من التلاشي لفترة لا يمكن أن تقاس، فقد انعدمت المقاييس. وفجأة، وجد نفسه يجلس على ساحل بحر لا ينتمي لمكان أو زمان، يراقب الشمس الحمراء وهي تستعد للانتحار من جديد في بحر الأبدية، كعادتها في كل يوم، في مسيرة لو وعتها الشمس، لانتحرت إلى الأبد. كانت جميلة لحظة الانتحار، وكأنها تزف إلى حبيب مجهول وليست تنتحر. كان يراقب جمال موت الشمس، وتلك الأمواج الفيروزية التي تتكسر عند قدميه العاريتين، تاركة الزبد الناصع الذي جلبته من آخر الدنيا، يتلاشى على شاطىء مجهول. ثم فجأة وجد

نفسه في صحراء مترامية الأطراف، قارسة البرد، حالكة الظلام، إلا من بضع نجوم تومض على استحياء من بعيد. أصابه خوف شديد، رغم علمه أنه يحلم. فقبل قليل كان يستمتع بجمال الشمس وسحر الأمواج على ساحل مجهول، وقبلها كان في أحد قبور جدة، وها هو الآن في هذه الصحراء المرعبة... ما الذي يجري؟ ليس هناك أفظع ولا أرعب من الحلم وأفلام الكرتون، فكل شيء فيها ممكن غير مستحيل، وهنا الرعب كل الرعب. ولكنه كان يحس بشيء من السعادة، طالما أن كل ما يجري له مجرد حلم، أو سلسلة من الكوابيس، لا يلبث أن يستيقظ ويجد نفسه على سريره في عدامة الدمام، أو شميسي الرياض.

وأخذ يسير على غير هدى في الصحراء، وقشعريرة البرد تستولي عليه. كل شيء يوحي أنه لا يسير، رغم أنه يسير. النجوم هي النجوم، والصحراء والظلام عديمة الأبعاد لا تريد أن تنجلي، واختفت البداية، وتلاشت النهاية، فلا يدري أهو يسير أم يهيء له أنه يسير. ولاح له بصيص نور من بعيد، وأحس بالفرح الغامر رغم أنه يعلم أنه يحلم. وأخذ يغذ السير، فيما النور يزداد سطوعاً وتتعدد ألوانه، أخضر وأحمر وأصفر، ويتخللها لون أزرق باهت. وأخيراً وصل إلى حيث النور، ثم فجأة أشرقت الشمس وهي تضحك بشكل هستيري. لم تكن ذات الشمس التي يعرف، فقد كانت شديدة الحرارة عديمة النور، فرغم سطوعها، إلا أن الظلام الحالك ما زال سائداً. وأخذ دماغه يغلي من الحرارة الشديدة، إلا أن جسمه كان يرتعش برداً، وأخذت النجوم ترسل سهاماً فضية في كل مكان، حيث تتكسر بصوت أقرب إلى الرنين على صخور لا يراها، ولكنه يعلم أنها هناك.

وفي خضم كل ذلك، كانت نسمات هواء منعش تأتي من واحة وارفة

الظلال، تنبعث منها تلك الأضواء التي رآها من بعيد. كانت الواحة محاطة بأسلاك شائكة من كل جوانبها، فلم يستطع الدخول. وأخذ يحوم حولها، حتى تبين له الباب من بعيد. اتجه إليه، وأراد الدخول بعجلة، إلا أنه في اللحظة تلك، برز له شخص من حيث لا يدري، يحمل سوطاً طويلاً، وملامح غريبة. فقد كان له وجه ثور، في رأس وجسم بشريين، وله مخالب في يديه ورجليه أشبه بمخالب الكلب، وفي مؤخرته يبرز ذيل لولبي أشبه بذيل الخنزير. استوقفه هذا الكائن وهو يخور قائلاً:

ـ إلى أين أيها الإنسان؟

ـ أريد المأوى والطعام والسلام... هل هذا كثير؟

ـ وهل تعتقد أن الدخول بهذه البساطة؟.. الواحة واحتي، ولا يدخلها إلا من يدفع الثمن. وثمنها بخس جداً... قبول شروطي.

ـ واحتك؟.. شروطك؟.. من أعطاك إياها؟

ـ قوتي هي من أعطاني إياها... إنها لي وحدي.

ـ القوة لا تصنع حقاً.

ـ بل القوة هي الحق.

ـ الحاجة أساس الحق.

ونخر الكائن الغريب، ثم قال بنفاد صبر:

ـ قوتي هي الحقّ هنا، وإن كنت في شك من ذلك، فحاول الدخول رغماً عني.

ولم يجد بداً من الاستسلام، فقد كانت الحرارة والبرودة والظلام والصحراء لا تطاق، فقال:

ـ حسناً. . . وما هي شروطك؟

وافتر وجه الكائن عن بسمة رضا واسعة، وأخذ اللعاب اللزج يسيل من بين أسنانه الضخمة، فيما تحول أنفه إلى اللون الأرجواني وهو يقول:

ـ الآن أصبحت عاقلاً وحكيماً.

ثم استطرد:

ـ ليس لي إلا شرط واحد لا غير. . . أن تطيعني في كل ما أمرك به، ولك أن تتمتع بالماء والهواء والثمار والسلام.

ـ يا له من سعر باهظ!

ـ ويا لها من ثمار طيبة!

ـ وإن رفضت؟

ـ ليس لك إلا الصحراء والجوع والعطش وكلاب الطريق.

ـ ولكني لا أستغني عن الحرية. . .

ونخر الكائن مرة أخرى وهو يقول:

ـ الحرية. . . ما هي الحرية؟ مجرد كلمة.

ـ ولكن في البدء كان الكلمة.

ـ وما نفع الكلمة مع الجوع والقلق؟

ـ وما نفع الشبع والسكينة مع العبودية؟

وأخذ الكائن ينخر ويهز سوطه في الهواء، وهو يقول:

ـ دعك من هرائك هذا. . . أمامك خياران، إما أن تقبل شرطي

وتدخل واحتي، أو أن تعود إلى الضياع في الصحراء.

وأخذ يفكر في الخيارين وهو يختلس النظرات إلى داخل الواحة. لقد كانت مظلمة مثل الصحراء حوله، رغم الألوان التي كانت تحيط بها، وتلك الأضواء التي يراها من هو بعيد، ولكنها تختفي حالما يصلها أحدهم. ومن الداخل كانت تتراءى أشباح أهل الواحة رغم الظلام. . . وجوه حمراء، وكروش منتفخة، وأعين فقدت بريق الحياة، وهم يأكلون طول الوقت. وهُيِّىء له أن وجوههم قد بدأت تتحول إلى شيء أقرب إلى وجه الكائن الذي يقف أمامه.

ـ ولكن قل لي. . .

قال هشام موجهاً حديثه للكائن:

ـ لماذا الظلام دامس في الواحة رغم الألوان والأنوار التي تتراءى من بعيد؟

وضحك الكائن، وهو يمتص بعض لعاب سال من جانب فمه، وقال:

ـ الظلام في كل مكان، ولكن الطعام هنا فقط.

ـ ولكني أرى بصيص نور في الأفق يوحي بانبلاج الفجر في الصحراء، ولا أرى ذلك البصيص في الواحة!

ـ النور مزعج للعين، ونحن لا نحبه هنا، فهو مفسد للسكينة والطمأنينة. ليس ألذ وأجمل من هدوء الليل، وصمت الظلام.

ـ لِمَ لا تقول إنك أنت من يكره النور، كي لا يرى أحد وجهك المسخ.

وهنا ثار الكائن، وأخذ ينحر بشدة، ورفع السوط في الهواء يريد أن يهوي به على جسد هشام، الذي فر من أمامه وهو يقول:

ـ سأضرب في الصحراء غير آبه بالشقاء... فلا بد للصحراء من نهاية، ولا بد لليل من فجر، ولا بد أني واجد واحتي مهما طال الزمان... واحتي سوف تكون بلا سياج ولا ظلام ولا أمساخ بشر... وإن مت قبل ذلك، فسوف أموت وأنا حر.

وتابع طريقه إلى عمق الصحراء، فيما الشمس توقفت عن ضحكها، وانكفأت على نفسها، والكائن يضحك من بعيد ويقول بصوت كالرعد:

ـ لن تجد أفضل من واحتي هذه، كل الواحات مثل واحتي... سوف تعود إليَّ مهما طال بك التجوال، طالباً الصفح والغفران، مستجدياً أن أقبلك عبداً من عبيدي، وساعتئذ... وساعتئذ ستعرف من أنا.

وصاح هشام من بعيد:

ـ كلا... كلا لن أعود إلى واحتك إلا بعد أن يشرق فيها النور ويخلع السياج وتعود إلى الناس وجوههم.

وابتلعته الصحراء، وقهقهة الكائن تدوي وراءه كالرعد، والشمس عادت إلى ضحكها وحرقتها، ولكنه يسير وهو يرى خيوط الفجر من بعيد.

ـ يا سيد... يا سيد... انهض، لقد حضر طعام الإفطار.

وفتح عينيه، فوجد نفسه في مكان البارحة، فعلم أنه يعيش كابوساً حقيقياً، وليس حلماً من الأحلام، رغم أن صورة الكائن تراءت له مطلة من نافذة القبر.

ـ ٣ ـ

كان الذي أيقظه هو الشخص ذاته الذي فرش فراشه ليلة البارحة. جلس مسنداً ظهره إلى الجدار، وهو يتأمل ما حوله في ضوء الصباح. كانت الصالة مكتظة بأشخاص تجمعوا حول رجل في غاية البدانة، بوجه مستدير كأنه رغيف خبز شامي خارج لتوه من الفرن، وشاربان كثيفان حادان، ولحية مثلثة منسقة، وقصر قامة جعله أشبه بزير ماء يرشح، وبسمة واسعة لا تفارق محياه. كان الرجل يغرف الطعام للبعض، فيما بقي الآخرون يقفون في طابور طويل. ولم يكن في الغرفة أحد ممن كان موجوداً ليلة البارحة. وبعد دقائق، أخذ قاطنو الغرفة يتقاطرون واحداً تلو الآخر، وقد حمل كل منهم طبقاً بلاستيكياً ممتلئاً بالشكشوكة، ورغيف خبز. وسحب أحدهم قطعة كبيرة من الكرتون، وضعها في منتصف الغرفة، وصفت عليهاالأطباق. ثم رجع الذي أيقظه صباحاً إلى الصالة وعاد ومعه طبق آخر ورغيف خبز وضعها على السفرة، وجلس إلى جانب زملائه وهو ينظر إلى هشام ويقول باسماً: «تفضل يا سيد... حظك طيب، فعمك عبده طابخ شكشوكة اليوم»، فاغتصب هشام بسمة سريعة، وسأل عن طريق الحمام، فأخبره أن عليه أن ينضم للطابور الذي أمامه، ولكن عليه أن يستأذن الحارس أولاً، ثم ألقى باللقمة في فمه وأخذ يلوكها بلذة وسرعة. نهض بتثاقل، وكاد أن يقع إذ نسي وجود القيد في رجليه، فرفعه بإحدى يديه، ثم تأكد من ربط الإزار حول خصره، فلم يكن معتاداً على ارتدائه من قبل، واستأذن الحارس الذي أومأ له بإشارة من رأسه، ثم انضم إلى طابور المنتظرين.

كان الحمام في غاية الاتساع، في وسطه مرحاض بلدي، وعلى

الركن الأيسر «دوش» بدون حوض، وبجانب الباب حوض غسيل أبيض تتناثر عليه بعض البقع البنية. وفي آخر الحمام، كان هنالك نافذة صغيرة عالية بعض الشيء، بقضبان فولاذية متينة. كان الحمام نظيفاً جداً، مقارنة بحمام الخبر، وإن كان هنالك بعض الروائح المزعجة المعتادة في مثل هذه الأماكن، ولكن كان من الممكن احتمالها والاعتياد عليها بسهولة بعد وقت قصير. اتجه إلى حوض الغسيل مباشرة، وغسل وجهه ورأسه، وتمضمض بالماء طويلاً، وأحس ببعض الانتعاش، رغم أن ماء جدة مثل ماء الدمام، مالح ليس فيه ريح الانتعاش، بعكس ماء الرياض الزلال. كان يود لو كان بإمكانه أن يستحم، ويغسل أسنانه بالفرشاة والمعجون، ولكنهم صادروا حقيبة ملابسه حيث الفوطة والفرشاة والمعجون. فاكتفى بذلك وعاد أدراجه إلى الغرفة، جاراً القيد بتثاقل ورعب سيطر عليه تماماً، وكانت الصالة قد خلت تقريباً من الواقفين والمتزاحمين، ولم يعد هناك إلا الحارس يصارع السأم، وأحدهم كان يشعل سيجارة من الكبريت الموضوع في حراسة الحارس.

كان رفاق الغرفة قد انتهوا من طعامهم عندما عاد، وقد تركوا له طبقاً ممتلئاً بالشكشوكة، ورغيف خبز، وهم لا يزالون يتحلقون حول السفرة ويتحدثون بهدوء. جلس معهم وهو يحس بشيء من الخجل والغربة. لم يكن يشعر بالجوع، فكل ما يتمناه هو كوب شاي ساخن وسيجارة. أجبر نفسه على أكل بضع لقيمات، كان صارع معدته خلالها كي لا تعيد الطعام، ثم عاد إلى فراشه وجلس مستنداً إلى الحائط وعاد إلى قلقه ومخاوفه. ثم لم يشعر إلا ورفيق البارحة يجلس بجانبه، ويضع راحته على مرفقه، وهو يبتسم ويقول: «لا تقلق... هكذا هي الأمور في البداية، وبعد ذلك سوف تعتاد على الوضع». ونظر هشام إليه متفحصاً،

وهو يحاول أن يبتسم، ولكن فمه لم يطاوعه، فانطفأت البسمة سريعاً. كان رجلاً في حدود الخامسة والثلاثين من العمر، شديد النحول، وشديد بياض الوجه، بشعر شديد السواد وشديد التجعد. أما أكثر ما يلفت الانتباه فيه، فهو عينه البيضاء، التي لا بد أنه فقدها من الجدري الذي ترك بصماته الغائرة على وجهه. كانت شفتاه ضخمتين جداً، وفي غاية التورد، مع أن أنفه كان شديد الدقة، وكانت المسافة بين أنفه وفمه في غاية الاتساع، بشكل ملفت للنظر، خاصة أنه كان حليق الشارب مما جعل المسافة أكبر وأكبر.

نظر هشام إليه وقال: «أنا بحاجة إلى كوب شاي وسيجارة... هل هذه الأشياء ممكنة هنا؟»، وابتسم رفيق البارحة، كاشفاً عن أسنان ضخمة في غاية البياض والانتظام، وقال: «من هذه الناحية اطمئن... فبعد قليل سيأتي عم عبده بالشاي، أما الدخان فهم يوزعون علبة على المدخنين كل يومين...»، ثم انسحب إلى فراشه، وأخرج علبة أبو بس جديدة من تحت فراشه، وعاد إلى هشام وهو يناوله إياها قائلاً: «أنا في الحقيقة لا أدخن، ولكني أخبرتهم أني أدخن عندما أتيت... لا تدري، ربما يحتاجها أحد الرفاق... مثلك الآن». وفض هشام العلبة بسرعة، ونظر إلى الزميل وعيناه تسألان عن الكبريت أو الولاعة. ضحك الزميل وأخبره أنه من غير المسموح الاحتفاظ بولاعة أو كبريت، فهو عند الحارس، وعلى المدخن أن يشعل سيجارته من هناك. ونهض هشام بسرعة، استأذن الحارس، وأشعل السيجارة، وعاد إلى فراشه وهو يمتصها بقوة ولذة، نافثاً دخانها في كل الأرجاء، وهو يراقبه بحسد يتسلل هارباً من نافذة الغرفة. وبعد دقائق، فتح الباب الخارجي بصوته المزعج، الذي تألفه بعد فترة وجيزة، ثم ظهر الرجل البدين وهو يصيح

بصوت أجش: «الشاي... الشاي...» وغادر الزميل الغرفة وهو يحمل أربعة أكواب بلاستيكية، ويقول موجهاً حديثه نحو هشام: «عليك يا صاحبي أن تأتي وتعرف بنفسك، كي تحصل على طبق وكوب... هذا إن أردت أن تأكل وتشرب»، قال ذلك وهو يضحك بحبور. نهض هشام بحماس، واتجه الإثنان إلى حيث الرجل البدين، فأشار الزميل إلى هشام قائلاً: «زميل جديد يا عم عبده...»، فهز البدين رأسه علامة الفهم، وابتسم بحذر خوفاً من وقوع السيجارة المتعلقة بين شفتيه، ثم قال من بين شفتيه: «بعد قليل سيأتي الطبق والكوب... أمهلني حتى أنتهي من هذا الإبريق»، وهز الإبريق النحاسي الضخم في يده وقد قارب النفاد. وعاد الإثنان إلى الغرفة، وما هي إلا دقائق، وكان عم عبده يقف بالباب يحمل طبقاً فارغاً، وكوباً ممتلئاً بالشاي الساخن. تناول هشام الشاي، وأشعل سيجارة، وعاد إلى فراشه وهو يحتسي الشاي بكل لذة الدنيا.

لا يدري كم من الوقت مضى، ولا كم سيجارة دخن، عندما وجد رفيق البارحة يجلس إلى جانبه من جديد وهو يبتسم كالعادة، ويقول:

ـ أقدم لك نفسي... عارف... عارف مطلق القمار.

ـ وأنا هشام... هشام ابراهيم العابر.

وتصافح الإثنان وهما يبتسمان، ثم قال عارف، وهو يتلفت حوله، وقد برزت عينه البيضاء من محجرها:

ـ ما الذي أتى بك هنا؟.. ما هي تهمتك؟ بعثي والا شيوعي. والا الهوى رماك؟

قال عارف جملته الأخيرة وهو يطلق ضحكة مكتومة، بدت كصوت فأر محاصر. ولأول مرة يوجس هشام خيفة من هذا الشخص الودود،

فلعله جاسوس يريد استدراجه إلى الاعتراف دون أن يشعر، فقال ببرود وهو ينظر إلى لا شيء:

ـ دع الأمر لله.

وضحك عارف وهو يخبط براحته على منكب هشام ويقول:

ـ الشك واجب يا صاحبي في هذا المكان، وهو أمر طبيعي... ولكن الزمن كفيل بزرع الثقة بيننا.

ثم وهو يضع راحته على كتف هشام بهدوء، وينظر إليه بعينه الوحيدة:

ـ ولا أخفيك أني شعرت بالراحة تجاهك عندما رأيتهم يأتون بك ليلة البارحة... أحسست أني أعرفك منذ زمن.

ونظر إليه هشام بخوف وريبة، في الوقت الذي شعر بالرهبة عند سماع كلمة «الزمن»، فقد أشعرته أنه يعيش لحظات حقيقية، وليس مجرد كابوس لا يلبث أن ينجلي بكل رعبه وعبثيته.

ـ كلا...

قال هشام:

ـ كلا، المسألة ليست كذلك... كل ما في الأمر أنني فعلاً لا أدري لماذا أنا هنا.

وابتسم عارف بخبث وهو يقول:

ـ ليكن الأمر كذلك. ذاك شيء لا يهمني كثيراً، والأيام كفيلة بحله.

ثم وهو يزفر بشدة:

ـ أما محسوبك...

وأخذ يطبطب على صدره بشكل بدا تمثيلياً، وهو يقول:

ـ أما محسوبك، فهو شيوعي عتيق... لقد حكم علي بعشر سنوات في السجن عام ١٩٦٤، في قضية جبهة التحرر الوطني. أو الحزب الشيوعي إن شئت... أكيد سمعت عنها؟

ثم وهو يضحك:

ـ يبدو أن مولانا أراد أن يبدأ عهده بمعاقبة المارقين... ولكن ليس كل المارقين.

وغابت الضحكة من فم عارف الواسع وهو يقول:

ـ كان معنا أناس آخرون... ولكن إحنا اللي أكلناها.

وصمت عارف وهو ينظر مبتسماً إلى هشام، الذي بقي صامتاً هو الآخر، ثم نهض وأشعل سيجارة، ثم عاد وجلس بجانب عارف وهو يقول بصوت يفوح الشك في نبراته:

ـ قصتك غريبة يا أخ عارف... إذا كنت محكوماً سلفاً، فلماذا أنت هنا؟

وضحك عارف بشدة، جعلت هشام يكتشف أن رائحة فمه كريهة جداً رغم الأسنان البيضاء، ثم قال:

ـ العلم عند الله.

ووضع يده على فمه، مثل عذراء في خدرها، قبل أن يقول متصنعاً حكمة العلماء:

ـ أرجو المعذرة. زلة لسان فرويدية. رواسب الماضي لا تزال تعشعش في داخلنا. الحقيقة لا أدري... ولكن حكمة الجهاز اكتشفت

أن هناك علاقة تنظيمية بين شيوعيي الأمس، وبعثيي اليوم...

وابتلع عارف ريقه، ثم قال:

ـ نعم كنا نعرف معظم البعثيين وغيرهم تلك الأيام، وكان بيننا وبينهم خصومات وحوارات أيضاً، ولكن كل ذلك انتهى بعد اعتقالنا وسجننا و... يبدو أن الجهاز يريد أن يثبت ذاته أمام مولانا، ففعل ما فعل.

ثم وهو يتنهد:

ـ أتدري يا صاحبي... العلة ليست في الأنظمة السياسية، ولكنها في من يحاولون إثبات إخلاصهم لهذه الأنظمة بأي شكل من الأشكال، حتى وإن كان ذلك على حساب النظام ذاته. وحتى إن كان ذلك على حساب ضحايا مثلنا.

وأخذ هشام ينظر إليه وهو متفاعل مع ما يقول في داخله، ولكن عقله يأبى أن يطلق العنان لنفسه، فهو لا يدري أي الأشخاص هذا، فهو لم يقابله إلا البارحة.

ـ وهل حققوا معك؟

قال هشام:

ـ نعم.

قال عارف وهو يقرض أحد أظافره:

ـ نعم، وقلت لهم نفس ما قلت لك، ولكنهم لم يصدقوا... أو أنهم لا يريدون أن يصدقوا. ولم يتركوني في حالي إلا بعد أن استهلكوا دستة من الخيزران على قدمي وظهري. وليتهم تركوني في حالي، فما زلتُ في الدور الأرضي... دور الذين لا يزال ملفهم مفتوحاً.

وأحس هشام بالرعب عندما ذكر عارف «الخيزران»، وتذكر ذلك الجردل الذي رآه في الساحة الصغرى ليلة البارحة، وقد كان ممتلئاً بعصي الخيزران المغموسة بالماء. وحاول أن يحتفظ بهدوئه وعارف يقول:

ـ لم أغير شيئاً من أقوالي رغم كل شيء. فالحقيقة واحدة لا يمكن أن تتغير. نعم، لقد كنت عضواً في جبهة التحرر الوطني، وما زلت شيوعياً... ولكن ألم يحكم علي وينتهي الأمر؟!

وتنهد عارف بعمق، ثم قال:

ـ لقد مللت من هذا المكان... تسعة أشهر من الملل والانتظار... متى يعيدوننا إلى السجن العمومي في الدمام!! هناك كنا نرى الأهل، ونطبخ ما يروق لنا، ونقرأ، ونخرج بعض الأحيان عندما يكون هناك حارس لطيف. السجن العمومي هو الحياة ذاتها... متى نعود للحياة؟ لم يبق من محكوميتي إلا ثلاث سنوات. أريد أن أعيش بلا رعب أو خوف أو قلق. هل هذا كثير يا هشام... هل هذا كثير؟

وابتلت عينا عارف بماء مالح، ولكن نشج بقوة، وعاد إلى وضع تلك الابتسامة على فيه، ثم قال:

ـ لم أعرفك برفاقنا في البرزخ.

ثم وهو يبتسم من جديد:

ـ قاتل الله فرويد.

ثم مستدركاً:

ـ على فكرة... أرجو ألا تناديني بالأخ. قل لي يا عارف... أو أبو وحيد، رغم أني غير متزوج.

ثم وهو يضحك:

ـ ولعل وحيد موجود في البصرة أو بيروت أو شيراز... فقد ذهبت هناك كثيراً، وكانت لنا صولات وجولات. أو ربما في أحد أزقة الدمام أو القطيف... من يدري!

وضحك عارف باقتضاب، ثم قال:

ـ وإذا كنت شيوعياً، فأرجوك أن تناديني بالرفيق. ولكن أرجوك. لا تناديني بالأخ... كلمة أخ تثيرني وتجعلني أشعر بالنفاق... والقرف.

وابتسم هشام بجبور لأول مرة منذ أن قدم هذا المكان، وقال:

ـ لا بأس... حسناً. قل لي يا أبو وحيد... ما هي تهمة رفاقنا هنا؟ إنهم من اليمن. لهجتهم توحي بذلك... أليس كذلك؟

ـ معك حق... إنهم من اليمن التعيس. وهم متهمون بالإعداد لعمليات تخريبية في البلد، ولكنهم يقسمون أنهم من كل ذلك براء. لا أدري... ليس لدي دليل... ولكني أصدقهم.

ـ لعلك تصدق كل شيء يسير وفق هواك يا أبا وحيد... أرجو المعذرة.

ـ كلا... صدقني يا صاحبي، ليست المسألة كما تتصور. لقد حققوا معهم وتبين أنهم مجرد عمال لا لهم ولا عليهم... ولكن المخلصين إياهم لا يريدون إلا الإدانة. لم يثبت شيء، ولكنهم معلقون منذ ثلاث سنوات هنا... لا إدانة ولا براءة، وهم لا يزالون في الدور الأرضي.

وضحك عارف وهو يقول:

ـ وعلى أية حال، فأي شيء يأتي هو فأل خير بالنسبة لهم... فهم يتوقعون الإعدام، وفي مخيلتهم ما جرى لمنفذي التفجيرات السابقة... أنت تفهم ما أعني.

ـ طبعاً. طبعاً. ولكن...

واستند هشام في جلسته، ثم أشعل سيجارة وعاد بسرعة وهو يقول، وقد تخلل الدخان أسنانه الدقيقة:

ـ يعدمون؟.. كيف؟ لماذا؟ ألم تقل إنهم بريئون؟!

وأجاب عارف، وهو يعبث بسيجارة دون أن يشعلها، ويبتسم بخبث:

ـ نعم... ولكن للسياسة أحكامها بعض الأحيان يا عزيزي... وما نحن إلا بيض بيـن ثيران متصارعة أكثر الأحيان.

ثم وهو يتحرك بحماس:

ـ دعني أعرفك بهم.

ودون انتظار رد، انقلب كاظم إلى الجهة الأخرى وهو يصيح:

ـ يحيا... علي... عبد الغني...

والتفت الجميع إليه، فقال وكل وجهه ابتسامة:

ـ أعرفكم بزميلنا الجديد... هشام... هشام ابراهيم العابر.

وصاح الجميع بصوت واحد مرحبين، ثم أخذ عارف يشير إليهم واحداً واحداً معرفاً:

ـ يحيا قايد من الحديدة... علي مصلح من تعز... عبد الغني عنتر من صنعاء...

وهز هشام رأسه وهو يبتسم محيياً، فيما أخذ الآخرون يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم، وهم يقولون: «شرفت الكراديب»، «وما منكم إلاّ واردها»، «نحن السابقون وأنتم اللاحقون يا أخ هشام...»، ثم هدأت عاصفة التعليق وعاد الثلاثة إلى أحاديثهم الخاصة. كان واضحاً أن علي أصغرهم سناً وأوسمهم. فقد كان شاباً في حوالى الحادية والعشرين من العمر، في غاية النحافة والطول، حليق الرأس تماماً، أبيض البشرة، أخضر العينين، دقيق التقاطيع. أما يحيا، فقد كان أكبرهم سناً، وكان منظره الخارجي لا يبعث على الارتياح لأول وهلة، رغم أن هشام قد تبين فيه طيبة متناهية بعد ذلك. لقد كان يحيا شديد البنية بشكل واضح، كبير الكرش، شديد السمرة، بشعر كث أجعد، اختلط أبيضه بأسوده، وشارب غزير يحتل كل المسافة بين أنفه الأفطس وفمه الكبير. وكان متجهم الوجه دائماً، ولا يفتر فمه عن بسمة إلا في النادر، ثم يعود إلى صمته والغرق في ذاته. وقد تبين لهشام فيما بعد أن مظاهر الصرامة التي كان يحيا يكسو بها وجهه لم تكن إلا خط دفاع ضد الآخرين الذين يحاولون اختراق ذاته. ولكن ما أن يخترق هذا الخط، حتى يتبين أي نفس حساسة وراء ذلك المظهر المتجهم. أما عبد الغني، فلم يكن هناك ما يلفت الانتباه في مظهره الخارجي. كان، كأي إنسان تلقاه في الطريق، عادياً... عادياً تماماً.

كان يتأملهم عندما سمع صوت الباب الخارجي يفتح، ويلج منه عسكري بعدة شرائط، وقف في وسط الصالة وأخذ يصيح بصوت أجش: «هشام... السجين هشام ابراهيم العابر». وأخذته رجفة عندما سمع اسمه يتردد في هذا المكان، وبدأ العرق يتصبب بغزارة من ثقوب جسده... لا بد أنه منكر أو نكير. لقد حانت ساعة الحساب. وبقي في

مكانه لا يريم، وقد أحس أن الزمان والمكان انطبقا على بعضهما. ولم يعد إلى الدنيا إلا بيد عارف التي كانت تهزه بشدة، وهو يؤشر له بضرورة تلبية النداء. وتحرك بتثاقل وتردد نحو الباب، وهو يقول بصوت جاف متلعثم لا يكاد يسمع: «نعم... نعم يا...»، ولم يدر ما يقول، فهو ليس ضابطاً كي يناديه ببيه. إنه لا يدري طقوس وشعائر هذا المكان الذي وجد نفسه فيه من حيث لا يحتسب. إلا أن العسكري لم يمهله، وقال بحدة وخشونة: «ايش فيك يا مسجون... أنت أطرش والا ايش؟» وحاول هشام أن يقول شيئاً، إلاّ أن العسكري لم يمهله فقال بعصبية: «قرفتونا في عيشتنا الله يقرفكم... ماني عارف ايش الحكومة شايفة فيكم علشان تعاملكم كذا؟»، ثم دفع إلى هشام صندوقاً من الكرتون كان يحمله وهو يقول بآلية، وكأنه يتلو صلاة معتادة: «الدخان كل يومين، المعجون كل أسبوعين، الصابون والمعجون كل شهر، الملابس الداخلية كل ستة أشهر...»، ثم غادر وهو يبرطم ويقول كلاماً غير مسموع.

عاد هشام إلى الغرفة، وأخذ يتفحص محتويات الصندوق: صابونة، علبة مسحوق صابون، فرشاة أسنان، معجون أسنان، علبة سجائر أبو بس، سروالان داخليان، فانيلتان داخليتان، منشفة خضراء صغيرة، وملابسه التي صادروها منه عندما جاء ليلة البارحة. أحس هشام بسعادة كبيرة لم يشعر بها منذ زمن. فلم يكن الآتي منكراً ولا نكيراً، بل إنه بشرى خير... كانت سعادته عارمة حتى أنه كان على استعداد لتقبيل الحارس. أخيراً سيستحم ويتخلص من رائحة جسده الكريهة، وتلك اللزوجة الشنيعة التي تطبق على أنفاسه... كم يكره الرطوبة وعفونتها في الدمام وجدة. لو لم يكن للرياض إلا ميزة الجفاف، لكفت.. ولكن ليس كالرياض شيء في هذه الدنيا. حتى بشاعتها، وجلافة أهلها، جمال

ما بعده جمال. وخطرت سارة على ذهنه، فأحس بذلك المغص اللعين من جديد، ولكن سعادته بالصابون والمنشفة أنسته كل شيء... أخيراً سيستحم. وطلب الإذن من الحارس، فأذن له بسرعة، فقد كان الحمام خالياً، ولم يكن هناك طابور منتظرين في الصالة. ودخل الحمام وهو يحس كأنما امتلك الحياة بذاتها. ألقى كل ملابسه على حوض الغسيل بسرعة، ولم يستطع خلع سرواله الداخلي، فقد كان القيد يقف حائلاً دون ذلك، فتركه على حاله، وترك الماء ينساب على جسده بقوة أنعشته، وأخذ ينظر إلى الماء والصابون وهما يتعانقان ويخرجان من هذا المكان البغيض، وهو ينظر إلى عناقهما وخروجهما بكل حسد، حتى وإن كان المخرج هو البلاعة الآسنة. وتذكر ذلك اليوم البعيد حين أحس بنفس اللذة والراحة بعد مغامرته مع رقية، ولكن الوضع يختلف اليوم. ففي ذلك الفجر، كان يحاول أن يعود إلى ذاته. أما اليوم، فهو يحاول الفرار من هذه الذات.

واستمر تحت الماء لمدة لا يعلمها، ولا يريد أن يعلمها، وهو غارق في كل شيء، إلا المكان الذي هو فيه، حتى أعاده إلى الوجود المقيت صوت الحارس وهو يضرب الباب بقوة طالباً سرعة الانتهاء.

ـ ٤ ـ

وعاد إلى الغرفة، وأخذ يرتب أغراضه، فيما الآخرون يلعبون الشطرنج. فقد كانت هناك معركة حامية الوطيس فيما يبدو، بين علي ويحيا، فيما كان عارف يتابع اللعب بحماس، وعبد الغني يراقب بهدوء في الزاوية البعيدة وهو ينظر دون اكتراث. انتهى من ترتيب أغراضه،

واقترب من ساحة المعركة وهو يجفف شعره الطويل. جلس بجانب عارف وأخذ يتابع اللعب. كان علي يهاجم بعنف وضراوة، فيما كان يحيا يحاول أن يحمي جيشه المخترق. كان هشام يعلم أن كل أنواع المسليات ممنوعة في المكان، فكيف إذا كان شطرنج يحرمه بعض الفقهاء؟. . كان واضحاً أن الشطرنج مصنوع في داخل السجن، ولكنه لا يدري مما وكيف. نظر إلى عارف، المتحمس لنقلات علي، وقال هامساً: «أبو وحيد. . . أليس هذا شطرنج»، «نعم. نعم. شوفة عينك». وصمت هشام لبرهة، وهو يتابع الأنفاس المشدودة، ثم لم يلبث علي أن صاح بحماس، وهو ينظر إلى يحيا بعيون جاحظة: «كش ملك. . . راحت عليك يا سيد يحيا»، وأخذ علي يقهقه بحبور. وأخذ يحيا يقلب عينيه في رقعة الشطرنج، ولما لم يجد ملاذاً لملكه، نهض وهو ينخر قائلاً: «يا له من حظ. . . حظك يفلق الصخر يا علي»، وقهقه علي وهو يقول: «الحظ حيلة العاجز يا سيد يحيا»، ونخر يحيا من جديد، وسحب سيجارة من علبته واتجه إلى الخارج لإشعالها، فيما كان علي يقول بخيلاء: «هل من مبارز؟»، وجلس عارف قبالته بسرعة وحماس وهو يقول: «على رسلك يا صاحبي. . . ليس كل من ركب الحصان خيالاً، وليس كل من دخل المطبخ طباخاً. جاءك من يعيدك إلى وعيك وحجمك يا صاحبي»، وضحك علي وهو يقول: «كان غيرك أشطر. . . أنا سيف بن ذي يزن هنا»، «وأنا عنترة بن شداد زمانه يا فالح»، وبدأ الجميع في صف البيادق وهم يضحكون، ثم بدأت المعركة. وفيما كان عارف يناضل لإخراج وزير علي من منطقته، سأل هشام: «عارف. . . من أين أتيتم بالشطرنج؟» واستطاع عارف أن يخرج وزير علي من منطقته، فابتسم مرتاحاً، ونظر إلى هشام وهو يقول: «من محل ألعاب

السجن. . . بجانب مكتب العقيد»، وضج الحاضرون بالضحك، فيما كان هشام يقول، وهو يحاول تجفيف أذنيه من الداخل: «لا. . . حقيقي. . . من أين لكم بالشطرنج؟» ودفع عارف بالقلعة إلى الأمام وهو يبتسم، ثم قال: «ستكتشف يا صاحبي أن السجن يعلمك أشياء كثيرة. هذا الشطرنج مثلاً. . . مصنوع من بقايا الطعام والسجائر»، وصمت عارف لفترة قصيرة، وهو يفكر بنقلته التالية، ثم حرّك الفرس، ونظر إلى علي بخبث، ثم قال موجهاً حديثه لهشام: «نجمع لب الخبز، وننقعه في الماء، حتى يصبح عجينة لزجة، نشكل منها البيادق، ونغلفها وهي رطبة بورق علب السجائر، أحمر وأبيض. هذا هو المتوفر. . . ونتركها حتى تجف في يوم أو بعض يوم، والنتيجة ما ترى. . . أما رقعة الشطرنج، فالشكر لعم عبده، فهو يأتينا بالكرتون من الخارج، وما علينا إلا أن نقسمها إلى أربعة وستين مربعاً، نجمع أعواد الثقاب المحروقة لتلوينها بالأسود، والباقي يترك دون لون. . . هذه هي القصة يا صاحبي. هل من سؤال آخر؟». وصمت عارف وهو ينظر بتوتر إلى رقعة الشطرنج، فقد كان وزير علي يخترق دفاعاته. وأخيراً افتر فم عارف عن بسمة واسعة، فقد حرك الفيل، المسنود بجندي، وهدد الوزير، فنظر إلى هشام بطمأنينة وهو يقول: «ألم أقل لك إن السجن والفراغ والقلق تعلم الكثير. . . ولا تعتقد أن السجن ما نحن فيه. كلا. . . السجن في كل مكان يا صاحبي»، ثم وهو يبتسم وينظر بعينه الوحيدة إلى البعيد: «انتظر حتى ترى المسابح التي نصنعها من نوى الزيتون. . . إنها ولا فخر، أفضل من تلك التي تباع على أرصفة مكة حول الحرم»، وابتسم هشام، وقد بدأ يحس بالألفة مع هؤلاء الغرباء، واتجه إلى الفراش حيث سحب سيجارة من العلبة، واتجه إلى الخارج وعارف يقول: «هشام. . . هل

تلعب الشطرنج؟»، وأجاب هشام وهو يقف عند الباب: «ليس تماماً... أعرف الأسماء فقط»، «إذن أنت تعرف كل شيء... فمن يعرف الأسماء، يعرف الأشياء كلها. على أية حال، سوف أعلمك. أنا ولا فخر، أفضل لاعب شطرنج يمكن أن يوجد». وفيما هو يشعل سيجارته بتلذذ، كانت صرخة علي قد غطت على كل شيء: «كش ملك...»، وبعدها بلحظات، كان عارف يتجه إلى الحمام.

ـ ٥ ـ

ومرت أيام عدة، ولم يحدث شيء يذكر. أخبره عارف أن التحقيق عادة يبدأ مع منتصف الليل، والمُحقق معهم يستدعون عادة قبل ذلك بنصف ساعة تقريباً. وفي الأيام الأولى، كان يبقى قلقاً متوتراً طوال النهار، لا هم له إلا قضم أظافره، وامتصاص السجائر. حتى إذا انتصف الليل ولم يسمع اسمه ضمن المنادين، نام بهدوء تتخلله تلك الأحلام المزعجة. كانت الأوامر تصدر لهم بالنوم في الساعة العاشرة تماماً، وتبقى الأنوار مضاءة، إلا أنهم يتصنعون النوم عندما يكون الحارس قاسياً، ويبقون ساهرين عندما يكون الحارس طيباً. ولا ينامون بالفعل إلا عندما ينتصف الليل، ويتأكدون من عدم ورود أسمائهم في كشوف تلك الليلة. لقد كان أقصى لذة ينالها أحدهم هي أن لا يستدعى تلك الليلة، وأن لا تكون تلك الصرخات البعيدة صادرة عنه. لم يكن أحد في مأمن من استدعاء العقيد له، حتى الذين انتهى التحقيق معهم. فطالما أنك في الدور الأرضي، فأنت مرشح للتحقيق في أي لحظة، وذاك رعب لا يدانيه أي رعب. أمنية الجميع أن ينتقلوا إلى الدور الثاني، دور الذين

انتهى معهم التحقيق نهائياً، لقد كانت الجنة هناك.

وتعلم خلال تلك الأيام لعب الشطرنج، وصنع المسابح من نوى الزيتون الأسود. كانوا يجمعون حبات النوى، ثم يحكون أطراف النواة على قطعة بلاط خشنة حتى ترق، ويظهر لب النواة. وبعود كبريت، يدفعون اللب إلى الخارج، ثم ينظمون الحبات بخيط مستل من فانلة مهترئة، أو ثوب قديم. وكان البعض يتفنن في صنع هذه المسابح، فيجعلها مستديرة تماماً، أو ملساء الجوانب بمزيد من الحك. وتعرف خلال الأيام الأولى على بعض نزلاء الشقة. لم يكن يعرف أحداً منهم بشخصه، وإن كان البعض يعرفونه بالاسم، مثل حسين مسيدس ويعقوب شيخون، اللذان كانا معه في الشقة نفسها. أما زكي الذي رآه عندما جاء تلك الليلة، فقد كان في الشقة المقابلة، أي في الدور نفسه، مما يعني أنهم لم ينتهوا منه. كان حسين ويعقوب أعضاءً في قيادة الحزب، كان حسين مسؤولاً عن التنظيمات الطلابية التابعة للحزب، ولذلك عرفاه. وقد كان في حالة فضول شديد للالتقاء بيعقوب شيخون، الشخص الذي كشف كل شيء في جلسة أنس. وعندما التقاه ذات يوم في طابور الحمام، فوجىء بشكله. فقد كان، لسبب لا يدريه، يتصوره عجوزاً سميناً، ببطن منفوخة، ورأس كبيرة صلعاء، فإذا به شاباً في غاية القصر والنحافة، وكثيف شعر الرأس والشارب. لم يتحدثا، وبقي ينظر إليه ببلاهة حتى جاء دوره لدخول الحمام.

وتوثقت علاقته بعارف، الذي نقل فراشه إلى جانبه، وكانا يقضيان ساعات طويلة في الحديث ولعب الشطرنج مع بقية زملاء الغرفة. واستطاع ذات مرة أن يتغلب على علي، وكانت المرة الأولى والأخيرة، فكان ذلك مثار تندر عارف طوال ذلك اليوم. وحذره عارف من حسين

مسيدس وعبد القادر سليحف خاصة، وإن لم يكن سليحف معهم في الشقة نفسها. لقد اعترف حسين على أكثر من مائتي اسم في التحقيق، كما يؤكد عارف، رغم أنه لم يعذب كثيراً، بل لم يعذب على الإطلاق، مجرد بضع لسعات من الخيزرانة. وقص عليه القصة التي رواها فهد قبل ذلك عن الفخ الذي نصبه سليحف لشيخون، مع بعض إضافات جديدة. فقد أكد عارف أن جلسة شيخون وسليحف لم تكن جلسة شراب فقط، بل كان هناك نساء أيضاً. وأن الذي سجل حديث شيخون لم يكن سليحف شخصياً، بل امرأة كانت مع شيخون في الفراش تلك الليلة. ولم يدرِ هشام أين الحقيقة في كل ذلك، فصمم على رؤية شيخون لاحقاً، والاستفسار من بطل القصة نفسها.

ـ لقد كان ذا ذاكرة غير عادية.

قال عارف وهو يتحدث عن مسيدس:

ـ لقد سرد مئات الأسماء بالكامل، وكأنه يقرأ من كتاب أمامه...

ـ هل تعتقد أنه كان يتعامل مع الجهاز من الأساس، ولذلك كان حريصاً على حفظ الأسماء؟

تساءل هشام، فيما كان عارف يهز رأسه نافياً:

ـ كلا. كلا. أنا أعرفه جيداً منذ كنا أطفالاً في المدرسة... إنه مخلص ولكنه ضعيف الشخصية جداً، ولكني لم أكن أعتقد أنه جبان وضعيف الاحتمال إلى هذه الدرجة أيضاً. كان بإمكانه الاعتراف على بعض الأسماء، ولكن ليس كل هذه الأسماء.

ثم وهو يلتفت إلى هشام، قائلاً بحنق:

ـ هل تعلم يا هشام أنه هو من أتى بي إلى هنا... واستند إلى

الجدار، وسرح في الأفق وهو يقول:

ـ لقد ادعى أن للشيوعيين علاقات تنظيمية بالجبهة الديموقراطية ونحن في داخل السجن.

وصمت عارف وهو يبتسم ابتسامة غامضة، قد تكون سخرية أو مرارة. ودار سؤال في رأس هشام، تردد أول الأمر في طرحه، ثم استجمع شجاعته وقال:

ـ وهل كان لكم علاقات بالجبهة فعلاً؟

وانتفض عارف وهو يقول:

ـ أقسم لك بشرف النضال أن ذلك غير صحيح. لقد كان بعض الأصدقاء يزوروننا في السجن، مجرد أصدقاء طفولة أو مدرسة أو وظيفة، أو من أهل القرية أو الفريج، ولم أعلم أن بعضهم كانوا أعضاء في الجبهة الديموقراطية إلا بعد ذلك... ونهض هشام لإشعال سيجارة، ثم عاد وسؤال آخر يطوف في ذهنه، إلا أن عارف لم يمنحه الفرصة وهو يواصل حديثه:

ـ بل لم نكن ندري شيئاً عن وجود تنظيم اسمه الجبهة الديموقراطية... لم يكن على الساحة وقت اعتقالنا إلا نحن والبعثيون وقلة من القوميين العرب والناصريين.

ثم وهو يلتفت إلى هشام ويقول بحماس توترت له ملامح وجهه:

ـ ولم نعترف على أي منهم... هذا هو شرف النضال. أما هم. أما هم...

وصمت للحظات، حتى تمالك جماح نفسه من جديد وقال:

ـ أما هم، فقد حاولوا توريطنا ونحن محكوم علينا في السجن.

ـ ولكن لماذا؟

وضحك عارف باقتضاب وهو يقول:

ـ لقد انفصلت الجبهة عنهم وتبنى رفاقهم السابقون الماركسية اللينينية. واعتبروا ذلك بتحريض منا حتى ونحن في السجن.

ـ ما زال السؤال... لماذا؟

ـ أكيد تعرف العداء بين الشيوعيين والبعثيين... هذا هو السبب ببساطة. ولكنهم لا يعلمون أن الجبهة الديموقراطية تعادينا أكثر منهم.

ـ كيف؟.. أليسوا ماركسيين لينينيين؟

ـ هذا صحيح... ولكنهم منحرفون. يحرفون الماركسية الحقيقية.

وضحك عارف وهو يقول:

ـ ولكنهم يدعون أننا تقليديون، وأنهم يمثلون جوهر الماركسية كما أرادها ماركس ولينين... يحاولون ستر انحرافهم بمقولات التجديد. هناك أمور لا يجوز التجديد فيها يا عزيزي.

قال عارف ذلك وهو يهز سبابته في الهواء. وابتسم هشام، ونهض لإشعال سيجارة أخرى، فيما كان عارف يستند إلى الجدار وينظر إلى البعيد بعينه الوحيدة.

ـ ٦ ـ

وفي أحد الأيام، كان يحتسي الشاي مع عارف بعد الغداء، فيما كان علي وعبد الغني يلعبان الشطرنج، ويحيا مضطجعاً يتناوم بملل واضح.

كان حديث عارف قبل أيام لا يزال عالقاً في ذهن هشام، فقد فتح له أبواباً للإطلال على ما كان يجري في مدينة كان يعتقد أنه يعيش فيها، ويعلم كل خفاياها، ولكنه اكتشف أنه لم يكن يعرف عنها شيئاً. وها هو عارف يؤكد له جهله بحديثه عن تفصيلات أصابته بالذهول. نظر إليه، وقد فرغ من شايه، وأخذ يتثاءب بتلذذ، وقال بتردد:

لم تقل لي يا أبا وحيد... هل اعترفت على أحد هنا، واعتقلوه بسببك؟.. أرجو ألا تغضب من سؤالي.

وانتفض عارف بشدة، وقال بسرعة وتشنج واضح، وهو يعتدل في جلسته، والرذاذ يتناثر من فيه:

ـ الموت دون ذلك... إن شرف النضال لا يسمح بذلك.

ثم وهو يبلغ ريقه، ويستعيد بعض هدوئه:

ـ اعترف على نفسك، واعترف على من اعترف عليك، ولكن لا تأتي بآخرين تعرفهم لم ترد أسماؤهم... هذه هي الخيانة بعينها.

ـ لم أرد إغضابك يا صاحبي... ولكن ألا يمكن أن يكون التعذيب شديداً فينهار الإنسان؟

كان هشام يقول ذلك وقد بدأ الرعب، الذي خفت وطأته في الأيام السابقة، يتسرب إلى نفسه من جديد، فأدرك عارف ما يجول في خاطره، فقال مبتسماً:

ـ لذة الصمود تفوق ألم التعذيب... الألم مجرد سويعات أو أيام، أما لذة الصمود فتبقى معك طول العمر. إنها تمنحك إحساساً بالكرامة واحترام الذات لا يوصف. وما هو الإنسان إلا مجموعة من أحاسيس الكرامة والاحترام.

واستغرب هشام لوهلة أن يصدر مثل هذا التعليق من شيوعي يفترض ألا يعترف بالأحاسيس الفردية في التحليل واتخاذ المواقف، غير أنه عاد إلى السؤال من جديد:

ـ ولكن إذا كان شرف النضال لا يسمح بالاعتراف على أحد، فكيف جاء كل هؤلاء الذين يملأون البناية؟

وضحك عارف وهو يقول:

ـ الخيانة. الضعف. الجبن. البعض لا يتحمل بضع لسعات من الخيزرانة فينهار، ويطلع طيزه لو طُلب منه... لقد اعترف مسيدس على أكثر من ثلاثمائة اسم هنا، رغم أنه مثل الثور ضخامة...

عفواً يا أبو وحيد... ألم تقل سابقاً أنهم مائتان؟

ـ لا يهم... مية، ميتين، ثلثمية. المهم أنه انهار واعترف على أعداد كبـيرة، حتـى دون أن يطلب منه بعض الأحيان.

وبعد صمت قصير:

أما سليحف... هذا الخائن... فقد تبرع بكل شيء دون أن يطلب منه أحد ذلك. ثم وهو يضحك:

ـ وها هو ملقى كالكلب... مجرد صفيحة زبالة، يحتقره السجان والسجين، أضاع كل شيء، حتى احترامه لنفسه. أما شرف النضال فتجده عند أشخاص مثل سعيد القمار، الذي فضل الموت على البوح بأسماء رفاقه.

وضحك عارف باقتضاب وهو يقول:

ـ ولكنهم لا يستحقون التضحية.

ـ هل مات القمار فعلاً من التعذيب يا عارف؟

وانتفض عارف وهو يقول:

ـ طبعاً. طبعاً. ومما مات إذن إن لم يكن من التعذيب؟

ـ لقد سمعت أنه انتحر. ألقى بنفسه من نافذة السجن. ويقول آخرون إنها سـكتة قلبية هي التي أودت بحياته.

وضحك عارف وهو يقول:

ـ وهل ذلك معقول يا صديقي... نوافذ السجن ليست مفتوحة حتى يلقي بنفسه منها.

ـ قد يختلف المكان في الدمام عنه في جدة.

ونخر عارف وهو يقول:

ـ المكان مكان في أي مكان... ثم ليكن أنه انتحر كما تقول.

ـ أنا لم أقل... قلت إنه يقال.

ـ سيان... السؤال هو لماذا انتحر؟

ونظر إلى هشام نظرة أحس أنها اخترقته من الداخل، ثم قال دون أن ينتظر جواباً:

ـ أنا أجيبك... لقد انتحر، إذا كان قد انتحر، لأنه أحس أنه يكاد ينهار ويعترف على رفاقه. وهذه قمة البطولة والتضحية... وليس كصاحبنا مسيدس.

وصمت عارف، وصدره يعلو ويهبط، فيما نهض هشام للمرة الألف ربما لإشعال سيجارة، عاد إلى مكانه بعدها وأخذ يدخن ويراقب عارف الصامت بمشاعر متضاربة ومتداخلة من الإعجاب والشك والشفقة، ثم

قال باسماً، وهو يحاول تغيير الموضوع:

ـ على فكرة يا أبو وحيد... هل هناك صلة قربى بينك وبين سعيد القمار؟

وابتسم عارف باعتزاز وهو يقول:

ـ إنه ابن عمي مباشرة... سعيد مؤمن القمار... أبو سكينة. فأبي مطلق أخـو أبـيه مؤمن... ولكنه بعثي للأسف. هذا هو عيبه الوحيد، وهو كاف بحد ذاته. رحمه الله. أقصد... له الخلود في أفئدة شعبنا.

ثم وهو يضحك، ويسرح بنظره بعيداً:

ـ لقد حاولت أن أخرجه من وهمه. ولكنه كان عنيداً في حياته وفي مماته.

ـ رحمه الله...

قال هشام بتأثر، فيما اعتدل عارف في جلسته وهو يقول:

ـ دع الله وشأنه. وقل لك المجد والخلود يا سعيد... إن التـاريخ يصنعـه أشـخاص مثل سعيد.

وابتسم هشام وهو ينظر إلى عارف، ويقول مازحاً:

ـ عجيب أمرك يا أبا وحيد... ظننتكم معشر الشيوعيين لا تؤمنون بالأفراد ودورهم في التاريخ! كل شيء في أسلوب الإنتاج وصراع الطبقات والحتمية التاريخية... أليس كذلك؟

ـ هو كذلك.

قال عارف بعجلة دون اكتراث أو تفكير:

ـ إذن كيف توفق بين ذلك وبين قولك إن التاريخ يصنعه أشخاص مثل سعيد القمار؟

وبدا وكأن عارف قد انتبه من غفوة سريعة، فقال:

ـ ها... ماذا قلت؟

ثم ضحك وهو يهز سبابته في الهواء ويقول:

ـ يا لك من فتى خبيث... يا لك من فتى خبيث. لا تعارض يا صاحبي.

ـ كيف؟

ـ الحتمية هي الإطار الذي تعمل فيه قوانين الوجود، والحرية هي في معرفة القوانين الحتمية.

ـ أعرف ذلك... ولكن كيف يمكن أن يفسر ذلك ما فعله سعيد؟

ـ بسيطة... ما فعله سعيد يسير في توافق مع النتيجة الحتمية التي يسير إليها مجتمعنا، ولذلك هو صانع للتاريخ. وقد اختار مصيره بإرادته، ولذلك فهو حر. أرأيت؟.. لا تناقض هنا.

ـ بل كل التناقض.

ـ ربما...

قال عارف وهو يضحك:

ـ ولكنه تناقض ديالكتيكي بناء.

ـ دعك من دعاباتك وقل لي... أليس من الممكن أن تكون ظروفه هي التي دفعته إلى اختيار مصير ما، ولم يكن حراً فعلاً.

ـ ربما... وحتى ذلك إنما يؤكد الحتمية.

ـ ولكنه ينفي الحرية.

ـ ليس بالضبط... إنها الإرادة في إطار الحتم. هذه هي ميزة المادية الديالكتيكية يا صاحبي... إنها قادرة على إعطاء جواب لكل سؤال.

ـ إذن هو الحتم في النهاية.

ـ ربما... إلى حد ما... نعم.

ـ إذن فسعيد لم يحقق شيئاً بتضحيته، لأن الأمور كفيلة بتحقيق نفسها، طالما أن هناك طريقاً واحداً يسير عليه المجتمع في النهاية... لقد كانت تضحيته عبثاً في النهاية. أليس كذلك؟

ـ أنت تخلط الأمور يا صاحبي... هناك حرية، وهناك حتمية. والحرية هي معرفة الضرورة. فالتحرر من جاذبية الأرض لا يكون إلا بمعرفة قوانين الجاذبية، ومن ثم السيطرة عليها. لا أظن أنك تستطيع إنكار ذلك؟

ـ أنا لا أتحدث عن هذا النوع من الحرية، ولكني أتحدث عن الحرية بصفتها إرادة ذاتية... إرادة فردية.

ـ وما الفرق؟

ـ فرق شاسع. إنه يكمن في إدراك الط...

وقبل أن يكمل هشام، قاطعه عارف قائلاً:

ـ دعنا من ذلك الآن، وقل لي. لماذا أنت هنا؟ ما هي تهمتك، أم أنك لا تزال تشك بي...

وارتبك هشام قليلاً ولاحظ عارف ارتباكه فقال:

ـ لا أدري ما الذي دفعني إلى البوح لك بكل شيء عني، ولكني

ارتحت لك منذ أول يوم رأيتك فيه... وأرجو أن تثق بي. اعتبرني أخاك الكبير، أو حتى أباك، رغم أني ما زلت شاباً يخطط لما بعد السجن...

وضحك عارف بحبور وهو يقول ذلك، فيما كان هشام لا يزال متردداً. فهذا الرجل قد انتهى من التحقيق، وهم يعرفون عنه كل شيء، وليس من الخطر أن يبوح بكل شيء، أما هو. أما هو فلا يزال في البرزخ.

ـ الحقيقة... الحقيقة... الحقيقة أني متهم بالانتماء إلى حزب البعث.

وابتسم عارف وهو يقول:

ـ لقد كان ظني في محله.. فأنت بعثي رغم وجهك الذي يبعث على الارتياح.

وضحك عارف من جديد وهو يقول ذلك، فيما كان هشام سارحاً وهو يقول بصوت هامس كأنه قادم من بعيد:

ـ قلت إني كنت منتمياً إلى حزب البعث... ولم أقل أني بعثي. بل لم أكن بعثياً في يوم من الأيام.

ـ عجيب!.. وما الفرق؟ أهذا لغز؟

وسرح هشام بعيداً وهو يقول لنفسه هامساً: «مثل لغز الحتم والإرادة، والجبر والاختيار...»، ثم يلتفت إلى عارف وهو يقول سارحاً:

ـ الحقيقة هي ما أقول... لم أكن بعثياً في يوم من الأيام، ولكني كنت عضواً في حزب البعث.

وكانت الحيرة لا تزال تحتل وجه عارف، الذي كان ينظر إلى هشام وقد فغر فاه قليلاً ببلاهة وعدم قدرة على ربط أطراف الحديث، فيما واصل هشام قائلاً:

ـ المسألة بسيطة يا صاحبي. إنها مثل أن تكون مسلماً ولا تكون في الوقت ذاته.

ولكن الحيرة بقيت مرتسمة على وجه عارف الذي بقي صامتاً، فيما هشام يقول:

ـ لو سألتك ما دينك؟.. فما هو جوابك؟

ـ...

ـ قطعاً سوف تقول مسلم... ولكنك شيوعي في الحقيقة، أليس كذلك؟

ـ...

ـ والشيوعية تعني عدم الإيمان بما وراء المادة، أي أنها متناقضة مع الدين، وبالتالي فأنت غير مسلم، لأن الإسلام دين... أليس كذلك؟

وأغلق عارف فاه، وبدا كأنه قد أخذ يلملم أطراف الحديث وهو يقول:

ـ ولكن هناك فرق... أنت ترث الدين عن أهلك ومجتمعك، أما العقيدة السياسية فأنت من يختارها. لذلك من الممكن أن تكون شيوعياً ومسلماً في الوقت ذاته. الدين حتم اجتماعي لا محيص عنه، والعقيدة السياسية خيار حر.. أليس كذلك؟

قال عارف جملته الأخيرة، واقترب بوجهه كثيراً من وجه هشام،

الذي أخذ يتنفس من فمه، فقد كانت رائحة فم عارف لا تطاق، ولم يكن يريد الإشاحة عنه خشية جرح مشاعره، فقال وهو يحاول الكلام والتنفس في آن معاً:

ـ ليس تماماً... أحياناً كثيرة تجد نفسك معتنقاً لأفكار لا تؤمن بها في داخل نفسك. وأحياناً تعتقد أنك تؤمن بأفكار أنت لا تؤمن بها فعلاً لو بحثت في داخل نفسك. وأحياناً أخرى تؤمن بأفكار لا تدري أنك لا تؤمن بها حتى تموت. هل فهمت شيئاً يا صاحبي؟

ـ الحقيقة لا.

ـ ولا أنا.

وضحك الإثنان بغبطة، ووجدها هشام فرصة للابتعاد قليلاً عن عارف، حيث أسند ظهره للجدار وهو يشبك كفيه حول ركبتيه. ولكن عارف لا يريد أن يرحمه، فقد اقترب منه، بعد أن هدأت عاصفة الضحك، وهو يقول:

ـ لا... حقيقي... دعك من الفذلكات والمماحكات. لقد كان هناك العديد من التنظيمات والأحزاب التي من الممكن أن توفر الخيار المناسب، فلماذا اخترت الانضمام إلى حزب البعث دون غيره.

ثم وهو يضحك:

ـ كان الأجدر بشاب ذكي ومثقف مثلك أن ينضم للشيوعيين. فالمستقبل للاشتراكية العلمية، ومجتمع الوفرة والعدل. هذا حتم لا مفر منه...

وابتسم هشام بسخرية وهو ينظر بعيداً ويفكر. لو كان منصور شيوعياً لربما كان اليوم هنا بتهمة الشيوعية. ولو كان راشد من الجبهة

الديموقراطية، لربما كان هنا اليوم بتهمة الانخراط في الجبهة. ولكنه في الحقيقة لا يجد نفسه في أي تنظيم أو حزب. لقد أصبح بالكاد يعرف نفسه ومن هو، فكيف يمكن أن يصبح عضواً في جماعة؟.. إنه يحس بعض الأحيان بعدم الإنتماء لكل الناس، بل بعدم الإنتماء لهذا العالم كله، بأنه لا شيء. فكيف يمكن أن يكون جزءاً من شيء وهو لا شيء؟

ـ هذا صحيح...

قال هشام وهو يعود من سرحانه:

ـ ولكن في أحيان كثيرة لا تكون الخيارات والبدائل واضحة تماماً، فتضطر إلى اختيار أول بديل يصادفك، معتقداً أنك قد كنت حراً في الاختيار، ولكن القضية خلال ذلك... لا أدري... هل استطعت أن أعبر عن المسألة كما يجب؟

لم يكن يريد أن يعترف لعارف بطغيان شخصية منصور عليه، ودوره في ضمه إلى التنظيم. ولكن عارف لا يريد أن ينهي الحديث، إذ فتح فاه يريد التعليق، ولكن هشام لم يمنحه الفرصة، فقال محاولاً إنهاء حديث أخذ يهز أعصابه المتوترة فعلاً، وهو يزفر بقوة:

ـ وكما ترى يا أبا وحيد، فنحن لسنا أحراراً تماماً في اختيار مصائرنا... أليس هذا هو جوهر المادية التاريخية؟

وضحك عارف في وجه هشام بشدة جعلته يشيح بوجهه قليلاً بعفوية ودون إرادة، ثم قال وهو يهز سبابته في الهواء:

ـ ليس تماماً يا صاحبي. ليس تماماً. المادية التاريخية والجدلية تتحدث عن مصير الشعوب والمجتمعات والأفكار... إنها تتحدث عن الحتمية. أما ما تقوله، فهو جوهر الفكر الديني. أنت تتحدث عن

القضاء والقدر ربما، لا عن المادية التاريخية قطعاً.

ـ وما الفرق؟.. أليس كله حتم في حتم؟

قال هشام ذلك دون تفكير، وبعفوية استغربها هو نفسه، فهو لم يفكر في المسألة بهذا الشكل من قبل. ووجم عارف قليلاً وابتعد برأسه عن هشام، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة لفتت انتباه النزلاء الآخرين، وهو يقول:

ـ كان يجب أن أعرف أنك خبيث... كل البعثيين كذلك. سوف ألعب الشطرنج مع علي، أفضل من هذه السفسطة.

ونهض، وجلس مقابل علي أمام رقعة الشطرنج، وهو لا يزال يضحك ويردد: «المادية التاريخية والقضاء والقدر سيان... يا له من جهل فاضح»، فيما أشعل هشام سيجارة، عاد ليمتصها بهدوء وهو يتابع القتال بين عارف وعلي، ويفكر فيما قاله قبل قليل.

ـ ٧ ـ

واستمر توالي الأيام، واحتراق الليالي... شمس تشرق، وشمس تغرب، وقمر يظهر، وقمر يغيب... حارس يذهب وحارس يجيء... ولأول مرة في حياته يدرك كم هو ثقيل هذا الزمن. لأول مرة يدرك أنه أبدي سرمدي، لا أول له ولا آخر، ولكننا لا ندرك هذه الحقيقة ونحن لاهون وسادرون في هذه الدوامة التي اسمها حياة. لا ندرك هذه الحقيقة الواضحة إلا عندما نضطر إلى العزلة والخلوة بذواتنا والابتعاد عن أطراف الدوامة الثملة. كم هو رهيب هذا الزمن!.. كم هو مطبق ومهيمن ومخيف، وكأن لا هم له إلا أن يجعلنا تحت سيطرته، في سكناته

وتقلباته، وكأننا ما خلقنا إلا له، ولعلنا كذلك. كم هو خبيث هذا الزمن... إنه يمارس علينا لعبة غريبة، فيها اللذة وفيها الألم، وهو من يختار في كل الأحوال. كان لا يريده أن ينتهي عندما كان في الخارج، ولكنه كان ينتهي في ألذ اللحظات. إنه يذكر كيف كانت الساعات تمر سريعاً عندما يجتمع بنورة أو الأصدقاء، ولكنه هنا يمر ببطء ورتابة، بل إنه لا يتحرك رغم حركة كل شيء. مخطىء من ربط الزمن بحركة الأشياء، إنه كائن حي خالد يمارس علينا لعبة سادية رهيبة، يتلذذ بدموعنا بقدر ما تقتله ضحكاتنا... هذا الزمن. إنه يعبث بنا في كل حين، ونحن من يتصور أننا نعبث به في كل حين. ونتصور أننا نقتله بعض الأحيان.

ذات صباح كان واقفاً في الصالة، بانتظار أن يأتي دوره للذهاب إلى الحمام. كانت الصالة مكتظة بالواقفين في انتظار دورهم، وقد أخذ البعض في التحدث إلى البعض الآخر، فقد كان حارس الفترة هو مرعي الزهار، ألطف الحراس على الإطلاق. كان مرعي يراقب الباب الخارجي، فيما يقوم السجناء بزيارة بعضهم بعضاً في الغرف، أو الحديث والتدخين في الصالة، حتى إذا ما أحس مرعي بأي حركة مريبة، كان يشير بيده خفية، فيعلم الجميع أن هناك قادماً ثقيل الظل. ولم تكن خدمات مرعي تقف عند ذاك الحد، بل كانت تتجاوز ذلك لتصل إلى بقية أدوار المبنى. فقد كان ينقل الرسائل والتحيات والهدايا بين المساجين في أدوار المبنى الثلاثة. كان مرعي من أحب الحراس إلى السجناء، رغم أنه كان الأقسى قلباً عندما جاء إلى المبنى لأول مرة، كما أخبره عارف. كان يعتقد أن كل المعتقلين هم من الكفرة والملحدين وأعداء الدين، فكان قاسياً كل القسوة، مجتهداً فيها. إلا أنه لاحظ أنهم

يصلون ويصومون. ولكن ذلك لم يكن ليوقفه عند حده، فقد كانت الصلاة والصيام مفروضة على كل معتقل، وكان يحيا إمام غرفتهم. ولكن مرعي أخذ في التخلي عن قسوته شيئاً فشيئاً عندما أخذ بعض المعتقلين يساعدونه في دروسه التي كان يستذكرها في أوقات حراسته. كان يدرس في أحد مدارس جدة الليلية لمحو الأمية. أدرك مرعي مع الوقت ثقافة هؤلاء الذين يقف حارساً عليهم، فابتدأ يجلهم، ويدخل معهم في أحاديث خاصة جعلت من علاقته مع الجميع أكثر حميمية وألفة. لم يعد يهمه أن يكونوا كفرة أو ملحدين أو أي شيء آخر، بقدر ما اكتشف أنهم أناس مثله. وغلبت علاقات الإنسان علاقات السجن والسجان، فأصبح مرعي صديقاً للجميع. وقد كان هناك بعض الحراس الآخرين مثل مرعي تقريباً، ولكن كانت الأكثرية ممن طغت عليهم عقلية السجان على فطرة الإنسان.

وبينما كان هشام ينتظر دوره بملل، إذ أقبل شخص من غرفة داخلية عرفه تماماً... حسين مسيدس، بقامته الطويلة، وخطواته الثابتة، وبنيته القوية، ورأسه الكبيرة. كان منذ زمن يبحث عن فرصة للحديث مع «الرفيق» حسين، ولكن ظروفه النفسية وهو المعتقل الجديد لم تكن تسمح بذلك. وها هي الفرصة قد أتت على طبق من ذهب. لم يستطع منع نفسه من انتهازها، فاقترب من حسين وهو يحاول الابتسام، ووقف بجانبه ثم قال هامساً:

ـ صباح الخير يا رفيق. أكيد أنت لا تعرفني بوجهي، ولكنك تعرف إسمي. أنا الرفيق أبو هريرة... هشام العابر.

ولم يلتفت إليه حسين أو يعيره أي انتباه، بل بقي متجهم الوجه، واقفاً بثبات وصلابة، ثم قال هامساً بعجلة:

- بالطبع أنا أعرفك، لقد كنت مثار الإعجاب أيام التنظ...

ولم يكمل حسين جملته، وعاد إلى صمته وتجهمه، بعد أن ألقى نظرة سريعة على هشام، الذي كان في غاية التوتر لثقته أن الواقف إلى جانبه هذا هو من ذكر إسمه في التحقيق، وأتى به إلى بيت الموتى هذا. وبكل قدرة على الصبر والتحمل استطاعها، نظر هشام إلى حسين وقال:

- يا رفيق...

وابتلع ريقه وهو يواصل:

- أريد أن أعرف شيئاً واحداً. لماذا ذكرت إسمي في التحقيق؟..

وبحدة وسرعة قال حسين:

- كلا. كلا. لم يحدث... إنهم يحملونني كل شيء. هذا ليس عدلاً... هذا ليس عدلاً.

- حسناً... سوف نرى. الأيام كفيلة بفضح الحقيقة.

واضطرب حسين قليلاً، وبقي صامتاً لفترة طويلة قبل أن يقول، وقد لاح بعض الماء في عينيه:

- إنه التعذيب يا رفيق... لقد عانيت ما لا طاقة لبشر باحتماله. الضرب بالخيزران، والقراصة، وعصابة الرأس، والكهرباء... بل إنهم هددوني بالموت.

ثم وهو ينظر بحدة وانكسار في الوقت ذاته إلى هشام:

- لم يكن أمامي إلا أن أعترف... ألا تعلم أن البعض قد مات فعلاً هنا.

وأشفق هشام عليه فعلاً، ولكنه تمالك عواطفه وهو ينظر إلى حسين من جديد ويسأل:

- أفهم ما تعني يا أخ حسين... ولكن هل يدفعك ذلك إلى ذكر مئات الأسماء... أما كانت بعض الأسماء تكفي! لقد تعذّب غيرك، ولكنك الوحيدالذي سرد معظم أسماء الموجودين هنا. حتى من غير البعثيين.

واحتدّ حسين وهو ينظر إلى هشام قائلاً:

- من قال لك ذلك؟.. هذه مجرد إشاعات لا أساس لها من الصحة. لقد واجهت الموت، ولم يكن أمامي إلا أن أذكر بعض الأسماء.

ثم وهو ينظر إلى الأمام:

- وسوف يحققون معك وسوف ترى ما أعنيه.

وشعر هشام برعشة شديدة تعتريه، والرعب ينغرس في أحشائه من الداخل، ولكنه تمالك نفسه وهو يقول:

- وهل كنت أنا من الأهمية بحيث ذكرت إسمي، أم أنك ذكرت كل الأسماء وليس بعضها، فكان إسمي من ضمن ما ذكرت؟

وارتبك حسين قليلاً، ثم قال بانكسار واضح:

- لقد ذكرت بعض الأسماء التي خطرت على ذهني ساعتها، وكان اسمك من ضمنها.

ثم وهو ينظر إلى هشام، ويقول بلهجة أقرب إلى الاعتذار والاستعطاف:

- صدقني يا رفيق... أنت لا تعرف الظروف، ولا المعاناة التي واجهت... كل ما يقال عني مجرد إشاعات.

وابتسم هشام ساخراً وهو يقول:

ـ إشاعات؟!.. ولماذا يشيعون عنك أنت بالذات؟ أم أنها مؤامرة كالمعتاد؟!!!

ـ الله أعلم... الله أعلم.

وابتسم هشام بمرارة وهو يقول:

ـ الله أعلم! مسكين أنت يا الله... دائماً نحملك ما نقوم به من أخطاء.

وساد صمت قصير، لم يلبث هشام أن قطعه متسائلاً:

ـ على أية حال حدث ما حدث، وانتهى الأمر. كنت أريد أن أعرف، هل ذكرت إسم عد...

ولم يكمل جملته، فقد خشي في آخر لحظة أن لا يكون حسين قد ذكر إسم عدنان، فيذكره به، فعدل عن السؤال.

ـ ماذا؟.. إسم من؟

لا... أبداً، ولا حاجة. كنت أريد أن أسألك عن إسم رفيق، ولكني تذكرت أني رأيته هنا.

ثم وهو ينظر إلى حسين شزراً:

ـ والبركة غالباً فيك...

وبان الضيق على وجه حسين، الذي نكس رأسه، وأخذ ينظر إلى الأرض بصمت، فيما كان هشام يحاول ضبط انفعالات متضاربة في صدره... مزيج من القرف والضيق والخوف والشفقة والغثيان والدوار. وعندما وصله الدور، كان يحس فعلاً أنه بحاجة إلى إخراج شيء من

جوفه، وإلا أغمي عليه. فاندفع إلى الحمام، وأخذ يستفرغ بكل ما أوتي من قوة، ثم أخذ يعب الماء، فأحس براحة شديدة، وعاد إلى الغرفة وهو يحس أن القرف قد خفت حدته قليلاً، وصوت رفيع يطن في أذنيه:

«يا جبر أشكي الملح وأشكي الرفاقه
ظني عدمها خير لي من وجودها»...

ـ ٨ ـ

عندما عاد إلى الغرفة، كان عارف وعلي يستعدان لاستلام طعام الإفطار، بعد أن فرشا جريدة محلية قديمة على الأرض، تمزقت وبهت لونها من كثرة الأيدي التي تداولتها، بعد قرار منع دخول الصحف والمجلات إلى المساجين قبل شهر من مجيئه، كما أخبره عارف بذلك. انزوى في فراشه وهو يشعر بالقرف من كل شيء، فيما كانت ضجة المساجين، وصوت عم عبده يصلان إليه دون أن يسمع شيئاً، فقد كان خارج الزمان والمكان في تلك اللحظة. وعاد عارف وعلي وهما يحملان أطباق الزيتون الأسود والبيض المسلوق وأرغفة الخبز الساخنة، وتحلق رفاق الغرفة حول الجريدة، فيما بقي هشام منزوياً في ركنه.

ـ الإفطار... الفطور يا عم هشام.

كان ذلك صوت عارف مخترقاً خواء نفسه، وهو يقشر بيضة ويلوك بعض حبات الزيتون:

ـ بالعافية عليكم... لا رغبة لي في الطعام، سوف أنتظر الشاي.

ـ أراك قد عدت إلى سيرتك الأولى، بعد أن قلنا هداه الله...

قال عارف وهو يضحك، وقد حشا فمه بنصف بيضة وقطعة كبيرة من الخبز، فيما كان صفار البيض يتناثر على جنبات فمه.

ـ أرجوك يا عارف... لست في حالة أستطيع فيها تقبل دعاباتك. دعني وشأني إذا سمحت.

ـ كما تشاء... حسناً، حسناً. اللي يريحك... آسفين يا عم.

قال عارف وهو يحشو فمه بما تبقى من البيضة، ويمزق ما تبقى من الرغيف، ويطارد آخر حبات الزيتون في الصحن. وأحس برغبة محرقة في سيجارة، فنهض يجر قيوده، وعاد بسيجارة مشتعلة أخذ يمتصها بعنف، ويملأ صدره بالدخان بالكامل. عندما انتهى من سيجارته، كان الرفاق قد التهموا كل ما حوته المائدة، وأخذوا يجمعون نوى الزيتون ولب الخبز لأغراض صناعية. وبعد قليل ظهر عم عبده بوجهه الباسم، وهو يحمل إبريق الشاي النحاسي الضخم، ويدور على الغرف ويوزع شايه اللذيذ. كان عارف يراقب هشام طوال الوقت بعينه الوحيدة، حتى إذا ما انتهوا من شرب الشاي، أخذ عارف يجمع الصحون استعداداً لغسلها، وهو يقول باسماً: «أعتقد أن هشام لم يعد ضيفاً بعد... إكرام الضيف ثلاثة أيام، وقد أكرمناه لحد الآن أكثر من شهر. يجب أن نحدد له يوماً لغسل الصحون. أليس كذلك يا شباب؟»، ونظر إلى علي، ثم إلى هشام الذي حاول اغتصاب ابتسامة يرسمها على فمه الصغير. وبعد أن انتهى عارف من غسل الصحون، جلس بجانب هشام، الذي كان يشعل السيجارة من السيجارة، وهو يقول بقلق واضح:

ـ ما بك يا هشام؟ لقد كنت في حالة طيبة قبل أن تذهب إلى الحمام... ما الخطب؟

ونخر هشام بقرف وهو يقول:

ـ أبداً... لا شيء. لقد قابلت شخصاً أثار غثياني.

ـ حسين مسيدس... أليس كذلك؟

قال عارف وهو يبتسم ويتجشأ بصوت مسموع أثار امتعاض هشام، ولكنه كان مندهشاً لمعرفته بالشخص دون أن يذكر إسمه، فقال:

ـ فعلاً... وكيف عرفت؟

وضحك عارف وهو يقول بخيلاء:

ـ وهل هناك من يثير الغثيان غير مسيدس وسليحف؟! وسليحف ليس موجوداً في هذه الشقة، إذن لا بد أن يكون المقصود مسيدس. هل فهمت يا عزيزي؟ العقل راحة بعض الأحيان.

قال ذلك وهو يتجشأ مرة أخرى، ثم يقول:

ـ إنه هو من أتى بي هنا و...

وقاطعه هشام قائلاً:

ـ لقد ذكرت لي ذلك سابقاً. ولكني لم أفهم لماذا، رغم ما قلت.

ـ لأنه حقير... جبان.

قال عارف وهو يكور قبضته، وقد أصبح وجهه مثل وجه شخص شرب كوباً من عصير الليمون الصرف دفعة واحدة.

ـ ولكن ما الداعي إلى هذه الحقارة؟.. أنا أفهم لماذا اعترف علي. لقد كنا في تنظيم واحد. بل كان هو من قيادة ذلك التنظيم، ولكنه لم يتحمل وطأة التعذيب، فأقر بكل شيء. أما أنت... أما أنت... ما الداعي لأن يذكر اسمك؟

وهنا قهقه عارف بعنف، وأخذ الرذاذ يتطاير من فيه وهو يقول:

ـ تحت وطأة التعذيب! أي تعذيب هذا الذي تتحدث عنه؟ لقد أضحكتني يا شيخ.

وواصل ضحكه، وهو يفرك عينيه، وينظر إلى هشام ثم يضحك من جديد.

ـ نعم التعذيب.

قال هشام بحزم وجد:

ـ لقد قال لي ذلك بنفسه... أنا أعلم أنك لا تصدق ذلك، ولكن من المستحيل أن يعترف إنسان بما اعترف به مسيدس من أسماء دون أن يكون ذلك تحت وطأة ظرف قاهر. لا بد أنه عذب بقسوة فعلاً. لقد كاد أن يموت. قال لي ذلك بنفسه، ويا روح ما بعدك روح، كما يقولون...

وأخذ عارف يمسح دموعه بطرف الإزار، ثم قال بقرف وامتعاض واضحين:

ـ مسيدس لم يعذب يا سيدي الفاضل. كلها كم صفعة وكم بصقة وتفلة، وكم خيزرانة، وخر كالثور... لقد أخبرنا مرعي بكل ذلك، والجميع يعلمون، واسأل شيخون إن لم تصدقني. هذا هو التعذيب الذي يتحدث عنه الرفيق سلمان... صاحبك حسين مسيدس. لقد وصل البعض إلى حد الموت وكانت نجاتهم في ذكر بعض الأسماء، أما زقان هذا...

ولم يكمل عارف جملته، إذ جحظت عيناه، وكور قبضته، وأخذت شفتاه الضخمتان ترتجفان بشدة وعنف، وبدا كأنه يتذكر أشياءَ وأشياء، ثم قال:

ـ إن مسيدس ليس حقيراً فقط، إنه الحقارة ذاتها.

وساد الصمت بين الإثنين، فيما كان رفاق الغرفة يراقبونهما بطرف الأعين، وهم يتصنعون لعب الشطرنج. كان واضحاً أن عارف يجتر ذكريات أليمة، وكان هشام قد أرعبه ذكر الموت والتعذيب. إنه لا يريد أن يموت، ولا يحتمل التعذيب، ولكنه لا يريد الإضرار بأحد... يا لها من كارثة لو استدعوه للتحقيق الليلة. وحاول الفرار من نفسه، فقال وهو يحاول الابتسام، موجهاً الحديث إلى عارف:

ـ على فكرة يا أبو وحيد... ماذا كان اسمك الحركي أيام الجبهة. أم أنكم لا تستخدمون الأسماء الحركية؟

وابتسم عارف بسخرية وهو يقول:

ـ لا نستخدم الأسماء الحركية! نحن من علم الجميع أصول العمل السري والنضال. أم تظن أن أصحابك من البعثيين والشوفينيين هم أصحاب النضال!

وصمت لحظة غاب فيها في أيام خلت، وهو يبتسم وقد ضاقت عيناه، وتراخت قسماته، ثم قال:

ـ قاتلك الله يا صاحبي. لقد أعدتني إلى تلك الأيام... آه. لقد كنت ادعى الرفيق فرج الله الحلو. هل تعلم من هو فرج الله الحلو؟

وكان هشام يعلم من هو فرج الله الحلو، الشيوعي اللبناني الذي قتل وأذيب بالأسيد في سوريا أيام عبد الحميد السراج، ولكنه أنكر معرفته له، كي يمنح عارف فرصة الحديث عنه، والتلذذ بمعرفة شيء لا يعرفه هشام، والخروج من حديث الموت والتعذيب في الكراديب.

ـ ٩ ـ

بدأت الضجة تعلو من جديد في الصالة، فقد جاء عم عبده بطعام الغداء، ومعه قدوره الكبيرة الممتلئة بالأرز الأبيض، ومرقة الفاصولياء باللحم والطماطم، وأرغفة الخبز. نهض الجميع وقد حملوا أطباقهم، للحصول على نصيبهم من الطعام، وافترشوا صحيفة الصباح ذاتها. تحلق الجميع حول الطعام، وأخذوا يسكبون المرق على الأرز، ويجبلون اللقم ويلقونها في الأفواه، فيما كانت الجريدة تحمل عنواناً كبيراً يقول: «السادات يعلن أن هذا هو عام الحسم...»، وفي مكان آخر: «الفيصل يتمنى الصلاة في القدس قبل أن يموت»، وعناوين فرعية: «الأسد... الثورة التصحيحية في كل مجال»، «عرفات... نسعى لقيام دولة ديموقراطية علمانية في كل فلسطين»، «القذافي: الوحدة العربية ضرورة حتمية»، «أمريكا تعلن: لا يمكن أن يستمر الفراغ في منطقة الشرق الأوسط»، «بريجينيف يبدي ارتياباً من التقارب الأمريكي الصيني»، «ماوتسي تونغ يعوم في النهر الأصفر...».

ـ ألن يتعلموا كيف يطبخ الأرز؟

قال عارف متبرماً:

ـ هذه عجينة أرز وليست أرزاً. والمرقة... من الواجب أن يسموها ماءً أحمر... ما هكذا تعد المرقة.

ثم وهو يضحك:

ـ نعم أنا أحب الحمر والأحمر... ولكن ما كل أحمر مرقة.

كان يقول ذلك ويده لا تتوقف عن جبل الأرز والمرقة، وإلقاء اللقم

في فمه الواسع، الذي بدا كفرامة تتلقى اللقم دون كلل أو ملل.

ـ كل وأنت ساكت...

قال علي معلقاً، وهو يكتم ضحكة خافتة، ويتصنع الجد:

ـ هل تظن نفسك في أحضان الوالدة، أو أم وحيد التي الله أعلم أين تكون...

ثم وهو ينظر نظرة ذات معنى إلى عارف:

ـ احمد الله على أنك قادر على تناول الطعام حتى هذه الساعة. لو كان ماركس في مكانك هذا، لحمد الله على نعمائه.

ونخر عارف وهو يلوك لقمة، فيما قال يحيا:

ـ أهو كله أكل... المهم أن نعيش.

وأدرك الجميع ما يجول في خاطر يحيا، فصمتوا لبرهة، ثم قال هشام، في محاولة لقطع الصمت وتغيير مجرى ما يفكر فيه الجميع:

ـ لقد سمعت في الخبر أنهم يخصصون عشرة ريالات لكل سجين يومياً... لماذا لا يعطوننا هذه الريالات العشرة، ونحن كفيلون بإحضار أطعمة أفضل من هذه بكثير؟

وابتسم عارف، وأخذ يلعق يده وقد انساب الدهن على جوانبها، وهو يقول:

ـ يعطونك الريالات العشرة!.. وكيف يستفيد بعض الناس؟ الدنيا أرزاق يا صاحبي... إن ما ينفق على كل منا لا يتجاوز الريالات الخمس، وربما أقل. أما الباقي...

ولم يكمل عارف جملته، بل نظر إلى الجميع، وأشار إلى فمه إشارة

فهمها الجميع، إذ أخذوا يضحكون ويصبون آخر قطرة مرق، على آخر حبات أرز، فيما واصل عارف الحديث قائلاً وهو يضحك:

ـ أم هل تظنون أننا معتقلون حباً بالنظام؟

ثم وهو ينظر إلى هشام:

ـ المسألة أرزاق يا مولانا... نحن كنز لا يفنى يا صاحبي.

ثم وهو يوجه الحديث للجميع:

ـ لقد كانوا يعطوننا خمسة ريالات كاملة في السجن العمومي في الدمام، وكنا نحضر ونطبخ أفخر الأطعمة، ونوفر، ونرشو الجنود كي نخرج من السجن بعض الأحيان... لمَ لا يعطوننا خمسة ريالات هنا، ويبلعون الباقي، ويتركوننا ندبر أمر أنفسنا؟

قال عارف ذلك، وهو يمسح الصحن بآخر قطعة خبز باقية، فيما أخذ عبد الغني يضحك وهو يقول:

ـ لعلهم لا يريدون خدش نعومة يديك الطاهرتين. أو لعلهم يوفرون هـذه النعومـة لما هو أهم!.. هناك في مكتب العقيد.

قال عبد الغني ذلك، وهو يهز يده في الهواء، في إشارة أدركها عارف، الذي كان يتجشأ، ويضحك ساخراً وهو يقول:

ـ لا... خفيف الدم فعلاً. جعلك الله من نصيب العقيد.

ثم وهو يضحك:

ـ ولكن ما دخل الله بالأمر. لا بد أنه الشيطان... بل ربما كان الشيطان هو ذات العقيد. ويا عيني عليك يا أبو الجلاجل. عز الله ما قصرت.

وضج الجميع بالضحك، فيما كان يحيا يجمع الصحون بهدوء وهو يقول:

ـ لقد صدق الأخ أبو وحيد... الأخ هشام لم يعد ضيفاً. يجب أن يخصص لـه وقـت ما لغسل الصحون. أليس كذلك يا أخ هشام؟

قال يحيا ذلك وهو ينظر إلى هشام بود صاف، أفصحت عنه النظرات رغم تجهم الوجه. هب هشام، وتناول الأطباق من يحيا، ونظر إليه مبتسماً بصفاء وهو يقول:

ـ عليكم الأمر، وعلي الطاعة... لقد أطعنا الجميع بغير إرادة منا، فلمَ لا نطيع بعضنا بإرادة منا؟

وضج الجالسون بالضحك من جديد، فيما سحب يحيا الأطباق من يد هشام، وانطلق إلى الحمام قبل أن يتكاثر الغاسلون.

ـ ١٠ ـ

وعاد الجميع إلى فرشهم، بعد أن ملأوا الأكواب بالشاي الساخن، وأخذوا يحتسونه بلذة وصمت، وقد تلاعبت سيجارة ما بعد الغداء برأس هشام، وعاودته ذكرى رقية، مع بعض الألم في المعدة، وذكرى سارة ونورة، مع بعض الألم في الحنجرة، وخيال أمه يطوف بأرجاء المكان. لم يكن هناك من المدخنين غير هشام ويحيا، أما عارف وعبد الغني فقد دخنا لفترة طويلة ولكنهما أقلعا عنه في النهاية. أما علي، فلم يدخن على الإطلاق، وإن كان يحن إلى التخزين ويتوق إليه، ولكنهم لا يزودونهم بالقات في السجن، كما علق علي ذات مرة مازحاً.

ـ عارف. . .

كان ذلك هشام هامساً، ودخان السيجارة يتخلل أسنانه الدقيقة.

ـ نعم. . . خير إن شاء الله.

أجاب عارف باسترخاء ودون حماس:

ـ لقد لاحظت أن كل شيء هنا مصنـوع مـن البلاسـتيك. الصحون والأكـواب، ولا وجود للملاعق أو الشوك والسكاكين. لماذا؟!

وابتسم عارف بنصف فمه، وألقى بقية الشاي في فمه، ثم التقط تفاحة بجانبه من مدخرات غداء الأمس أخذ منها قضمة سريعة وقال:

ـ إنهم لا يريدونك أن تنتحر يا صاحبي.

ـ ماذا؟!

ـ لقد سمعت ما قلت. . . إنهم حريصون على حياتك الغالية، فأبعدوا عنك كل ما يمكن أن تستخدمه في قصف عمرك. أو هكذا يظنون.

قال عارف وهو ينخر ضاحكاً:

ـ ولكن هناك ألف طريقة وطريقة للانتحار. من يريد إنهاء حياته قادر على ذلك بوسائل لا يمكن التكهن بها.

ـ هذا صحيح.

قال عارف:

ـ ولكن المهم عندهم هو إخلاء مسؤوليتهم فيما لو حدث ذلك. أما حياتك ذاتها، فإلى الجحيم وبئس القرار.

ـ إخلاء مسؤوليتهم أمام من؟

وضحك عارف وهو يقضم لب التفاحة ويقول:

ـ أمام الدولة يا عزيزي. الدولة حريصة على حياتك يا صديقي. . . حتى الذين ماتوا هنا قالوا إنهم ماتوا بالسكتة القلبية وليس بالتعذيب أو الانتحار أو أي شيء آخر لا يعلمون عنه.

وارتعد جسد هشام لذكر الموت، واجتاحه رعب عنيف للحظات، ثم لم يلبث أن بدأ يزول وهو يقول:

ـ ولكن لِمَ كل هذا الحرص على حياتنا؟. . لقد كنت أسمع أن الداخل هنا مفقود، والخارج مولود.

وزفر عارف بشدة وهو يقول:

ـ معك حق يا صاحبي. بودهم لو لم يكن لأمثالنا وجود، ولكن بإرادتهم وليس بإرادتنا. حتى في الموت لا يريدوننا أن نكون أحراراً.

ـ لم أفهم. . . كيف؟

قال هشام ببلاهة واضحة، فيما ضحك عارف بقوة وهو يعتدل في جلسته، وينظر إلى عيني هشام مباشرة ويقول:

ـ ولا أنا. . . إن أسهل الألغاز هو أصعبها حلاً. هل فهمت؟

وبقيت النظرة البلهاء مرتسمة على وجه هشام، فيما عاد عارف إلى الاسترخاء وهو يبحث عن شيء يقضمه من بقايا الأمس أو اليوم، فلم يجد إلا كسرة خبز يابسة ألقاها في فيه وأخذ يمضغها بصوت مسموع وهو يقول:

ـ إنه الحرمان من الحرية حتى في الموت. فرغم أن موتك أثير لديهم، إلا أنهم هم من يحدد متى وكيف.

ونخر عارف وهو يضحك بهمس قائلاً:

ـ نهرب من قضاء الإله لنقع في قضاء المخلوق... وكلها أقضية في أقضية. هل هناك عبث أكثر من ذلك؟

ـ ولِمَ لا يكون قدراً؟ فإذا كان الفرق بين الجنون والعبقرية شيء أرق من الشعرة وأحد من السيف، فإن القدر والعبث ذات الشيء ربما، أو أنهما التناقض الخالق الذي لا بد منه لحركة الأشياء؟

ـ سمه ما شئت يا صاحبي، وفلسفه كما أردت، فلست من أرباب الفلسفة والتفلسف.

وابتسم هشام وهو يقول:

ـ يا سلام... الماركسيون أرباب الفلسفة والتفلسف. أليس كذلك؟

وأشاح عارف بوجهه وهو يقول:

ـ ها نحن ندخل في فذلكاتك مرة أخرى... المهم أني قرفت وسئمت. ليتهم يخرجوننا أو يقتلوننا ولا يبقوننا على هذه الحالة.

ثم وهو يضحك بمرارة:

ـ يبدو أننا نقيم على أعراف هذه الدنيا، حيث لا جنة نستحق، ولا ناراً نثوي إليها. أو ربما كنا في جهنم ذاتها حيث لا موت يريح ولا حياة تريح.

وصمت الإثنان لفترة، وأخذا يراقبان معركة الشطرنج بين علي وعبد الغني، دون أن يراقبا. وقطع هشام الصمت وكأنه يهرب منه قائلاً:

ـ ألا تعتقد يا عارف أنك تبالغ كثيراً في تصوراتك؟ ألا تظن أنك قد ذهبت بعيداً في ظنونك؟..

ـ كيف؟

ـ ألا يجوز أنهم يفعلون ذلك انطلاقاً من مبدأ ديني؟ أعني... الدين يحرم الانتحار، ولذلك هم لا يريدونك أن تنتحر.

وقهقه عارف بقوة، جعلت رفاق الغرفة ينظرون إليهما، ونظرات منتظري الحمام في الخارج تلتفت إليهما بسرعة. وكتم عارف ضحكته، ونظر إلى هشام وهو يهز سبابته في وجهه ويقول هامساً:

ـ أحياناً يا هشام أعتقد أنك شاب في غاية الذكاء، وأحياناً أبصم بالعشرة على أنك ساذج... بل أبله كل البلاهة.

ثم وهو يضع كفه على فيه كاتماً ضحكة أخرى:

ـ لعل البعث هو من أصابك بهذه البلاهة الطارئة ربما...

وأحسّ هشام بالمهانة تخترق جسده، وتختلط بنخاع العظام ودم العروق وألياف اللحم. ود لو كان قادراً على صفع القابع أمامه هذا، وكانت يده تحاول أن تتملص من إرادته لتلتقي بالوجه البارز أمامها بكل إغراء وإغواء. وشعر هشام بكل الكره الذي في هذه الدنيا يجتاحه دفعة واحدة، ولكنه كتم كل ذلك في داخله، وقال بصوت حاول أن يكون متماسكاً، وكل خلجات جسده ترتجف:

ـ أين البلاهة في ما أقول؟.. أرجو أن توضح يا حكيم العصر والأوان.

وبلهجة كانت السخرية تفوح منها:

ـ فأنا لم أنعم بعد بأفضال الشيوعية وحكمتها السرمدية.

وأحس عارف بما يعتمل في جوانح هشام، فأخذ يفرك عينيه ويمسح

دموعهما، وهو يحاول كتم ضحكته وهو يقول، ممسكاً بيد هشام هشام بشكل عفوي:

ـ لا تغضب مني يا صاحبي، فأنا أحب المزاح والدعابة. ولعلك عندما تعرفني جيداً سوف تعتاد علي. ثم... كيف يمكن تبديد سأم المكان وقرف الزمان دون روح دعابة ننتزعها انتزاعاً؟

وأحس هشام ببعض الراحة، وإن بقي بعض لهيب الكره يحرقه في الداخل، لم يلبث أن تأجج من جديد حين قال عارف:

ـ ولكني أعتقد أنك ما زلت غراً يا صاحبي، رغم تفلسفك وتفذلكك.

ـ لِمَ لا ترشدني إذن يا صاحب الفضيلة... افتنا ولا تفتّنا سدد الله خطاك...

كانت رنة السخرية واضحة في لهجة هشام المرة، مما جعل عارف يهدأ فجأة وبسرعة، ويعود إلى الاسترخاء مسنداً ظهره إلى الجدار، شابكاً كفيه حول رأسه، ناظراً إلى سقف الغرفة، وقد غاب كل أثر للبسمة والضحكة. لقد كان واضحاً أنه يحاول تمالك نفسه والسيطرة على أعصابه، ولكن ارتجاف عينيه كان يفضحه. وأحس هشام ببعض الحرج والألم، الممزوج بنار الكره التي أخذ أوارها يخبو بعد أن منحها فرصة الخروج من أعماق جوفه. وساد الصمت من جديد لبضعة دقائق، مزقه صوت عارف الذي بدا وكأنه قادم من بعيد:

ـ ليس للمسألة يا صاحبي علاقة بالدين... ليست القضية قضية إسـلام أو مسيحية أو يهودية أو غيرها. إنها مسألة سياسية بحتة لا علاقة لها بأخلاق أو دين أو إنسان. إنهم لا يريدون الإحراج، وتشويه

السمعة ليس إلا...

ـ إحراج؟.. إحراج من؟ وأمام من؟ ولماذا؟!

واعتدل عارف في جلسته بسرعة، وعاد إلى الضحك من جديد وهو يقول:

ـ أمام العالم، وأمام الناس... أشياء كثيرة. أما ذات الحياة فلا قيمة لها. هل فهمت؟

والحقيقة أن هشام لم يفهم، ولكنه هز رأسه علامة الفهم، فيما عارف يضحك من جديد وهو يقول:

ـ أنا أعلم أنك لم تفهم... وأنا كذلك لم أفهم.

ثم وهو يلقي بنفسه مسترخياً من جديد:

ـ ألم أقل لك إن أكثر الألغاز صعوبة هو أسهلها.

وصمت الإثنان، واسترخى هشام أيضاً، بعد أن أشعل سيجارة أخذ يمتصها ويراقب دخانها وهو ينتشر في سماء الغرفة، ثم يفر منها في كل اتجاه. وجاء صوت عارف هذه المرة كسيراً، خافتاً، وكأنه يحدث نفسه:

ـ الانتحار يا صاحبي هو قمة الحرية... في الانتحار أنت تمارس حريتك كاملة حين تختار بين الوجود والعدم، وتفضل إحداهما على الآخر دون أن يُختار لك... في الانتحار أنت تقهر الظروف، وتهزم الصدف، وتنتصر على كل ما هو ليس أنت. الانتحار هو الحرية المطلقة، والاستقلال التام، لذلك لا أحد يطيقه. لا هم ولا نحن.

وبعد صمت قصير، عاد عارف إلى الحديث، مناجياً نفسه في الحقيقة:

ـ بل إن الانتحار هو تحد للإله نفسه.

ثم وهو يضحك بسرعة:

ـ هذا إن كان هناك إله... الانتحار يا صديقي يعني أني قد اخترت الجحيم ورفضت النعيم بملء إرادتي... فالنعيم الحق هو ما أختاره أنا، لا ما يختاره لي ما ليس أنا... الجحيم هو النعيم حين أختاره أنا، والنعيم هو الجحيم حين يختاره غيري لي أنا.

ويضحك عارف مرة أخرى، ثم يعتدل في جلسته، وقد اتسعت عيناه، وبرقت عينه السليمة، وقال وهو ينظر إلى هشام وقد اكتسى وجهه بعلامات نصر ما:

ـ الانتحار نصر على الله. ففي الانتحار تفوت الفرصة على الله أن يختار لك مصيرك. فأنت تدخل النار بإرادتك حين تنتحر وتعلم أن مصيرك هو النار. ليس الله هو من أدخلك النار، بل أنت من فعل...

وابتسم هشام وهو يقول:

ـ ولكن افرض أن الله أدخلك الجنة بالرغم من انتحارك، ألا يكون قد فوت عليك الفرصة واختار لك بالرغم منك؟

وضحك عارف بحبور وهو يقول:

ـ كلا... فإذا دخلت النار فبإرادتي، وإذا أدخلني الله الجنة فأكون قد فرضت إرادتي عليه... لقد توعدني بالنار فيما لو انتحرت، ولكنه أدخلني الجنة برغم الوعيد. لقد فرضت إرادتي عليه، وجعلته يغير وعيده. لقد أصبحت نداً له. أبعد هذا الانتصار انتصار؟..

ـ ولماذا لا يكون هو من قدر عليك الاختيار منذ البدء؟

ـ أكون قد فضحت اللعبة كلها حينذاك.

وعاد عارف إلى الاسترخاء وهو يردد:

ـ الانتحار هو النصر النهائي على كافة أشكال السلطة وأنواعها.

وصمت عارف، فيما كان هشام يشعر برهبة من نوع مختلف تملأ كيانه، لا يدري مصدرها... إحساس غريب لم يعهده من قبل يسيطر عليه، ولا يجد مفردة من اللغة قادرة على ترجمة هذا الإحساس إلى كلمة مفهومة. كم هي عاجزة هذه اللغة حين لا تستطيع أن تترجم معاني نحسها ولا نقدر أن نعبر عنها. إنها تتحول إلى سجن أين منه السجون المعهودة. لم يكن ما يحس به خوفاً، ولم يكن تلك الرهبة المعهودة... كان شيئاً غريباً يريد أن يعبر عن ذاته ولكنه غير قادر. أحس برغبة في سيجارة جديدة، رغم أنه أطفأ سيجارته للتو، فلعل ذلك الإحساس يجد طريقه إلى الخارج مع الدخان المتجول في أعماق الجوف، والمنطلق إلى الخارج بكل حرية وانسياب. أشعل السيجارة وعاد إلى فراشه. امتص منها ثلاثة أنفاس عميقة، ثم نظر إلى عارف قائلاً:

ـ أنت غريب الأطوار يا عارف.

ثم وهو يضحك بهدوء، محاولاً تخفيف وقع كلماته على عارف، وقد زال كل أثر للكره الذي أحسه سابقاً، وحل محله إحساس عميق بالعطف والتعاطف:

ـ قد أكون أنا أبله أو ساذج، ولكنك غريب الأطوار فعلاً يا عارف. تقول إنك شيوعي، وتتحدث بلسان كامو. تؤمن بماركس، وتمارس جوته. تمجد لينين، ولا أجد عندك إلا سارتر وهيدغر... تمزج

الوجودية وفلسفة العبث وشطحات التصوف، بالماركسية وفردية ديوي وبراجماتية جيمس... من أنت يا عارف؟

واعتدل عارف في جلسته مرة أخرى، وأطلق ضحكة كان واضحاً أنها مصطنعة هذه المرة وهو يقول:

ـ في الحقيقة لست أدري... هذا إن كان هناك حقيقة. هذا إن كان هناك حقيقة.

أخذ يردد ذلك وهو ينظر إلى بقعة زيتية صغيرة كانت تلوث فراشه. ثم وهو يرفع رأسه من جديد، ويحاول الابتسام:

ـ على أية حال لقد حاولت أن أفلسف الأمور، حاولت أن أمنطق الانتحار ولـم أقـل إني أؤمن بذلك. لقد أدخلت الله في الموضوع رغم أني لا أؤمن به جملة وتفصيلاً.

ـ هل الله إيمان أم اقتناع أم إحساس يا عارف؟..

ـ لم أفهم قصدك.

ـ تقول إنك قد فلسفت الأمور ومنطقتها، ورغم ذلك لا تؤمن بها. وأحاسيسك مخالفة لكل ذلك. أين الحقيقة يا عارف؟..

ولم يجب عارف، الذي بدا وكأنه غائب عما حوله، فيما قال هشام:

ـ لقد لمست في حديثك حماساً حاراً، وشغفاً واضحاً بمسألة الانتحار.

ثم وهو يهز سبابته في الهواء:

ـ لا تدخلني في متاهات الماركسية، أنا أتحدث عن المشاعر هنا.

وهز عارف رأسه بآلية، وظل ابتسامة يلوح على فيه:

ـ لعله السجن يا صاحبي... تذكر أنني سجين قديم، وقد هدني السأم، ودمرني الملل، وضقت ذرعاً بالرتابة، ونخرني الرعب من الداخل.

ـ معك حق.

قال هشام وهو يشعر من جديد أنه يتنفس داخل علبة سردين مقفلة ومفرغة من الهواء:

ـ إن الحرمان من الحرية شيء بغيض. كل شيء يتساوى عندما تغيب الحرية. كل شيء يتحول إلى عدمية رهيبة...

وبدون سابق إنذار أو تعليق، هب عارف واقفاً، واتجه إلى خارج الغرفة بسرعة... لعله يريد الحمام، أو الحديث مع أحد آخر في غرفة أخرى، منتهزاً فرصة حراسة مرعي. أو لعله يريد الفرار من شيء ما... من يدري ما الذي يجول في داخل ذلك الصندوق الأسود الذي نسميه إنساناً. وأشعل هشام سيجارة أخرى، وعاد الصمت والزمن يمارسان لعبتهما السمجة الرهيبة.

ـ ١١ ـ

كانت عقارب الساعة في البهو الخارجي تعلن تمام العاشرة ليلاً، وكان الهدوء والصمت يلفان «بيت الموتى». كان عارف وهشام يلعبان الشطرنج، فيما كان علي يتقلب على فراشه في محاولة للنوم، بينما يحيا وعبد الغني يتحدثان بهمس وقد اتكأ كل منهما على مرفقه. ولم يلبث الحارس سعيدان أن أطل على الجميع آمراً إياهم بالنوم، فقد دقت ساعة النوم. فرد عليه عارف كعادته كل ليلة: «ما زال الوقت مبكراً، ولسنا

بحاجة إلى النهوض باكراً. . .» وأجاب سعيدان كالعادة: «بلا غلبة أنت وهو. كله ينام الساعة العاشرة، هذه هي أوامر العقيد». فجمع عارف أحجار الشطرنج ووضعها في علبة كرتونية صغيرة، فيما دس رقعة الشطرنج تحت فراشه وهو يتمتم بصوت هامس سمعه هشام: «حسناً. حسناً. العقيد والقدر والحتمية أمور لا راد لها. . .»، ثم استأذن الحارس في الذهاب إلى الحمام لغسل أسنانه قبل النوم، ولكن سعيدان رفض السماح له قائلاً: «كان من المفروض أن تفعل ذلك قبل موعد النوم. . . ثم على ماذا تخاف؟ على عقد اللؤلؤ من أن يفسد»، وغادر إلى الغرف الأخرى وهو يضحك بصوت مسموع. لكم يكرهون الحارس سعيدان هذا، بقدر حبهم للحارس مرعي. فرغم أنه يتغاضى أحياناً عن لعبهم الشطرنج أو الداما، والحديث مع بعضهم بعضاً، إلا أنه غير مأمون العواقب. فلطالما أخبر العقيد في زياراته المفاجئة للمعتقلين عن مكان الشطرنج، ومن كان يتحدث مع من، ويبني العقيد تحقيقاته واستنتاجاته على «من تحدث مع من» هذه. لم يكن هشام قد رأى العقيد أو قابله بعد، ولم يكن مشتاقاً لذلك على أية حال، ولكن قصص عارف عنه كانت تبعث الرعب في كل ذرات جسده. وقد كان سعيدان نموذجاً مصغراً للعقيد، أو هو يحاول أن يكون كذلك، ولكنه لم يكن ليرقى إلى مرتبة العقيد في أي شيء. كان يتلذذ بالتنغيص عليهم بشكل غريب، في الوقت الذي كان مرعي يجد سعادة خاصة عندما ييسر لهم بعض الأمور. حقاً إن الإنسان أفضل من الملاك، وأسوأ من الشيطان، وعليه هو الاختيار بينهما. ليس الملاك ملاكاً بإرادته، وليس الشيطان شيطاناً بإرادته، ولكن الإنسان أحدهما بإرادته.

انسل الجميع إلى فرشهم، وتغطى الجميع بالبطانية إلى منتصف

الصدر، فقد كان الجو غير مأمون العواقب في مثل هذه الأيام من السنة، رغم أن جدة لا تعرف البرد القارس في أي وقت من أوقات السنة. جو جدة مثلها تماماً، في غاية الجمال والروعة، عدا شهرين أو ثلاثة من الرطوبة والحرارة، التي لا تقارن برطوبة و «كتمة» الدمام على أية حال. وما هي إلا دقائق، وكان شخير يحيا قد ملأ المكان، وتلاه شخير عبد الغني المتقطع، وأخيراً صوت أنفاس علي. ولكن هشام بقي مستيقظاً، فلم يكن بمقدوره النوم قبل تمام الثانية عشرة، ويتأكد من أنه غير مدعو لحفلة تلك الليلة. وأخذ يتحدث مع عارف بهمس، رغم علمه أن عارف لا يسمع ما يقول، فيما كان سعيدان يدندن أغنية لمطرب بدأ نجمه في السطوع والأنتشار اسمه «محمد عبده». وتعانقت العقارب معلنة تمام الثانية عشرة. . . وقفز قلب هشام من صدره، وأخذت أنفاسه تتصاعد وهو يصيخ السمع. هذه هي اللحظة. هنا تخرج الأشباح من جحورها، وينتشر الجن في المكان، ويصحو منكر ونكير من غفوتهما المؤقتة. العقيد ومساعده جلجل. . . بقدر ما كان يحب منتصف الليل في الماضي، فإنه يمقته كل المقت هذه الأيام. ولسنين عديدة بعد خروجه من بيت الأموات، كان جسده يرتعش بعنف كلما انتصف الليل، وسمع دقات الساعة. وأخذ الوقت يمر دون أن يسمع أصواتاً، فبدأ يحس بالراحة شيئاً فشيئاً.

ـ عارف. عارف. . . هل نمت؟

قال هشام بصوت هامس، وهو يحاول أن يبدد وحشة الوقت وخطوات سعيدان:

ـ كلا. نعم. آمر. . .

أجاب عارف بملل وهو ينخر، وبصوت أوحى أنه بين اليقظة والمنام:

ـ من تعتقد أنهم سيستدعون الليلة؟.. أم أنهم لن يستدعون أحداً؟.. إجازة يعني...

وهيء إليه أن عارف كان يبتسم وهو يقول:

ـ وهل للشياطين إجازة؟ لو كنا في رمضان، لقلت إنهم قد غلوا... على أية حال لا أعلم.

ثم وهو يضحك بصوت كصرير الباب:

ـ ربما تكون أنت.

واجتاح الرعب هشام، وتصبب العرق غزيراً، وأحس أن معدته تكاد تخرج من بلعومه، فقال بصوت مرتعش:

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ... أرجوك يا عارف، لست في حالة تتقبل أي نوع من الدعابة.

ـ لا عليك يا صاحبي... كنت أمزح فقط. وعلى أية حال، وما منكم إلا وارده... أقصد العقيد وتابعه جلجل.

واجتاحه الرعب من جديد بكل قواته هذه المرة، فقطع الحديث وأخذ يحاول النوم، لعل غزو النوم يبدد اجتياح الرعب، فيشرق الصباح دون أن يكتب له لقاء العقيد هذه الليلة. وربما تحدث معجزة فلا يقابل العقيد أبداً. ورغم علمه أن ذلك مستحيل، إلا أنه كان يحاول أن يقنع نفسه أن المعجزة واردة، وليست الأمور بالمنطق دائماً. المعجزة... نبحث عنها وننتظرها حين يعجز المنطق عن خدمتنا، أو حين نعجز نحن عن التكيف مع المنطق. عقله لا يريد التوقف عن التفكير رغم الرعب

الذي استقرت قواته في كل خلية من جسده... إنه يفكر بجنون، ويرتعش كالمحموم، ويدق قلبه بعنف كطبل افريقي في ليلة سوداء ساكنة خيمت على أجمة ملتفة الأغصان. وارتفع شخير عارف، منضماً إلى أوركسترا عبد الغني ويحيا وعلي، فيما كانت الساعة في البهو تعلن تمام الواحدة بعد منتصف الليل. وبدأت قوات الرعب بالجلاء التدريجي، فغطى رأسه بالبطانية، وأخذ النوم يداعب أجفانه على صوت صرصار كان يغني في الخارج أغنية بدت في تلك اللحظة أعذب من أغاني أم كلثوم كلها أيام الصفاء الخالية.

وفيما هو بين اليقظة والمنام، سمع صوت الباب الخارجي وهو يفتح، وصريره يخترق الأذن ويمزق سكون المكان، وصوت رسول العقيد، حمدان الثميني، الأجش الجهوري وهو ينتشر في أجواء المكان منادياً: «هشام العابر... السجين هشام ابراهيم العابر...». وأحس كأنه أخذ في التبول غير الإرادي من كل فتحات جسده، ونصلاً طويلاً حاداً اخترقه من أسفل الجسد حتى أعلاه، وهو يذهب ويجيء ممزقاً كل ما يعترض طريقه في جسده الذي تحول إلى ذيل طاووس في قمة اهتزازه وانتشائه. لم يستطع الحركة أو الرد، وكأنه أصيب بالشلل والخرس معاً، فقد عجز لسانه عن الحركة، وجف ريقه تماماً، لا يدري إن كانت ساقاه تنتميان إليه أم أنهما مجرد امتداد لشيء ما لا يدري ما هو. وجاء الصوت مرة أخرى: «هشام ابراهيم محمد العابر... وين الزفت هذا...» رفع هشام البطانية عن جسده المبتل وحاول النهوض، وكان جميع من بالغرفة قد أفاق على صوت الوكيل حمدان، وأخذوا يفركون أعينهم التي امتلأت بالأسى، ولكنه لم يستطع النهوض فقد فقدت ساقاه الإنتماء إليه. ثم أطل الحارس سعيدان من باب الغرفة وهو يقول، وقد

علت بسمة غامضة شفتيه: «وين ابن عابر هذا، عساه يعبر الدنيا... إنه هنا، أليس كذلك؟» فأجاب هشام بصوت جاف تماماً لا يكاد يسمع: «أنا هنا...»، ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك. وما هي إلا برهة، وكان وجه حمدان المربع، الذي نهشه البرص، ولحيته البيضاء المربعة، وعيناه الحادتان تطلان على الموجودين وهو يحمل ورقة بيده ويقول: «هل أنت هشام العابر؟»، «نعم يا وكيل»، «إذن لِمَ لا تجيب؟.. هل أنت أطرش؟.. هيا هيا، إن البيه يريدك...» ونهض هشام بتثاقل، وكاد أن يسقط، فقد كان ساقاه يرتجفان بشدة، وسار جاراً قيده الفولاذي وراءه دون أن يحاول رفعه والإمساك به، فلم تكن لديه القدرة على فعل أي شيء. أمسكه حمدان من ذراعه، واتجه الإثنان إلى الباب الخارجي، فيما كانت أنظار من بالغرفة تتابعه بأسى واضح، وذلك النصل اللعين ما زال يذهب ويجيء في أعماق جسده، بسرعة محمومة، وجهد لا يفتر.

اجتاز الإثنان البهو الرئيسي، وصوت القيود على رخام البهو يحدث فحيحاً وأجراساً تمزق السكون المحيط، فيما كان حراس الشقق الأخرى يتكئون على قضبان الأبواب، وكان البعض يقضم أظافره بأسنانه، وهم يراقبون ما يجري دون أن يعني لهم أي شيء، أو هكذا أحس هشام في تلك اللحظة. وخرج الإثنان من المبنى الرئيسي، وأخذا يسيران في طريق مظلم إلا من بعض الأضواء الخافتة من هنا وهناك. كانت أول مرة يخرج فيها هشام من المبنى منذ أن جاء، فأحس بعذوبة الهواء ورقته في تلك الساعة من الليل، وأدرك لأول مرة في حياته جمال السماء ونجومها، والأرض وترابها. مشكلتنا دائماً أننا نأخذ كل شيء في الحياة على أنه من البداهات، ولا نعلم قيمة الشيء إلا إذا فقدناه... هذه هي المأساة. ود في تلك اللحظة لو أنه كان قادراً على التمرغ في الرمال الناعمة،

وملء رئتيه بالهواء الطلق، وإلقاء نفسه في البحر عارياً، ولكن العقيد لا ينتظر. وعاد النصل الحاد إلى العمل دون كلل أو ملل، ففقد كل شيء لذته المؤقتة التي تحولت إلى ألم بدورها. وأحس هشام أن هذا كان أطول طريق مشاه في حياته، رغم أن المسافة بين المبنى ومكتب العقيد لا تتجاوز الأمتار القليلة. وجالت في رأسه صورة المسيح، أو من شبه لهم، وهو يسير في طريق الآلام وهو يحمل صليبه على ظهره، وتاج الشوك يزين رأسه، فابتسم بألم.

وبدأ «ركن» العقيد تتضح معالمه. غرفتان متقابلتان بينهما صالة صغيرة تحتوي على حمام ومطبخ صغير. وصل الإثنان إلى الركن، فاتجه حمدان إلى الغرفة اليمنى حيث كان هناك جندي بملابس مدنية يشرب الشاي ويدخن. نهض الجندي بسرعة عندما رأى حمدان، وأدى التحية العسكرية، وبقي واقفاً ينتظر الأوامر. كان مثل حمدان تماماً في تكوينه الجسدي. طويل القامة، ضخم الجسد، مربع الوجه، حاد النظرات، حليق اللحية، بشارب غزير فاحم السواد ومفتول من طرفيه. سلم حمدان هشام للجندي وهو يقول: «السجين المطلوب يا جندي عوض». أمسك عوض بهشام من ذراعه، فيما غادر حمدان المكان. لم يكن حمدان إلا رسولاً من رسل العقيد، أما عوض فقد كان أحد الزبانية. أجلس عوض هشاماً على كرسي خشبي مهترىء أمام طاولة معدنية كانت رمادية اللون، فيما جلس هو على كرسي أمام الباب، منهياً كأس الشاي والسيجارة بهدوء. كان باب الغرفة الأخرى، حيث مقام العقيد، مغلقاً وتأتي منه أصوات مبهمة لم يتبين منها إلا صوت يردد اسمه بصوت عال جداً. أدرك أن الصوت هو صوت العقيد أو مساعده جلجل، مما أوقع الرعب في كل ما تبقى من خلايا لم تجتاحها قوات

الرعب في السابق. حاول أن يتشاغل عن ذاته بما حوله، ولكن ما حوله أعاده إلى ذاته المرعوبة من جديد. لم يكن فيما حوله إلا مجموعة كبيرة من عصي الخيزران الرفيعة مغموسة في جردل من الماء بقرب الباب، وعقود من القيود الفولاذية مختلفة الأحجام والأغراض موزعة على جدران الغرفة بشكل منسق، وكأنه جزء من ديكور الغرفة. وفي الزاوية اليسرى البعيدة، كان هناك جهاز أشبه بمحول كهربائي تتدلى منه الأسلاك، موضوعاً على طاولة صغيرة بجانبها كرسي خشبي صلب. أصابته هذه المناظر بالهلع، فطأطأ رأسه، وأخفى كفيه بين فخذيه، وأخذ ينظر في ما بين قدميه، تاركاً للأقدار أن تفعل به ما تشاء... وهل له غير ذلك؟!

لا يدري كم من الوقت مضى قبل أن يفتح الباب الآخر، ويطل منه شخص ضخم الجثة بشكل لافت للنظر، يرتدي ثوباً أبيض ناصع البياض، تاركاً الحرية لكرش ضخم أن يأخذ راحته في التمدد، داكن اللون، أحول العينين، بشارب أسود كث دون لحية، غليظ الشفتين، أفطس الأنف عظيمه، حليق شعر الرأس تماماً، وكان يدخن سيجارة بعصبية ظاهرة. لا يدري من أين ينتقون هؤلاء الأشخاص الذين يبعث منظرهم الرعب في الأفئدة. لا بد أنهم منتقون بدقة، وإلا كيف يجتمع مثل هؤلاء المتشابهين خلقاً وخلقة في مكان واحد. ألقى القادم سيجارته بعنف خارج الركن وهو يصيح: «يا عوض... أنت يا زفت يا عوض...» وبعجلة وارتباك، أجاب عوض، فقال له: «هات الحمار اللي عندك»، وعاد أدراجه إلى الغرفة. واتجه عوض بعجلة إلى حيث يجلس هشام، وجذبه من منكبه بقوة، واتجه الإثنان إلى الغرفة الأخرى.

كانت الغرفة تتكون من مكتبين، أحدهما مصنوع من خشب في غاية

الفخامة يقع في مواجهة الداخل مباشرة، والآخر معدني وأقل فخامة ويقع على يمين الداخل. وعلى يسار الداخل، كان هناك طاولة خشبية عادية، وكرسي خشبي صغير، وعلى الطاولة مجموعة من الأوراق البيضاء وأقلام الحبر الجاف. كان يجلس على المكتب الذي على اليمين الشخص ذاته الذي رآه قبل قليل، وكان يعض شفتيه بعصبية، ويقضم أظافره وهو ينظر إلى هشام بعينين حادتين اختلط فيهما السواد بالبياض. أما المكتب الرئيس في الواجهة، فقد كان يجلس عليه رجل في غاية الأناقة والوسامة والريح الطيبة. كان يرتدي ثوباً حليبياً براقاً، بأزارير ذهبية، وشماغاً مكوياً بعناية فائقة تبدت في حدة «المرزام» البارز من تحت عقال أسود حريري لماع، ورائحة عطر أخاذ كانت تملأ المكان قادمة من جهته. كان الرجل أسمر اللون، بل كان أقرب إلى البرونزي وكأنه قد لوحته الشمس على شاطىء البحر. وسيم الملامح فعلاً: أنف دقيق مستطيل، وفم صغير بشفتين ممتلئتين كان مزموماً طوال الوقت، وعينان واسعتان سوداوان بأهداب طويلة، وجبين واسع بحاجبين رقيقين يبدو وكأنهما هذبا بعناية. وفوق الفم، يتربع شارب أسود دقيق هذب بعناية فائقة، وخال أسود كبير يتربع على الوجنة اليسرى. كان واضحاً أن هذا الرجل هو العقيد مالك عبد المهيمن، رب هذا المكان. أما الآخر، فكان جلجل عبد القوي، مساعد العقيد. ولأول مرة ينتبه هشام إلى أن شخصاً آخر كان يجلس على كرسي أمام جلجل، مديراً ظهره للقادم. كان واضحاً أن هذا الشخص من المساجين، يرتدي الإزار المقلم، والفانلة البيضاء، والشبشب المطاطي. نظر العقيد إلى هشام، راسماً ابتسامة واسعة على فمه، بينت بعضاً من أسنانه البيضاء الدقيقة، ثم قال وهو يشير إلى كرسي أمامه: «تفضل يا بني... لقد أسهرناك الليلة،

ولكن إذا كنت عاقلاً، ويبدو أنك كذلك، فلن تضطر للسهر مرة أخرى، وربما لن تضطر للمكوث معنا فترة أطول مما مكثت». وجلس هشام على الكرسي، فيما عوض يغادر المكان بهدوء ويغلق الباب وراءه. مد العقيد يده إلى علبة سجائر «كنت» كانت بجانبه، وسحب منها سيجارة أشعلها بولاعة ذهبية، ثم أخذ نفساً عميقاً من السيجارة، ونفث الدخان في الهواء وأخذ ينظر إليه متلذذاً قبل أن يقول مبتسماً وهو ينظر إلى هشام بعينين طغت عليهما السكينة: «أنت طالب في الجامعة؟ ماذا تدرس يا بني؟..» وبصوت جاف مرتعش، قال هشام: «اقتصاد... اقتصاد وعلوم سياسية يا بيه»، «عظيم. عظيم. البلد محتاجة لمثل هذه التخصصات، ولو أني أفضل الطب أو الهندسة، فالمهن ضمانة للمستقبل... أليس كذلك؟»، «معك حق يا بيه، ولكني أحب هذا التخصص»، «إذن لا بد أن تبدع فيه. أنا أتحدث عن أولئك الذين لا يعلمون ماذا يريدون... أنا مثلاً. لدي ولد في مثل سنك تقريباً، ولكنه ليس بذكائك طبعاً، لا يعرف ماذا يريد ولذلك أنا أحضه على دراسة الطب أو الهندسة». خف التوتر قليلاً لدى هشام، وإن كان لا يزال مرعوباً، فكل هذا اللطف، وكل هذا المدح لا بد أن يكون لغاية في نفس العقيد. لعله ساذج كما قال عارف ذات مرة، ولكنه ليس غبياً على الإطلاق. وبعد أن أشعل العقيد سيجارة أخرى، نظر إلى هشام قائلاً، والابتسامة العذبة لا تزال تحتل فمه: «أنا معجب بك يا هشام. شاب صغير ويقرأ كل ذلك الكم من الكتب. فالقراءة شيء طيب، ولكن المهم أن نعرف ماذا نقرأ، ولا نؤمن بكل ما نقرأ. أليس كذلك يا هشام؟»، «نعم. نعم يا بيه»، «إذن لماذا تقرأ كتب البعثيين والشيوعيين؟» «أنا أحب القراءة يا بيه ليس إلا»، «وهل حب القراءة يجعلك بعثياً؟»، «لست بعثياً

يا بيه»، «وهل يدفعك حب القراءة إلى التنظيمات السرية؟»، «لست منخرطاً في أي تنظيم يا بيه»، «وهل حب القراءة يجعلك تقف ضد الدولة التي رعتك وعلمتك وفتحت لك كل الأبواب؟»، «هذا ليس صحيحاً يا بيه». وأخذ العرق الغزير يتصبب بغزارة من كل مسام هشام، رغم أن الجو لم يكن حاراً على الإطلاق، فهم في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني. وأحس أن يديه في برودة الثلج، وهو غير قادر على التحكم في ارتعاشهما، فحاول إخفائهما بين ساقيه. لقد كان في غاية الحيرة... هل يسمع نصائح أبيه، ويعترف بكل شيء يعرفه ويتجنب ما لا تحمد عقباه، أم يصمد كما صمد الكثيرون ويتحمل نتيجة ذلك؟ ولكنه خائف، بل هو مرعوب، وغير واثق من نفسه. هل يستطيع تحمل لسع تلك الخيزرانات الدقيقة التي رآها في الجردل قبل قليل؟ هل يستطيع تحمل لدغ كل تلك القيود المعلقة على جدران الغرفة الأخرى؟ وتلك الآلة الكهربائية الموضوعة بعناية في الغرفة الأخرى، لا بد أنها في إيلامها تفوق لسع الخيزران، ولدغ القيود، وهو غير واثق من نفسه وقدرتها على التحمل... غير واثق من نفسه. وتذكر فجأة ذلك الاقتراح الذي تقدم به الرفيق حسن الصباح ذات مرة في إحدى جلسات الخلية. لقد اقترح أن يكون هناك تدريب على التعذيب حتى يتعود الرفاق على مجابهة الأوقات الصعبة. ولقي الاقتراح قبولاً حسناً عند الرفيق فهد، ولكن بقية الرفاق رفضوه. ليتهم قبلوه، لعرف طعم الخيزرانات الدقيقة، وعرف قدرته على التحمل. لقد ذاق طعم العصا والفلقة أيام الدراسة الابتدائية، ولكن الأستاذ الفقعاوي لم يكن يريد اعترافاً بشيء، بل كانت العصا تأخذ نصيبها من أقدامهم الصغيرة دون مراعاة لقدرة تحمل أو صراخ. أما هؤلاء، فهم يريدون شيئاً، يريدون اعترافاً وأسماء جديدة،

وهو لا يدري إن كان قادراً على الصمود. سوف يسمع كلام أبيه ويعترف، ولكن... ولكن حتى لو اعترف، فهل يتركونه في حاله؟.. كلا، سوف يطالبون بالمزيد والمزيد، فهم أشبه بجهنم حين يقال لها هل امتلأت، فتقول هل من مزيد... ولكن أين رجل الرحمن كي تغلق هذا الوحش الفاتح فاه؟.. النتيجة واحدة سواء اعترف بسرعة، أو لم يعترف. ومن خلال نظارة مغبشة، نظر إلى العقيد بعينيه الواسعيتن المسكونتين برعب يحطم الضلوع قائلاً بصوت في غاية الجفاف والارتعاش، رغم محاولته التحكم فيه:

ـ الحقيقة لا أدري عما تتحدث يا بيه... أنا لا أعلم شيئاً عن تنظيمات سرية أو علنية. أقرأ كل شيء، ولكني لا أؤمن بكل شيء.

وابتسم العقيد وهو يشعل سيجارة أخرى، ثم نظر إلى جلجل دون أن ينبس ببنت شفة، الذي صرخ مزمجراً:

ـ على مين هادا الكلام يا نايك أمك... قرفتونا في عيشتنا الله يقرف عيشتكم أكثـر ما هي مقروفة... والله لولا الدولة أعزها الله، لدفنتكم أحياء في المزبلة اللي جنبنا...

وأحس هشام بالدماء تغلي في عروقه، والأرض تميد به وتدور... نايك أمك... كان يتصور أن يسبه أحد بأي شكل، وأن يشتم أحدهم أمه بأي شكل، ولكن... نايك أمك... ابتلع المهانة بمرارة، وهل له خيار غير ذلك؟ ونظر إلى جلجل نظرة حملت كل البغض والاشمئزاز والاحتقار الذي في هذه الدنيا، ثم حول نظره إلى يديه الغارقتين بين ساقيه. والتقط جلجل النظرة السريعة، وأدرك معناها، فنهض من على كرسيه باتجاه هشام وهو يصرخ:

ـ ايش... مو عاجبك كلامي يا ابن الشرموطة؟!

ثم هوى بكفه الغليظة على صدغ هشام، فهوى على الأرض وهو يشعر بطنين مؤلم يخرق أذنه، فيما وقعت نظارته تحت أقدام السجين الآخر. ولكن ذلك لم يكن مؤلماً بقدر ما كان يتمزق من الداخل وهو يسمع كل هذه الشتائم الموجهة لأمه. أراد أن يقول «الله أعلم من هو ابن الشرموطة»، وليكن ما يكون، ولكنه أمسك في آخر لحظة، فقد تغلب الهلع على الشعور بالمهانة. التقط نظارته، وحاول أن يلتقط أنفاسه، فيما تناهى إليه صوت العقيد قائلاً: «بلاش هذا الأسلوب يا جلجل... هشام ابن عيلة، ورايح يتكلم، مو مثل الحونش الآخرين...»، ثم وهو ينظر باسماً إلى هشام المنطرح أرضاً: «أليس كذلك يا ولدي؟.. إنت مو وش بهدلة، اتكلم وريح راسك. لا أحد يستحق ما تفعله، كلهم حونش...» ونهض العقيد من على كرسيه، وساعد هشام على النهوض والجلوس على الكرسي، ثم عاد إلى مقعده وهو يصيح: «يا عوض... يا عسكري عوض»، ولم يلبث عوض أن ظهر وهو يردد بعجلة: «أمرك يا بيه. أمرك يا بيه»، «شوف الأخ هشام إذا كان يشرب حاجة»، ثم موجهاً الكلام إلى هشام: «تشرب حاجة يا ولدي؟.. لازم تشرب حاجة». وهز هشام رأسه بالنفي، وهو يضع كفه على أذنه التي أخذ طنينها المؤلم يزداد. وطلب العقيد كوباً من الشاي الثقيل مع كثير من السكر، فيما طلب جلجل فنجان قهوة سادة وهو يقول: «سادة عليكم وعلى اللي خلفوكم... كل يوم سهر ونكد معاكم»، فيما بقي السجين الآخر وكأنه جثة هامدة لا حياة فيها. وأشعل العقيد سيجارة أخذ يمتصها بهدوء وهو ينظر إلى هشام بعينين باردتين، ثم بعد فترة من الصمت قال:

ـ شوف يا ولدي . . . نحن نعلم أنك كنت عضواً في حزب البعث. التهمة ثابتة عليك. فنحن لم نأت بك إلى هنا إلا بعد التأكد من ذلك. لدينا الأدلة والشهود . . . كن عاقلاً وأرح نفسك ولا تدفعنا إلى إيذائك. نحن لسنا هواة أذية. اعترف . . .

وبعد صمت قصير:

ـ ونحن نعلم أنك وحيد أبويك . . . فلا تؤذيهما أكثر من ذلك. إنهما يستحقان منك أفضل من ذلك.

وبوغت هشام، إنهم يعرفون عنه كل شيء تقريباً. لم يهمه ذلك، ولكنه أحس بالألم عند ذكر أبويه . . . يا له من ماكر هذا العقيد، إنه يلعب لعبته بمنتهى البراعة. ورغم علم هشام أنها لعبة من ألاعيب العقيد، إلا أنه أحس بالألم فعلاً عند ذكر أبويه، وكاد أن يجهش بالبكاء ويعترف بكل ما يعرف، فهو ليس خطيراً على أية حال، وليس هناك ما يمس أمن الدولة فعلاً، فهو لم يحمل سلاحاً، مجرد قدر دفعه دفعاً إلى مصير لم يختره، وليكن ما يكون، فالسجن أهون من الموت عند والديه.

ـ شوف يا ولدي . . .

واصل العقيد قائلاً:

ـ كل إنسان يخطىء، ولكن خير الخطائين التوابين . . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعفو عن المذنبين، والتائب عن الذنب كمن لا ذنب له، فإن الدولة كذلك . . . المهم أن تعترف وتقر بذنبك، وكان الله غفوراً رحيماً. أنت شاب فاهم ومثقف، والمستقبل أمامك، ولا ريب أنك عاقل يعرف مصلحته جيداً، فلا يغرنك هؤلاء الحونش الذين غرروا بك . . . إذا أردت البروز أو الجاه والمنصب، فادخل البيوت من أبوابها

لا من شبابيكها وطاقاتها. والدولة، والحمد لله، لم تقصر. بل وفرت كل الوسائل المشروعة من أجل الشباب أمثالك، كي يعبروا عن أنفسهم، ويحققوا مستقبلهم . . . صدقني يا بني أن المذنب التائب خير من غير المذنب على الإطلاق في عين الدولة. اعترف . . . اعترف يا بني، ربنا يهديك.

وفعلاً أثرت كلمات العقيد في نفس هشام، وعادت إليه حيرته وتردده. هذا العقيد . . . إما أن يكون صادقاً فيما يقول، ولا يريد إيذائه، أو أنه ضليع بعلم النفس . . . ولكنه لا يدري . . . هل كان السجناء مخطئين في معرفة العقيد وما يراد بهم، أم أنه ساذج فعلاً؟ . . وصمت العقيد لبعض الوقت، فيما كان عوض يدخل ومعه الشاي والقهوة. أشعل العقيد سيجارة أخرى، وارتشف رشفة من الشاي الساخن بصوت مسموع، أطلق بعدها آهة لذة واستمتاع، ثم قال وهو ينظر إلى هشام مبتسماً:

ـ ها . . . ايش قلت يا ولدي؟ راح تتكلم. أليس كذلك؟

ـ ليس لدي ما أقوله يا بيه . . .

وضحك العقيد بحبور وهو يقول:

ـ على كيفك . . . أنت الجاني على روحك. أنت اللي تستاهل كل اللي يجرالك.

ثم وهو ينظر إلى جلجل ويضحك:

ـ شفت يا جلجل . . . جمعت عبد الوهاب وأسمهان مع بعض كيف!

وضحك جلجل وهو ينخر بشدة، فيما نظر العقيد إلى السجين الآخر قائلاً:

ـ ها... ايش رأيك يا أخ حسين. أم هل أقول الرفيق سلمان؟..

ولأول مرة يرفع السجين الآخر رأسه وينظر إلى العقيد. وفوجىء هشام... لقد كان حسين مسيدس ما غيره.

ـ ها... قل لي يا حسين... هل تعرف هذا الشخص؟

ونظر حسين إلى هشام نظرة سريعة، ثم عاد بنظره إلى الأرض وهو يقول:

ـ نعم يا بيه.

ثم ازدرد ريقه وقال:

ـ لم أره من قبل، ولكني أعرفه... إنه هشام ابراهيم العابر... الرفيق أبو هريرة، نصير في الحزب. ضمّه إلى الحزب منصور عبد الغني، وكان مسؤولاً عنه راشد عبد الجبار أول الأمر، ثم فريد المدراسي. وكان أعضاء خليته مرزوق المطراني، وزكي باقر عبد النبي، وموافق الميجاري، وعدنان العلي الذي ضمه إلى التنظيم. ووزع منشورات في المدرسة الثانوية، وكتب تحليلاً عن الثورة الليبية تطغى عليه الماركسية... هذا كل ما أعرفه عنه يا بيه.

كان هشام فاغراً فاه طوال الفترة التي كان فيها حسين يتكلم. رباه... لست من الأهمية بحيث يذكر حسين كل هذه التفاصيل عني... أي ذاكرة خارقة لديه، وأي رعديد هو. إنه خائف ومرعوب، ولكنه لا يمكن أن يذكر كل هذه التفاصيل حتى لو تذكرها. لا ريب أنه ذكر مثل هذه التفاصيل عن كل شخص سُئل عنه، يا لها من ذاكرة

خارقة. وتذكر ذلك النقاش الذي دار بينه وبين الرفيق فهد في منزل الرفيق خالد في أول مقابلة لهما، وكيف كان فهد يثني على صمود وقوة إرادة الرفاق القياديين... وها هو واحد منهم. حسين مسيدس. ضخم في كل شيء... «سكبة» رجل بكل معنى الكلمة، ولكنه في غاية الجبن. لا يدري هل يشفق عليه أم يحتقره أم يمقته، فقد تفاعلت كل تلك المشاعر في داخله تلك اللحظة. لقد صدق عارف، فهذا الإنسان رعديد وحقير، فمهما بلغت درجة التعذيب، فإنه لا يمكن أن يدلي بكل هذه التفاصيل في اعترافاته... كيف تذكرها، وكيف اختزنها عقله بكل دقة؟ يا لها من موهبة، ولكنها موهبة في غير محلها. حمداً لله أنه كان معتقلاً يوم أعطوه مالية التنظيم، وإلا كانت كارثة. فساعتها سيعامل على أنه عضو قيادي. وحمداً لله أنه جمد في رتبة نصير، وإلا كانت الطامة أدهى وأمر.

وبعد أن أنهى حسين سرد معلوماته عن هشام، نظر إليه نظرة سريعة، ثم عاد بنظراته إلى الأرض. ثم سأله العقيد: «ألم تره هنا يا حسين؟». وبدون تردد أجاب حسين: «نعم... نعم يا بيه، رأيته ونحن في طابور الحمام ذات صباح»، «وماذا قال لك؟»، «كان يسأل لماذا ذكرت اسمه في التحقيق»، «وماذا قلت له؟» «لا شيء... لا شيء»، «حسين...»، قال العقيد متوعداً، فقال حسين مرتبكاً: «أخبرته أن ذلك أمر لا بد منه»، «عفارم عليك يا حسين». ثم عاد العقيد إلى كوب الشاي، بعد أن أشعل سيجارة ربما كانت الألف. وحمد هشام الله أنه لم يسأله عن عدنان، فيما قال جلجل موجهاً الحديث إلى هشام:

ـ ها... ايش قلت يا أبو الهواشم. أم أقول الرفيق أبو هريرة؟..

ثم مستدركاً:

ـ وعلى فكرة... لماذا اخترت أبو هريرة اسماً حركياً؟

ـ أنا هشام العابر، ولا أعرف شيئاً عن أبي هريرة هذا... إلا إذا كان الكلام عن المحدث الجليل...

وضحك جلجل حتى بانت أسنانه الملطخة بسواد السجائر وهو يشير بسبابته إلى هشام ويقول:

ـ أنت خبيث يا هشام، أنت خبيث. ولكن ما علينا.. أليس هذا هو الرفيق سلمان أحد قياديكم؟ لماذا لا تكون عاقلاً مثله وتعترف بكل شيء؟

ـ وهل أعترف بشيء لا أعرفه؟

ـ يا سلام!.. يعني الأخ حسين يتبلى عليك؟

ـ لا أدري، اسألوه.

وصاح جلجل مزمجراً: «يا عوض... إنت يا عسكري زفت...». وأطل عوض من الباب، فقال له جلجل: «رجع الزفت هادا»، وأشار إلى حسين، «وهاتوا لنا منصور عبد الغني، وفريد المدراسي، وزكي عبد النبي، وموافق الميجاري». رباه... الكل معتقل تقريباً، لم يبق إلا راشد عبد الجبار، ومرزوق المطراني، وعدنان العلي... تباً لك يا حسين، هل كان من الضروري أن يكون لك هذه الذاكرة الجبارة؟.. لا ريب أن راشد قد فر إلى سوريا كما كان يخطط، أما عدنان ومرزوق فلا يعلم عنهما شيئاً، ويرجو ألا يعتقلا لاحقاً. وكانت لحظات من الانتظار القاتل، كانت الوساوس تقتل هشام، فيما كان العقيد وجلجل يدخنان ويتحدثان عن رحلة قام بها العقيد مع بعض أصحابه إلى شاليه في «أبحر» ليلة الجمعة الماضية، وكان يحدث جلجل عن جمال البحر في مثل هذا

الوقت من السنة، خاصة إذا كانت الصحبة جميلة، ويضحك الإثنان. وما هي إلا دقائق وعوض يطل من الباب من جديد، وهو يقول: «المطلوبون هنا يا بيه». فأمره جلجل أن يدخل منصور عبد الغني أولاً. ودخل منصور وهو يجر قيوده الثقيلة، وارتبك أول الأمر عندما رأى هشاماً، ولكنه تمالك نفسه بسرعة، ووقف أمام مكتب العقيد. لم يتغير منصور كثيراً: ذات النظرة الصارمة، وذات الثبات، وذات الثقة المطلقة في النفس. لقد نحف قليلاً منذ أن رآه لآخر مرة، مما جعله يبدو أطول مما هو عليه في الحقيقة. دعاه جلجل إلى الجلوس على الكرسي الذي أمامه وهو يقول: «تفضل يا رفيق جعفر... تفضل»، وجلس منصور وهو رافع رأسه ينظر إلى العقيد بثبات غريب، فيما كان العقيد يعض شفته السفلية بعصبية، ويمتص السيجارة بشراهة. كان كل من منصور وهشام يتجنبان النظر إلى بعضهما بعضاً، رغم أنهما ينظران إلى بعضهما بعيون داخلية لا يراها طاقم العقيد وجلجل. أشعل جلجل سيجارة من علبة الروثمان، ثم قال، موجهاً الحديث إلى منصور:

ـ ها يا سيد منصور. أرجو ألا نكون قد سهرناك؟

ولم تكن إجابة منصور سوى نظرة قاسية إلى وجه جلجل، الذي كان التوتر واضحاً على حركاته.

ـ هل تعرف هذا السجين يا منصور؟

قال جلجل مشيراً إلى هشام:

ـ كلا. كلا يا بيه. لم يسبق لي أن رأيته.

أجاب منصور بحزم وصوت ثابت صاف لا تشوبه شائبة.

وضحك العقيد بعصبية، ونظر إلى جلجل قائلاً: «هل رأيت وقاحة

أكثر من ذلك يا جلجل؟!.. إنهم يكذبون ولا يرف لهم جفن!» ثم نظر إلى منصور وهو يقول بحدة وعصبية:

ـ اسمع يا رفيق زفت انت... لقد اعترف هشام بعلاقته بك، وكذلك حسين مسـيدس وعبد القادر سليحف كما تعلم... نحن لا نريد إلا أن نعرف لماذا لم تذكره في اعترافاتك السابقة. أم أن قدميك حنتا للسع الخيزرانة؟

ونظر منصور نظرة ذات معنى إلى هشام، وأدرك الإثنان أن المسألة مفروغ منها، فلم يدع حسين مجالاً للمناورة، فقال منصور:

ـ الحقيقة أننا كنا زملاء في الثانوية فقط... لم يكن بيننا أي علاقة، كنت أراه في الفصل فقط.

ونخر جلجل وهو يقول:

ـ احا... لا يا شيخ... على مين هادا الكلام! يعني ما بينكم حاجات تانية؟

وأعقب جلجل كلامه بأن كور يده اليسرى، وأبرز الاصبع الوسطى من يده اليمين، وأخذ يدخله في اليسرى وهو يضحك بحبور واضح، فيما كان العقيد يبتسم وهو يقول: «عيب هذا الكلام يا جلجل... قلنا لك هشام ابن عيلة... عيب». وتوقف جلجل عن حركته وهو مستمر في الضحك، فيما وجه منصور قد برزت عروقه بشكل واضح، وأحس هشام أنه يعوم في بحيرة من البراز. يا لهم من خبثاء، إنهم يهينون منصور لكونهم انتهوا منه. أما هو، فلا يزال التحقيق مفتوحاً، ولذلك يتصنع العقيد نوعاً من التقدير له. إنها لعبة مكشوفة، ولكنها تثير الحنق فعلاً، فهي تفترض الغباء فيهم. أسوأ ما يمكن أن توجهه إلى أحدهم من

إهانة، هو أن تفترض الغباء فيه، حتى وإن كان غبياً بالفعل. ونظر العقيد إلى منصور بحقد واضح، وقال مزمجراً، وقد تحول وجهه إلى قطعة من القبح المطلق:

ـ اسمع يا منصور زفت انت. ما نبغي نضيع وقت معاك... ما هي العلاقة التنظيمية بينك وبين هشام العابر؟ القراصة موجودة، وأنت أدرى بطعمها.

تردد منصور لبضع لحظات، ثم نظر إلى هشام، ثم إلى العقيد وقال:

ـ أنا من أتى به إلى التنظيم، وسلمته إلى راشد عبد الجبار، ولا أعلم شيئاً عنه بعد ذلك.

ـ ولماذا لم تقل ذلك سابقاً؟..

ـ عقلي ليس كتاباً يا بيه. لا أحد يتذكر كل شيء، خاصة في مثل هذا المكان.

ـ وكيف يتذكر حسين كل شيء؟

ـ الناس مواهب يا بيه.

ـ يا سلام... ولماذا أنكرت معرفتك به، رغم أنه كان زميلاً لك في المدرسة؟

ـ طول المدة وتغير الشكل يا بيه... لم يكن له شارب عندما عرفته.

وضحك العقيد وهو يقول:

ـ كم أنت ماكر وخبيث يا منصور، وسريع البديهة وحاضر الجواب... على أيـة حـال احمد ربك أن حسين مسيدس ذكر كل

شيء، وإلا أنت تعلم الطرق التي يمكن أن نستخرج بها ما بداخلك...

ثم نادى عوض، آمراً إياه إعادة منصور، وإدخال فريد. وخرج منصور وهو يجر خطاه. وقبل أن يصل الباب، نظر إلى هشام نظرة سريعة، وظل ابتسامة باهتة يلوح على فمه، وكأنه يقول: «ما باليد حيلة...»، وبادله هشام بسمة سريعة لم تفت على جلجل، الذي عاد إلى فعل حركته القذرة وهو يضحك بهستيرية. ودخل فريد مقيد اليدين والرجلين، وجلس على الكرسي الذي خلى. لقد نحل كثيراً، وبرزت عظام وجهه، وأصبح وجهه أقرب إلى الصفرة منه إلى البياض السابق.

وبدون مقدمات، سأله جلجل:

ـ هل تعرف هذا الشخص يا رفيق فهد؟..

ـ نعم. هشام العابر... الرفيق أبو هريرة.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ لا شيء... كان عضواً في الخلية التي كنت مسؤولاً عنها.

ـ وما هي المهمات التي قام بها؟

ـ لا شيء. لا شيء يا بيه. مجرد الحضور. وترك التنظيم قبل شهرين من اعتقالي.

ـ ولكن حسين مسيدس يقول إنه وزع منشورات وكتب تقارير سياسية.

ـ لعل الأمر اختلط عليه... لم يحدث شيء من ذلك.

ـ فريد. القراصة قريبة.

ـ هذا كل ما أعلم... ليس لدي شيء آخر.

ـ ولماذا لم تذكر اسمه عند التحقيق معك؟

ـ جل من لا يسهو يا بيه. النسيان آفة الإنسان.

ـ وكيف لا ينسى حسين؟

وابتسم فريد نصف ابتسامة وهو يقول:

ـ المواهب كالأرزاق يا بيه. المساواة فيها مجرد حلم.

ـ حسناً. حسناً. يا عوض...

وجاء عوض، وطلب منه جلجل إرجاع فريد وإدخال موافق. وأثناء ذلك، نظر جلجل إلى العقيد وقال: «فعلاً أولاد زنوة يا بيه... كل واحد يتستر على الثاني». وجاء موافق وهو بالكاد يسير، جاراً قيوده بتثاقل، وكل ذرة في جسده تنتفض، وجلجل يقول هازئاً: «ها قد أقبل الرفيق حسن الصباح». لم يتغير موافق كثيراً فالأذنان البارزتان في مكانهما، والعينان الجاحظتان كما هما، وإن كانت عظام وجنتيه قد برزت بشكل ملفت للنظر، فقد نحف كثيراً. جلس على الكرسي وهو بادي الارتعاش، في الوقت ذاته الذي سحب جلجل خيزرانة طويلة من جانبه، وضرب بها موافق كيفما اتفق وهو يصيح: «تعرف هذا الحمار يا حمار»، مشيراً إلى هشام بطرف الخيزرانة. وأخذ موافق يصيح وهو يقول بعجلة: «نعم. نعم يا بيه. الرفيق أبو هريرة. كان عضواً في الخلية التي كنت فيها قبل أن أنضم إلى خلية أخرى»، «من كان الآخرون يا موافق؟..»، «الرفيق حديجان، والرفيق أبو ذر... وكان مسؤولاً عنا الرفيق فهد»، «من؟» «أقصد مرزق المطراني وزكي عبد النبي وفريد المدراسي»، «وما هي المهمات التي قام بها؟»، «وزع منشورات في المدرسة، وكتب تحليلاً عن الثورة الليبية. هذا كل ما أعرف. هذا كل

ما أعرف». ثم انخرط موافق في البكاء بنشيج متقطع. غير أن جلجل ضربه بالخيزرانة مرة أخرى وهو يقول: «ولماذا لم تذكر إسم هشام عند التحقيق معك؟». ومن خلال النشيج، أجاب موافق: «لأني لا أعرف اسمه الحقيقي، كل ما أعرفه هو أبو هريرة... لذلك ذكرت من أعرف أسماءهم الحقيقية». وهدأ جلجل، ووضع الخيزرانة جانباً وهو ينادي على عوض: «يا عوض، خذ هذا الخنزير، وآتنا بالخنزير الأخير». وقفز موافق مسرعاً إلى الخارج، فيما كان زكي يدخل ويجلس مكانه وجلجل يبتسم بخبث ساخراً وهو يقول: «الرفيق أبو ذر. نصير الضعفاء والمساكين»، ثم يضحك والرذاذ يتطاير من فيه، ويواصل قائلاً: «ما شاء الله... كل الصحابة عندنا الليلة، يا له من شرف عظيم. أبو ذر وأبو هريرة وجعفر. وقائدهم سلمان»، ويواصل ضحكه الهستيري، فيما العقيد مشغول بعض شفته السفلى دون توقف. وبعد أن هدأ جلجل، نظر إلى زكي وهو يغالب ضحكه وقال:

ـ هل تعرف أبو هريرة يا زكي؟..

ـ نعم يا بيه... إنه صحابي ومحدث جليل.

ـ يا ابن الزنوة... شيعي وتقول عن أبي هريرة صحابي جليل!

ويعود إلى الضحك من جديد، ثم يقول وهو يمسح عينيه الصغيرتين:

ـ لا... خفيف دم... أنا أقصد أبو هريرة الذي بجانبك يا نايك أختك.

ونظر زكي إلى هشام، وعيناه تحمل نظرات كلها معنى أدركه هشام، ثم قال:

ـ نعم. نعم يا بيه... هشام ابراهيم العابر. كنا في خلية واحدة يرأسها الرفيق فهد...

ـ ومن هم الرفاق الآخرون؟

ـ لا أحد... أنا وهو فقط.

ـ يا نايك عارك... موافق ومرزوق وعدنان. ماذا يكونون؟

ـ الله أعلم يا بيه... ما أعرفه قلته.

ـ على أية حال لا يهمنا ما تقول الآن. نحن نعرف كل شيء. يا عوض...

وخرج زكي وجلجل يقول: «صحابي جليل ها... يا أولاد المتناكة»، وتأخذه نوبة ضحك جديدة.

كانت الساعة المعلقة فوق مكتب العقيد تشير إلى الثالثة والربع بعد منتصف الليل، وزئير الرياح في الخارج يضفي رهبة على كل المكان. نظر العقيد إلى هشام، وقد بدأ الملل يتسرب إليه، وقال وهو ينفث دخان سيجارته في وجهه، ثم يسحقها بقسوة في المنفضة:

ـ ها... ايش رأيك يا عم هشام؟ هل تريد أن تنام، أم تريدها سهرة صباحي؟

ورغم أن كل ذرة في جسده كانت مشبعة بزيت الرعب الرهيب، ومعمدة بماء الهلع، إلا أن هشام قال بهدوء غريب:

ـ ليس لدي ما أقوله يا بيه...

ـ ولا بعد كل هؤلاء الشهود؟.. كيف عرفوك إذن؟

ـ الله أعلم يا بيه... العلم عند الله.

ـ العلم عند الله؟.. حسناً، سوف تنسى الله نفسه بعد قليل.

ونظر العقيد إلى جلجل، فنهض جلجل بسرعة واتجه خارجاً. وبعد لحظات دخل عوض، فقال العقيد:

ـ نسي هذا الحيوان من خلقه.

وسحب عوض هشاماً من ذراعه، واتجه الإثنان إلى الغرفة الأخرى حيث كان جلجل يقف وفي يده خيزرانة رفيعة جداً، كان يضرب بها يده برفق وعيناه تلمعان بشكل غريب. الغريب في الأمر أن الهلع كان قد انتهى إلى حد كبير منذ أن دخل هشام إلى الغرفة الثانية، رغم أنه يعلم ما ينتظره هناك. لم يختف تماماً، ولكنه لم يكن بذات الشدة التي كان عليها عندما استدعوه أول الليل. كان يعرف أنه سيعترف في النهاية، ولكنه لا يريد ذكر أسماء أخرى. ورغم أنه لا يعرف أسماءً غير الذين شاهدهم الليلة، بالإضافة إلى عدنان وراشد، إلا أنه كان خائفاً من ذكر الجلسة الأخيرة مع فريد وأولئك الذين لا يعرفهم، وحكاية النقود. لو ذكر شيئاً عن تلك الجلسة، فسوف يسألون فريد وربما ذكر أسماءهم، ويكون هو السبب في ذلك. ربما يكونون من الموجودين في الكراديب، ولكنه لا يدري، ولا يريد أن يدري. المهم هو ألا يعترف سريعاً، وإلا طلبوا منه المزيد.

دفعه عوض في صدره، فسقط على البلاط البارد، ثم قبض على قدميه ورفعهما إلى الأعلى، فيما جلجل يقيدهما في الفلقة الخشبية. كان ثقل قيد رجليه، وقبضة الفلقة يؤلمانه إلى حد ما، ولكنه كان مشغولاً عن ذلك بمحاولة رفع إزاره الذي انحسر عن كامل فخذيه. ورفع جلجل الخيزرانة عالياً، وأخذ يتفرس بفخذي هشام لبعض الوقت، ثم هوى بها

بكل ما أوتي من قوة. أحس هشام أن تياراً كهربائياً قد أفرغ شحنته في قدميه، وخرج من رأسه. شيء أشبه بذاك الذي أحسه عندما كان في الخامسة من العمر، وكانت أمه مشغولة بإعداد طعام الغداء لوالده. كان على السطح يلعب، ورأى تلك الخروم التي طالما أغرته بعمقها وظلامها. أدخل قضيباً معدنياً كان يلهو به في أحد تلك الخروم، فلم يحس إلا ورجفة مؤلمة تعتريه في كل أنحاء جسده. سقط القضيب، ولكن الألم والغيبوبة عما حوله بقيت ثابتة إلى وقت ليس بالقصير. وأخذ يصرخ، فما لبثت أمه أن أقبلت، وكان جزاؤه توبيخاً شديداً بالإضافة إلى بعض الصفعات عقاباً له على سوء سلوكه. وعندما عاد والده، وحكت له الوالدة عما قام به من شقاوة، كان نصيبها توبيخاً شديداً وغضب الوالد تلك الليلة. أحس باللذة لتوبيخ والدته، ولكنها كانت لذة ممزوجة بألم لم يستطع التخلص منه رغم المحاولة. إبرة طويلة دقيقة غرزت في القدم وخرجت من الرأس. كيف يمكن لشيء دقيق وجميل وأملس مثل تلك الخيزرانة، أن يحمل في طياته كل ذلك الألم وكل ذلك الحقد. رحماك يا خيزرانة، فأنت لا تدركين ماذا تفعلين.

وهوت الخيزرانة مرة أخرى، وأخذت الإبرة المسمومة الحادة تذهب وتجيء، ولم يستطع هشام إلا أن يترك لصراخه العنان، فلعل الصراخ يخفف من وقع الألم، أو لعله يستجلب رحمة الخيزرانة، بعد أن ماتت قلوب القابضين عليها. ومع كل لسعة من الخيزرانة، كان السرور والحماس والإثارة تزداد بروزاً على وجه جلجل، وكأنه يذهب ويجيء في عملية جنس هو غير متعجل في الوصول إلى الذروة الكبرى فيها. كان يحاول أن يحرك قدميه، ولكن عوض كان مخلصاً في إمساكه

بالفلقة، فلم تفلح حركته إلا في جعل سلسلة القيد تصدر أصواتاً كصوت ناقوس في جمعة حزينة. واستمرت الخيزرانة في العلو والهبوط، واستمر الألم معها في العلو دون هبوط، واستمر الصراخ وصلصلة السلسلة، وليس في الأفق ما يدل على أن جلجل قد قارب الوصول إلى الذروة... اقذف يا جلجل، اقذف. كان كل ما حوله يصرخ. وفجأة، بدأ الألم يخف، رغم استمرار علو وهبوط الخيزرانة، وأخذت قدماه تتحولان إلى شيء غريب عنه. إنه يراهما، ويعلم أنهما قدماه، ولكنه لا يحس بأي علاقة معهما. توقف عن الصراخ، وهدأت حركة القدمين، وأخذت الأشياء من حوله تتحول إلى أرواح وأشباح وظلال لا جسم لها، وإحساس كأنه بدأ يهوي في بئر عميقة لا قرار لها، أو كأن حوت يونس ابتلعه فجأة دون أمل في نجدة الرحمن. وبدأت ألوان مختلفة تحيط بالخيزرانة وهي تعلو وتهبط دون كلل أو ملل، وتحول جلجل وعوض إلى كتلتين لا ملامح لهما. وبدأ النور يخف شيئاً فشيئاً، والخيزرانة الصفراء اللعينة لا تكف عن الحركة، وكأنها قد تحولت إلى حركة بذاتها. انتهى الألم تماماً، وأطبق الظلام، وأحس هشام برغبة في النوم العميق. وأخذت عيناه تطبقان شيئاً فشيئاً. وعلى البعد، وفي جوف الظلام، كان يتراءى له خيال أمه وهي تمد يديها إليه، بينما يجلس والده إلى جانبها وقد وضع كفه على خده. ومن ورائهما يقف شيخ كبير، له وجه خاله، حاسر الرأس، طويل شعر الرأس واللحية أبيضه، سمح الوجه، يلبس دثاراً فضياً براقاً، وهو يبتسم، وقد أمسك عصاً غليظة ملساء في يده اليمنى، ولفافة من الورق في يده اليسرى. وإلى جانبيه، تقف نورة وسارة، التي حملت في حجرها وليداً أشبه بالناصري في حجر زوجة النجار، الذي رأى صورته ذات مرة في بيت لحم. ولكن

الجميع دون وجه، وإن كان يعلم في داخله من هم... أحس في داخله شعوراً بالذنب، وكان يتوق للاستغفار، ولكن داخله انطفأ من كل إحساس بما هو محسوس، وأحس أنه صوفي غاب في سر الوجود، ولكن دون ضياء. فقد ساد السكون والظلام.

ـ ١٢ ـ

فتح عينيه ببطء وتثاقل، فوجد عدة أعين تحيط به وتنظر إليه بحب وعطف. كان في غرفته من جديد، يحيط به عارف ويحيا وعلي وعبد الغني، والشمس تملأ أرجاء المكان. كان الجميع يحيطون به، وما لبثت الابتسامات أن علت الوجوه المحدقة ما أن فتح هشام عينيه. كان الأسى واضحاً على وجه علي بصفة خاصة، حتى إن عينيه كانتا واضحتي الابتلال. وحاول هشام أن يبتسم، ثم حاول أن يتحرك، ولكن ألماً فظيعاً أقعده بسرعة. كانت قدماه كجمرتين ملتهبتين تتوهجان وتخفتان بتوالٍ شبيه بنبضات قلب طفل صغير.

ـ لا تتحرك... فالسكون خير علاج لما أنت فيه.

قال عارف وهو يمرر يده على شعر هشام برفق وحنان واضحين، جعلاه يشعر بحرج شديد رغم وخز الإبر في قدميه، فأخذ يحرك رأسه بملل جعل عارف يكف عن تمرير يده.

ـ لقد أتوا بك البارحة في حالة يرثى لها...

قال علي:

ـ لقد كنت فاقد الوعي، والدم يصب من قدميك. حاولنا إنعاشك،

ولكنك كنت في حال أشبه بالسكر الشديد.

ثم وهو يضحك:

ـ إلا أن الخيزرانة كانت مدامك، والعقيد وأبو الجلاجل نديميك...

وابتسم هشام بإعياء، وهو ينظر إلى علي بكل ود وصفاء. ثم نهض عبد الغني وهو يبرطم: «والله الواحد مو عارف بايطلع من هنا حي ولا ميت»، ومن ورائه يحيا، الذي أشعل سيجارة ثم عاد وهو ينفخ الدخان، ويردد أبياتاً للحلاج:

سكرت من المعنى الذي هو طيب
ولكن سكري بالمحبة أعجب

وما كل سكران يحد بواجب
ففي الحب سكران ولا يتأدب

تقوم السكارى عن ثمانين جلدة
صحاة، وسكران المحبة يصلب

ثم ألقى بنفسه على فراشه، وأقفل أبواب ذاته على نفسه. ولا يدري هشام لماذا خطر على باله في تلك اللحظة الكسندر جوريانتشكوف، بطل «ذكريات من بيت الموتى»، لفيدرو دوستويفسكي، بل هو يدري. إنه يعلم الآن عما كان يتحدث عنه دوستويفسكي. لقد انفعل مع الرواية عندما قرأها لأول مرة، وإن كان أقل بكثير مما أثارته فيه «الأم»، و «قصة مدينتين». فرق كبير أن تقرأ عن المعاناة أو تسمع عنها، وأن تخبرها بنفسك. فمهما كانت قوة اللغة، ومهما كانت رقة الأحاسيس، فليس هناك ما يعادل الخبرة الحسية المباشرة. قد نحزن لوفاة عزيز على

الفؤاد، صديق أو قريب، ولكننا لا نعرف معنى الحزن حتى نفجع نحن أنفسنا بوفاة عزيز. ولأول مرة في حياته يدرك المعنى العميق لفلسفة «كيركجارد»، وذلك العجز الذي يعاني منه المتصوفة حين يريدون نقل تجربتهم الخاصة عن طريق مفردات لغوية عاجزة على كل حال. حقاً إن كل واحد منا عبارة عن جزيرة منعزلة، حتى وهو لا يريد الانعزال. قدرنا أن نكون أفراداً وذواتاً، بالرغم من المجتمع والأمة والدولة والعائلة والعشيرة. قد لا ندرك مثل هذه الحقيقة ونحن في تيار الحياة سادرون، ولكنها تتجلى في لحظة معاناة أو ألم. فنحن نولد أفراداً، ونموت أفراداً، ونبعث أفراداً، ونحاسب أفراداً، وهذه هي الأركان الأربعة لحياة الإنسان في الدنيا وما بعدها... إن لم يكن كل شيء وهماً وحلم ليلة صيف عابرة...

وأخذ هشام ينظر حوله مستكشفاً، وكأنه يدخل الغرفة لأول مرة. لا شيء جديد، وما الذي يمكن أن يكون جديداً، رغم أن كل شيء بدا جديداً. بقع جافة من الدم المتناثر على فراشه، تكون لوحة تجريدية في غاية الجمال. لقد حُكم على الأرض ألا تشرب الدم منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل، فهل حُكم على القطن أن يفعل ذلك أيضاً؟.. رباه... كيف يمكن للقبح أن يكون جمالاً؟ هل لا بد من الألم كي نحصل على الجمال؟ سؤال خطر بباله فجأة، ولم يحاول الإجابة عليه، فها هو قد قدم الألم، فمتى يحين وقت الجمال واللذة؟.. كل تاريخ العالم هو تاريخ ألم، من أجل الجمال، ومن أجل اللذة كما يوعدون... فهل جاء الجمال؟ وأين اللذة؟.. أميركا قامت على أشلاء هنودها، ورأسمالية انكلترا قامت على أشلاء عمالها، واشتراكية روسيا قامت على سخرة معسكراتها، ونصرنا لم يستقم ولن يستقيم إلا بعد أن لا يعلو صوت

على صوت المعركة... هكذا قال أبو خالد. هل لا بد من القبح كي نصل إلى الجمال؟ وهل لا بد من الألم كي نحصل على اللذة؟ لا بأس، ولكن... متى؟ أبَعْد أن أموت؟.. وطافت بذهنه قولة للورد جون ماينرد كينز: «في المدى الطويل، كلنا أموات...»، وشطر بيت لأبي فراس: «إذا مت ظمآناً، فلا نزل القطر...»، وأحس بجمال الغرفة لأول مرة منذ أن قدم للكراديب... هذا المبنى القبيح. كيف كان الوزراء يحتملون الاجتماع فيه عندما كان مقراً لمجلس الوزراء في الأيام الخالية؟ ولكنها إرادة مثل القدر والحتم... مقر الوزراء يتحول إلى مقر للسجناء!.. وهل هناك فرق؟.. من يدري ما تفعل الأيام!.. يا لها من غرفة جميلة في هذه اللحظة... شمسها جميلة، وجدرانها بديعة، وقاطنوها نماذج جمال تتحرك. كم كانت هذه الغرفة قبيحة قبيل ليلة البارحة، ولكن كل ذاك القبح تحول إلى جمال أخاذ اليوم. الجمال والقبح ليسا في ذات الأشياء، ولكنهما في الذات التي تتعامل مع الأشياء، وفي الظرف الذي تكون فيه الأشياء. لقد صدق من قال «كن جميلاً ترى الوجود جميلاً»، ولكن متى تكون الذات جميلة؟ بل صدق من قال بالنسبية، لا في الأشياء فقط، ولكن في المشاعر والعواطف أيضاً. فكل ذاك المقت الذي كان يحمله لمنصور عبد الغني وفريد المدراسي أيام التنظيم، قد تحول بعد ليلة البارحة إلى حب جارف لا يعرف حدوداً. هل لأنهما لم يعترفا عليه، وحاولا التستر عليه ليلة البارحة؟ ربما... ولكنه لا يجد في داخله ضغينة على موافق الميجاري، وحتى حسين مسيدس، رغم محاولته كرهه. لم يكن يكره الناس بقدر ما كان يكره التنظيم. وعندما تكون العلاقات بين الناس مباشرة دون حواجز، فإنهم يتحولون إلى أناس فعلاً. أما عندما توضع

الحواجز والقيود، فإنهم يتحولون إلى مجرد أدوات ووسائل خالية من كل حياة. لقد سقط التنظيم، وسقطت الحواجز والأقنعة، فعاد منصور منصوراً، وعاد فريد فريداً، وليس «الرفيق» جعفر، أو «الرفيق» فهد. وحتى العقيد وجلجل وعوض والآخرين، إنما هم وحوش لأنهم ليسوا ذواتهم، بل هم أدوات في جهاز، ومسامير في عجلة، ولو عادوا إلى أنفسهم للحظة، لتبينوا أي جناية يرتكبون. أن تؤدي عملاً شيء، وأن تبالغ في إدانة شيء آخر، وليت الناس يعلمون. بل حتى راشد عبد الجبار لم يعد يشعر في داخله أي مقت تجاهه، وإن لم يشعر بالحب أيضاً. ليكن «وجه العنز»، ولكن حتى وجه العنز فيه من الجمال الشيء الكثير، فالجمال ليس وضعاً معيناً بقدر ما هو نظرة معينة.

ـ قل لي... ماذا حدث؟ هل اعترفت؟

قال عارف بصوت هامس، بعد أن تفرق الجميع، وهو يدني وجهه من وجه هشام، الذي لم يستطع تحمل رائحة فمه، فأدار وجهه قليلاً وهو يقول بصوت واهن:

ـ كلا... كلا، لم أعترف.

ـ حسناً فعلت...

قال عارف بلهجة الخبير:

ـ لو اعترفت بسرعة، لحاولوا الحصول على معلومات وأسماء أكثر. لقد قلت لـك ذلك سابقاً... لقد كان مسيدس هناك، أليس كذلك؟

ـ نعم... نعم.

قال هشام وهو يحاول تجنب وجه عارف الذي ازداد قرباً:

ـ لم أعترف، ولن أعترف.

قال هشام وقد اتسعت عيناه على أشدهما، ونبرة الحماس تتخلل صوته. وضحك عارف بقوة، وهو يلقي برأسه إلى الوراء، مما أتاح لهشام أن يتنفس بعمق، ثم قال:

ـ لا تكن سخيفاً يا صاحبي... ستعترف. عاجلاً أو آجلاً ستعترف، ولكن ليكـن ذلـك آجلاً...

ثم وهو يئد ضحكته، ويقترب بوجهه من وجه هشام من جديد:

ـ أنت لا تعرف مالك عبد المهيمن ولا جلجل عبد القوي. إنهما وحشان في صورة آدمية، بل إن جلجل وحش كامل شكلاً ومضموناً.

ثم وهو يسرح بنظره بعيداً:

ـ ما حدث لك ليلة البارحة كان مجرد بروفة... انتظر حتى تمارس دورك الكامل في المسرحية. فما نحن إلا أبطال رواية يكتبها راوٍ في مكان ما...

وشعر هشام بهبوط حاد في معدته، وتقلص مؤلم في الوقت ذاته، الذي طنت فيه أذنه بألم، وأحس بوخز الإبر في قدميه. ولكنه تحامل على نفسه وهو يقول:

ـ لا أحد يخيفني. لن أعترف... الذين ماتوا ليسوا أفضل مني.

كان هشام يعلم في أعماقه أنه يكذب، فهو سيعترف، بل إن نفسه وخيال أبيه يدفعانه إلى الاعتراف الآن ودون تردد، ولكنه لا يريد الاعتراف بسرعة حتى لا يكون حسين مسيدس آخر، أو رعديداً مثل موافق الميجاري الذي كان جلجل يتسلى بإرهابه ليلة البارحة. حتى هؤلاء الوحوش يعلمون مع من يتعاملون وكيف يتعاملون، فلا بد أنهم

يأخذون دروساً في علم النفس، إلى جانب دروس فنون الإرهاب. فهو لا ينسى كيف كان العقيد يناديه «بولدي»، وكونه ابن عائلة ووحيد والديه. إنه يحاول أن يلعب على الوتر الحساس، وهو يفعل ذلك مع الجميع، بعد معرفة وترهم الحساس. لقد لاحظ نظرات الإعجاب في عيني جلجل وهو يستجوب منصور وفريد، ونظرات الاستخفاف وهو يضرب موافق بالخيزرانة وكأنه قرد يريد منه أن يرقص، ونظرات الاحتقار وهو ينظر إلى حسين مسيدس. حتى الوحوش تحترم من يحترم نفسه.

ـ لا زلت غراً يا عزيزي...

قال عارف:

ـ الذين لم يعترفوا، لم يكن لديهم أصلاً ما يعترفون به... ولكن في النهاية لا بد أن تعترف. بل إن بعض من ليس لديهم ما يعترفون به اعترفوا بأي شيء. أنت لم تتعرف على العقيد وجلجل بعد...

ثم وهو يضحك باقتضاب:

ـ هل تعلم؟ لقد أتوا قبل أشهر ببائع خضار متجول. كان أعمى، وفي غاية الفقر. كان متهماً بالانتماء للجبهة الديموقراطية. وبعد أن مارسوا معه كل أنواع التعذيب، اعترف المسكين، ركنوه في الدور الثاني. وبعد عدة أشهر، اكتشفوا أن المطلوب لم يكن هذا المسكين، بل ابن عمه الذي يحمل الإسم نفسه... فأطلقوا سراحه دون اعتذار أو حتى أي شيء يدل على خطئهم. ولم يكن المسكين يريد أي شيء سوى الخروج.

وصمت عارف للحظات، ثم وهو ينظر إلى هشام في عينيه مباشرة:

ـ كما أن الاعتراف على النفس ليس عيباً. إنه إقرار بالمبادىء

والقناعات والموقف. العيب هو في ذكر الأسماء وتوريط الآخرين دون مبرر أو ظرف قاهر...

وتذكر هشام حسين مسيدس، وكيف كان ذليلاً بشكل لا يوصف ليلة البارحة. وبقي صامتاً ينظر إلى علي، الذي كان قابعاً في ركنه يتابع حديثهما دون أي تعبير واضح على وجهه.

ـ دع عنك المثاليات التي ما أشبعت بعوضة... أو ذبابة على رأي نزار قباني. قال عارف وهو يضع كفه على فمه ويضحك:

ـ ما زلت شاباً يا صاحبي. الحياة أمامك طويلة، والمستقبل ملك يمينك. ماذا ستستفيد إن لم تعترف ومت؟ إنهم يعرفون كل شيء عنك، فهل تضحي للاشيء؟

وصمت عارف، فيما كان علي يهز رأسه من بعيد موافقاً، فقال هشام:

ـ وما أدراك أني سأخرج من هنا حياً على أية حال؟.. وحتى لو حصـل ذلـك، فـأي مستقبل ينتظرني؟ لو كنت تاجر خمور أو حشيش، لربما نسوا ما فعلت. أما أن تفعل ما فعلت، مهما كان سخيفاً فتلك مسألة أخرى.

ـ لا تقلق يا صاحبي، لا تقلق... سوف تخرج ولن تؤاخذ كثيراً بما فعلت. مولانا ليس بذاك السوء الذي تتصور، بل قد يكون أفضل من غيره حين المقارنة، ولكن... ولكن قاتل الله الأجهزة، والمجتهدين في هذه الأجهزة، والمخلصين لمولانا أكثر من إخلاصه لنفسه.

ثم وهو يقترب برأسه بسرعة من رأس هشام:

ـ هل تعلم أن هناك أوامر مشددة بعدم الغلو في الضـرب، وأن لا

يمـارس التعذيـب إلا مع أشخاص بعينهم من ذوي الأدوار الخطيرة، وفي حالات الضرورة القصوى؟

ـ وما أدراك بذلك؟

ـ هل نسيت أني سجين قديم؟ ولكن العقيد وجلجل وأمثالهما يستلذون بفنون الضرب والتعذيب... إنهم ملكيون أكثر من الملك كما يقولون، وكل ذلك محاط برداء الإخلاص للنظام، مع أنهم هم أول من يسيء للنظام، فإخلاصهم دائماً وأبداً لأنفسهم فقط.

ـ ولكن ماذا بشأن الذين يموتون؟.. ألا يعلم مولانا أنهم ماتوا تعذيباً؟

ـ ليس بالضرورة... فتقارير العقيد وجماعته تقول إن الموت حدث نتيجة أزمة قلبية أو نحو ذلك، ومولانا يعتمد على التقارير. قاتل الله التقارير وأصحابها.

وضحك عارف وهو ينحني على هشام ويمرر يده على شعره من جديد وهو يقول:

ـ لا تخف يا صاحبي... سوف تخرج من هنا حياً، ولن تؤاخذ كثيراً بما فعلت. وهل فعلت شيئاً يستحق أصلاً؟.. ثم... لم كل هذه الخشية والقلق؟ لو كنت جعفرياً أو زيدياً لاختلفت المسألة... ولكنك من أهل السنّة والجماعة.

قال عارف ذلك وهو ينظر إلى علي بطرف عينه ويبتسم، فيما جاراه علي في ضحكه وهو يقول:

ـ يا أخي مالك أنت ومال الزيدية والشافعية... خليك في حالك، وخلينا في حالنا. صحيح... الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون.

وضج الجميع بالضحك، حتى يحيا شاركهم الضحك. وعندما ماتت الضحكات، قال هشام:

ـ سوف أقول لك ما فائدة الموت... إنه تجسيد للتضحية في سبيل المبدأ، ورمز لكل المناضلين. بل ورمز خالد في قلوب الناس أجمعين.

لو قيل مثل هذا الكلام أمام هشام منذ سنوات، لربما أحس بقشعريرة الحماس تجتاحه، والدماء تفور في عروقه، وأخذ يردده في كل مكان. أما اليوم، فهو يقوله دون أن يحس بأي حرارة أو حماس أو تفاعل مع الكلمات. مجرد كلمات لا تتجاوز اللسان دون أن تهز شيئاً في داخل الوجدان. لعل في الموت فائدة واحدة، وهي مغادرة هذا المكان بأي شكل من الأشكال. ولكنه حاول أن يبدو كالمؤمن تماماً بما يقول، وكان جاداً في ذلك، إلا أن الداخل يرفض أن يتصافى مع هذه الكلمات رغم محاولته أن يكون مخلصاً فيما يقول، ولكن يبدو أننا لسنا نحن، أو أننا أكثر من واحد. وعاد عارف إلى الضحك وهو يقول:

ـ تضحية؟.. رمز؟.. يا لك من طيب! يا لك من ساذج!

ثم وهو يمسح إزاره بطاقيته المشخلة:

ـ أي أناس هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟.. لا بد أنهم من جنس آخر غير الذي نعرف. إن الناس يا صاحبي غارقون في ملذاتهم، ولا يهمهم إلا الفم، والفرج، والفلوس... وطز في كل شيء. العاجز أو المحروم هو من يقول بالمثاليات والمبادىء، أما القادر فلا تتجاوز المبادىء عنده طرف اللسان. إنه يزدرد اللحم، ويرتشف النبيذ المعتق وهو يتحدث عن الجوع والعطش، وينادي بالفضيلة، وقضيبه يتلوى في جوف مومس تتأوه، ويرتشف الكونياك أمام موقد نار تتلظى، وهو يتحدث عن البرد

والزمهرير، ويجد ألف مبرِّر ومبرر لبلع حق هذا وذاك، وهو يبشر بالأمانة والاستقامة. ليس هناك مبادىء يا صاحبي... إنها غابة لا يؤمن بالأخلاق فيها إلا الضعيف والعاجز.

ـ كأني أسمع لغة نيتشوية هنا!

ـ لا تهمني الأسماء... وعلى ذكر الأسماء، هل قرأت شيئاً للشاعر محمد صالح بحر العلوم؟

ـ الحقيقة أن الشعر لا يستهويني... كلا. كلا، لم أقرأ له شيئاً.

قال هشام وهو يحس بالحرج من عدم معرفته للشاعر، فعلق عارف ساخراً:

ـ وتدعي الثقافة... المهم، فاتك نص عمرك.

ـ ألهذه الدرجة؟

ـ نعم، وأكثر... فقصيدته «أين حقي» هي معلقة هذا الزمن بلا منازع، ولكـن دون كعبة. هل تعلم أنه في الأيام الخوالي كان يسجن خمس سنوات على الأقل من تضبط هذه القصيدة معه؟

ـ !!!!

ـ نعم... والحقيقة أنها درة.

ثم وهو يبتسم ساخراً:

ـ ليس فيها أطلال طرفة، ولا سيوف عنترة، أو عنيزة امرىء القيس وأنات زهير وأوهام النابغة... إنها عن تأوهات العصر. هل تريد أن تسمعها؟ فأنا أحفظها عن ظهر قلب.

ـ ليكن... وأرجو ألا تكون مملة، فيكفينا ملل المكان.

أجاب هشام بضيق، وهو يعد نفسه لسماع الشعر الذي لا يحب. وأخذ عارف نفساً عميقاً، واعتدل في جلسته وسيماء الجد تكسو وجهه، وكأنه يستعد لشعائر صلاة عميقة، ثم أخذ يلقي بخشوع: «رحت استفسر من عقلي وهل يدرك عقلي، محنة الكون التي استعصت على العالم قبلي»، وكان يغيب مع القصيدة كلما تعمق فيها. وانتابه الحماس الشديد عندما وصل إلى آخر بيتين في القصيدة، فجحظت عيناه بشكل واضح وهو يقول:

لم يؤثر بيقيني ما أقاسي من شجوني
فشجوني هي من أسباب تثبيت يقيني

ولتكن دنياي ما بين اعتقال وسجون
وليكن آخر أنفاسي منها: أين حقي

وعندما انتهى عارف من إلقاء القصيدة، كان وجهه قد أصبح بلون الشفق، وحبات عرق لؤلؤي تتجمع على جبهته، وكأنه نبي فارقه الوحي لتوه. مسح عرقه بطاقيته، ثم ابتسم وهو يقول:

- ها؟.. ما رأيك؟

- أنا آخر من يسأل في الشعر وعنه، ولكنها، والحق يقال، آسرة وأخاذة... وخطيرة في الوقت نفسه... لا غرو في أنهم يعاقبون من يحملها، فالشعر عند العربي، أخطر من منشور سياسي.

وضحك عارف قائلاً:

- بالطبع... إبداع الشيوعيين ليس مثله إبداع. كان بودي أن أردد القصيـدة دائمـاً وفي كل حين، ولكنها المحاذير. الشكر لمن له الشكر في أن الذاكرة ما زالت تستوعبها.

قال عارف ذلك، وأخذ ينظر إلى الأعلى، ثم وهو يغمز بعينه البيضاء، ويبتسم:

- لقد كان جورج أورويل مبالغاً حين جعل ١٩٨٤ عنواناً لروايته... كان من المفروض أن يجعله ١٩٦٤، فقد سبقنا العصر في حكاية الأخ الكبير. ولِمَ لا يكون التاريخ بالنسبة لنا ٦٦٤؟.. هل فهمت ما أعني؟

- لست أدري عما تتحدث... ولكن لا تطلع فيها... ليس إلى هذا الحد. فلنزار قباني مثلاً قصائد مشابهة.

- بل إلى هذا الحد وأكثر.

ثم وهو يتصنع الغضب:

- أنا أحدثك عن بحر العلوم، وتحدثني عن نزار قباني؟!.. هل تقارن شاعر التمرد والتفرد بتاجر الحس والجنس، اللباس والطاس؟

- وما العيب في الحس والجنس؟.. ألست نتيجة الجنس وإليه تتوق؟ والطاس..

وصمت هشام وكأنه تذكر شيئاً، ثم قال باسماً:

- ذكرتني بما قاله أبو بحر، الأحنف بن قيس، حليم بن تميم، الذي إذا غضب، غضب له مائة ألف سيف لا يسألون لما غضب. فقد سئل عن أطيب الشراب، فقال الخمر، وكان لا يشربه. فقيل له في ذلك، فقال: «وجدت أن من أبيح لهم لم يفارقوه، ومن حرم عليهم سوغوه». ألم يشترِ قصي بن كلاب ولاية الحرم بزق خمر من خزاعة... عندما تعود إلى سجن الدمام، اقرأ «الأوائل»، للعسكري... والقرآن الكريم لم يتدرج في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وحتى الميسر وعبادة الآلهة، ولكنه تدرج في تحريم الخمر، وإن كان هنالك من الفقهاء من له

رأي بمسألة التحريم تلك. ويقال إن فقيهاً ركب مركباً في البحر، وكان معه نصراني وله غلام يهودي. فلما انتصفوا بالبحر، دعا النصراني بزق من الخمر، وأخذ يشرب. فعرض بعضاً من الخمر على الفقيه، فأبى سائلاً إياه: «وما أدراك أنها خمر؟..»، فقال النصراني: «بياعها لي غلامي اليهودي هذا، حالفاً أنها خمر معتقة»، فأخذ الفقيه الكأس وشربها دفعة واحدة وهو يقول: «نحن جماعة المحدثين، نكذب خبراً عن سفيان بن عيينة عن سفيان الثوري، وتريدنا أن نصدق خبراً عن نصراني عن يهودي!؟.. والله ما شربتها إلى لضعف الإسناد».

ثم صمت للحظات وقال:

ـ وعلى أية حال، فنزار ما بعد حزيران غيره ما قبل ذلك... وحتى قبل ذلك، لم تكن كل قصائده حول المرأة والنهود والأرداف... رغم أن كل التاريخ إنما يدور حول هذه الأشياء حقيقة... قتل قابيل هابيل من أجل المرأة، وخرج آدم من الجنة من أجل المرأة، وأذنب داود من أجل المرأة، وسخر سليمان الجن من أجل المرأة، وقال رسولنا الكريم: «حبِّب إلي من دنياكم هذه الطيب والنساء، وجعلت الصلاة قرة عيني»، ومزامير داود كلها عن المرأة، وسكر لوط في التوراة من أجل المرأة، وأبطل المسيح حد اليهود من أجل مريم المجدلية، وخاف ابراهيم من فرعون مصر من أجل المرأة، وكانت المرأة وراء مباركة يعقوب بدلاً من عيسو، وقتل أوديب أباه من أجل المرأة، وضاعت الأندلس من أجل المرأة، وقال نابليون: «فتش عن المرأة...»، وهو الذي كان يحقق النصر في الحروب ليضعه تاجاً على رأس جوزفين، التي يعلم كل العلم أنها تخونه، وكتمت اليزابيث البتول وفكتوريا العجوز أنفاس الإنكليز لأنهما كانتا مكتومتين، وثار هنري الرابع على الكنيسة الكاثوليكية من

أجل المرأة، والملك ادوارد والليدي سيمبسون...

وانتفض عارف هنا وهو يقول:

ـ إنه الحب يا عزيزي.

ـ بل هو الفرج يا صاحبي...

قال هشام بحدة:

ـ وخلك من الخرابيط الثانية. لو مارس قيس الجنس مع ليلى، أو روميو مع جولييت، لما سمعت بقصص الحب تلك... طوال التاريخ لا نسمع إلا قيس وليلى، روميو وجولييت، لماذا؟.. بلايين البشر عاشوا وماتوا، ولم نسمع إلا عن قيس وليلى، روميو وجولييت، وربما عشرات من القصص المشابهة هنا وهناك... لماذا؟ لأن البشر تجامعوا بشكل أو بآخر، إلا هؤلاء... فجعلوا من شبقهم أقصوصة. فقد خان أنطونيو الأمبراطورية قبل ذلك من أجل المرأة، وقتلت أم خالد بن يزيد، زوجة الخليفة يزيد، زوجها مروان بن الحكم لأنه أهانها في فرجها، حين أهان ولدها بذكر سعة الفرج وبرودته، وستالين وهتلر وسوكارنو وتيتو والمرحوم عبد الحكيم عامر... ألم يكن الفرج هو هاجسهم قبل السياسة؟ وكيف سيطرت علينا المخابرات الأميركية والموساد والكي جي بي إلا عن طريق الفرج... وبعد كل هذا تستهين بالفرج يا أبا وحيد؟

ـ يا سلام... هل تعني أن الحب خرافة؟

ـ إطلاقاً... ولكنه ليس ذاك الذي يوصف لنا في ملاحم قيس وليلى وغيرهمـا... ذاك شبق لم يُشبع، ليس إلا.

ـ على أية حال، ظننتك لا تحب الشعر!..

قال عارف ساخراً، فقال هشام:

ـ أنا قلت إن الشعر لا يستهويني، ولم أقل إني أكرهه. لا تنسى أني عربي، والشعر يجري في دماء العرب... هناك بعض القصائد تجبرك على التفاعل معها.

ـ المهم... ماذا يقول صاحبك نزار الجديد؟.. هل تهدل النهـد، أم ازرقـت الشـفاه، أم افتضت كل العذارى؟

ـ بلا طنازة عاد... هل قرأت قصيدة «إفادة في محكمة الشعر» التي ألقاها في بغداد؟..

ـ لا...

ثم وهو يضحك:

ـ في السجن لا يقدمون لنا مثل هذه الخدمات.

ـ إذن اسمعها واحكم بنفسك، فأنا أحفظ بعض الشعر أيضاً، رغم عدم ميلي إليه.

قال هشام وهو يضحك بحبور لأول مرة منذ زمن كاد ينساه. وأخذ يلقي القصيدة، ووصل إلى أقصى انفعاله وهو يقول:

وحدويون!! والبلاد شظايا

كل جزء من لحمها أجزاء

ماركسيون!! والجماهير تشقى

فلماذا لا يشبع الفقراء

قرشيون!! لورأتهم قريش

لاستجارت من رملها البيداء

لا يمين يجيرنا أو يسار

تحت حد السكين نحن سواء

وبعد أن أنهى هشام إلقاء القصيدة، قال:

ـ هذا غير «خبز وخشيش وقمر»، التي لا بد أنك قرأتها، فهي قصيدة قديمة قالها نزار في الخمسينيات، ووضع فيها اصبعاً على كثير من مآسينا. وهناك «هوامش على دفتر النكسة»، وغيرها. نزار ليس شاعر حس وجنس كما تقول، وإن كان لا يضيره ذلك. وحتى في شعره عن المرأة، فإنما هو يحاول التعبير عما نفكر به جميعاً ولكننا لا نقوله، متدثرين بأردية النفاق والفضيلة المزيفة.

ونخر عارف بضيق وهو يقول:

ـ طز في قريش يا صاحبي... ولماذا يجعل نزار قريشاً مثلاً أعلى؟.. ألأنها قبيلة النبي؟.. والنعم بأبي القاسم. ولكن قريشاً لا... لقد جعلوا كل تاريخنا تاريخاً لقريش. ألم يكن هناك غير قريش في الساحة؟

وابتسم هشام وهو يقول:

ـ لا تنسى أن التاريخ يكتبه المنتصرون... ثم، وأرجو عدم الإحراج. أليس الشيعة هم من رفع من شأن قريش؟

وانتفض عارف وهو يقول:

ـ كلا... كلا... كان الشيعة مع الحق. كانوا مع علي بن أبي طالب، في مواجهة عمر وأبي بكر وعبيدة، أصحاب المؤامرة لنزع الحق من أهله. عليك بمناقشات السقيفة وأنت تعلم أين الحق.

ـ معك حق.

قال هشام:

ـ معك حق من الناحية التاريخية... ولكن الشيعة تقول بالعصمة. ولو تولى ابن أبي طالب الخلافة بعد النبي مباشرة، لجعلها وراثة، ولربط النبوة بالخلافة، والدين بالسياسة إلى أبد الآبدين، ولتحولت المسألة إلى وراثة مقدسة. ولعل هذا هو ما حدا بابن الخطاب والصديق وأبي عبيدة أن يقطعوا الطريق على مثل هذه المسألة.

ـ ولكن معاوية فعلها...

قال عارف:

ـ ألم يكن من الأفضل أن يأتي علي؟

ـ كلا.

قال هشام:

ـ لو أتى ابن أبي طالب، لتحولت إلى كاثوليكية... بطرس وكنيسته وسـيفيه... ولكن معاوية لا قدسية له. هل فهمت يا صاحبي؟ معاوية بعمله، رسخ مدنية الإسلام، ولكن لو استلمها علي، لرسخ كهنوتية الإسلام. بل كاثوليكيته... أيهما أفضل: حكم ملكي مدني يمكن معارضته، أم حكم ديني لا يمكن معارضته؟

ـ على أي حال...

قال عارف مغمغماً:

ـ أنا لا أحب نزار قباني... أعتقد أنه مجرد تاجر يتاجر بكل شيء. مرة يتاجر بالمرأة وأحاسيسها، ويبيعنا الجنس من وراء ذلك، ومرة يتاجر بالسياسة مثيراً الشجون. هل تقارن هذا التاجر ببحر العلوم؟ هل سجن

نزار ولو مرة واحدة في حياته من أجل قضية؟.. أما بحر العلوم فكان فراشه موجوداً دائماً في السجن، يخرج ولا يطويه، بل يعود إليه من جديد... يا عمي. ايش جاب لجاب.

ـ يا لك من كتلة متناقضات يا عارف.

ـ ماذا تعني؟

ـ لا شيء... لا شيء. المهم... كنت أريد أن أسألك سؤالاً قبل أن يجرنا بحر العلوم إلى شواطئه. ماذا تسمي استشهاد شخص مثل غيفارا، إن لم تكن المبادىء والمثل والتضحية والرموز هي من يقف وراء كل ذلك؟ رغم أني، وأصارحك القول، أشك أن امرأة تقف وراء ذلك، ولكنه مجرد شك...

وأرخى عارف ظهره على الجدار، ثم قال:

ـ أما غيفارا فلا غبار عليه، يكفي أنه كان شيوعياً. ولكنه كان طيباً وساذجاً وغبياً. مثلك ربما...

قال عارف وهو يضحك، فيما أحس هشام بزهو يفوق الوصف يجتاح جوانحه، عندما شبهه عارف، ولو من باب التندر والدعابة، بأرنستو تشي غيفارا:

ـ وهل الطيبة عيب يا عم عارف؟

ـ مع أناس هذا الزمان، نعم... لقد كان غيفارا طيباً ومحباً للناس، وكان يريد تحريرهم من الأغلال، ولكن ماذا حدث؟.. لقد تخلى عنه الجميع وهو الذي كان بمقدوره أن يتنعم بالثروة في بوينس ايرس، ويجني المال الوفير من مهنة الطب لو زاولها، وينكح ما طاب له من النساء.

ثم وهو يضحك:

ـ ولكن لو نكحت كل نساء الأرض، وبقيت واحدة في خاطرك، فإنك لم تنكح أحداً.

ـ ما تقوله شهادة له لا عليه.

ـ قلت لك إن غيفارا لا غبار عليه، ولكن العيب في الناس الذين كان يحبهم ويثـق بهم... وكان جزاؤه مثل جزاء سنمار...

ـ لا أرى علاقة هنا... ما علاقة سنمار بغيفارا؟

ـ أقول لك... هل تعلم يا صاحبي أن الفلاحين الذين كان غيفارا يضحي من أجلهـم، هم من أرشد الجيش البوليفي، والمخابرات الأميركية إلى مكانه ومكان رفاقه القلائل الذين بقوا معه؟

ـ أشك في ذلك.

ـ وهل تعلم أن فيدل كاسترو، الذي ما كان يحلم بانتصار ثورته لولا غيفارا، تعاون مع السلطات البوليفية من أجل إجهاض حركة غيفارا؟

ـ ولماذا يفعل ذلك؟

ـ السلطة يا صاحبي الغر، السلطة... حرب العصابات التي كان يبشر بها غيفارا، كانت تهدد استقرار سلطة كاسترو في كوبا. كانت تدفع الجميع للتكاتف ضد كوبا، وكاسترو يريد أن يطمئن الجميع بسلامة نواياه تجاههم... هل فهمت؟

ـ كل ما تقول يا عارف مجرد تأملات وانطباعات. ليس هناك من الحقائق ما يدعمها.

ـ لك أن تؤمن بما أقول أو لا تؤمن. ولكنها الحقيقة.

ـ الحقيقة... الكل يدعيها، والكل براء منها. رحم الله زكي مبارك ومريضته في العراق...

قال هشام بصوت هامس.

ـ ماذا قلت؟

ـ لا شيء. لا شيء... ولكن أليس كاسترو شيوعياً؟.. أين المبادىء إذن؟

ونخر عارف وهو يقول:

ـ مبادىء؟ السلطة والمال والجنس لا تعرف المبادىء يا صاحبي... لقد قتل ستالين تروتسكي وكل رفاق لينين من أجل السلطة، وقتل يزيد الحسين، وقتل أوديب أباه، وهم يدعون المبادىء. ولو كان تروتسكي هو القابض على السلطة، أو الحسين أو غيرهم، لفعلوا الشيء نفسه. إنها السلطة يا صديقي. إنه الفم والفلس والفرج... مع أنهم كلهم خرجوا ثواراً ومصلحين.

ـ ألا تعتقد أنك مبالغ يا أبا وحيد بما تقول؟.. رغم أن ما تقول يصب في شكوكي.

وأشاح عارف بوجهه بعيداً، وهو يحرك يده في الهواء بشدة ويقول:

ـ يا شيخ... بلا مبالغة بلا خرابيط. لم أعد أثق في أي شيء، أو أي أحد. مبالغة! السذج في نعيم.

وأخذ عارف يضحك من جديد. وصمت هشام، فقد كان كلام عارف يجد أرضاً خصبة في ذاته تتشربه بعطش شديد، ولكنه يحاول منع نفسه من الاقتناع به، ولكنه يجد نفسه مجبراً على ذلك. من يجبره؟ لا يدري، كل ما يدريه هو أنه لا يريد الاقتناع بما يقول عارف، ومع ذلك

هو مقتنع. وخطر على باله أولئك الناس في المقاهي، الذين رآهم وهو قادم إلى سجن الكراديب، وبرق في ذهنه ذانك الشابان اللذان مرا بجانب سيارة الجيب المسرعة. وحاول أن يقتع نفسه قبل أن يقنع عارف وهو يقول:

ـ قد يكون في كلامك بعض الصحة يا أبا وحيد، ولكن ليس تماماً. أعط الناس فرصة، وسوف تجدهم يفعلون الأعاجيب. عليك أن تكون أكثر ثقة بالمستقبل...

ـ وقهقه عارف بشدة، اخترقت إذن هشام فازداد ألمها، وكأنه يحس بكف جلجل عليها من جديد، فوضع كفه عليها لعله يبعد تلك الذبذبات المزعجة، ثم قال:

ـ وتقول أني كم من المتناقضات!؟.. أليس هذا هو المستقبل الذي رفضته قبل قليل؟

وعاد إلى القهقهة من جديد، ثم قال بحدة:

ـ المستقبل. المستقبل. دائماً المستقبل الذي لا يجيء، والتاريخ الذي لا نعيه، والله الذي لا نراه يقفون وراء كل شيء، ويبررون كل شيء... لقد سئمت يا صاحبي. أريد أن أخرج. أريد أن أعيش. هل هذا كثير؟.. عنز في أزقة الدمام تقتات من أوراق شجر البلدية أفضل مني. أريد فقط أن أقتات. هل تجد العنزة حقها ولا يجده الإنسان؟

ـ غريب كلامك يا أبا وحيد...

قال هشام وهو يحاول النهوض، ولكن وخز الإبر في قدميه منعه، فعاد إلى الاضطجاع وهو يتأوه، ثم يقول بصوت واهن:

ـ إنك تناقض نفسك بنفسك... أليست الحياة التي تطلبها هذه، هي حياة العامـة مـن الناس التي ترفضها؟ أليست هي حياة البحث عن فلس وفم وفرج؟ فأين الفاء الرابعة؟ أين الفكر؟..

ـ طز...

قال عارف وهو يضرط بفمه، في حركة سوقية جداً لم يعهدها هشام منه، ثم قال:

ـ نعم طز، أخرجني من هذا القبر واجعلني حيواناً إن شئت... أريد أن أكون عنزاً.

ـ أن تكون حيواناً شيء لا يطاق... هل تتخلى عن آدميتك لمجرد الخروج؟

وضرط عارف بلسانه مرة أخرى وهو يقول:

ـ بلا آدمية بلا خريان. ليتني كنت عنزاً منذ البدء. ليتني اهتممت بالفاءات الثلاثة فقط ونسيت الرابعة.

ـ غريب أنت يا عارف...

قال هشام:

ـ تقول بالشيوعية، وكل ذرة فيك فردية. تقول بماركس ولينين، ولا أرى فيك إلا سارتر وكامو. تنادي بالمستقبل وتبشر به، وأنت سجين اللحظة. تنكر الله وترفضه، وداخلك يناديه ويستغيث به. تحاول التبشير بالحتمية والمادية والجبرية، وكل ذرة فيك تعشق الحرية. حقيقة... لم أعد أفهمك يا صاحبي. هذا إن كنت فهمتك من البداية.

وابتسم عارف ببؤس ومرارة، وتقوقع على نفسه كما يفعل القنفذ

حين يحس بالخطر، وقال بصوت أشبه بهمس قادم من بعيد، وكأنه يحدث نفسه:

ـ حتى أنا لم أعد أعرف نفسي... وربما لم أكن أعرفها على الإطلاق. أجـد نفسـي غريباً عن نفسي. أحياناً يخطر إسمي على ذهني، فأردده بآلية تامة، حتى أصل إلى مرحلة لا أعلم فيها لمن يكون هذا الإسم. إنه ليس أنا. أنا لست عارف. أنا لست عارف، وعارف ليس أنا... ليس الإسم إلا قشرة خارجية، أما أنا الحقيقية فلست أدري عنها شيئاً. كل شيء حولي وفي عقلي أحس أنه ليس أنا ولا علاقة له بي، أو أنا به. إنه شيء لا ينتمي إليَّ... ولكن من أنا؟ أحياناً أصل إلى حافة الجنون عندما لا أدري من أنا.

ثم وهو يضحك باقتضاب، ورنة السخرية في صوته:

ـ تصور!؟.. أنا لا تعرف من أنا. أنا لا تعرف أنا.

ـ إنك تذكرني بطلاسم إيليا أبو ماضي، ورباعيات ابن الخيام، ولزوميات رهين المحبسين...

قال هشام ضاحكاً، فيما عارف لا يزال يحدث نفسه، غير ملتفت لتعليق هشام، ثم وهو يزفر بعمق:

ـ إن الحرمان من الحرية شيء شنيع. الموت أهون. الإنسان هو الحرية يا صاحبي، وغير ذلك هراء... نعم هراء.

ثم وهو يبتسم بمرارة:

ـ وتقول إني متناقض؟.. أنت المتناقض يا صاحبي. كلانا متناقض. أتدري يا عزيزي لماذا؟ لأننا نريد الحرية، والحرية هي التناقض. الحرية هي التناقض. هي الحق في أن تكون متناقضاً... الحرية هي أن تكون

قادراً على أن تقول «لا»، بغير ذلك، بغير ذلك. أنت عبد مهما ادعيت الحرية. حق التناقض هو أول الحقوق التي يجب أن تكون في ميثاق الأمم المتحدة.

وشدد على الجملة الأخيرة، ثم نظر إلى هشام باسماً، الذي خيل إليه أنه رأى دمعة تنساب من عينه البيضاء، فابتسم له بدوره، وما لبث عارف أن انطلق خارج الغرفة، فيما كان هشام يبتسم بمرارة، ثم لم يلبث أن انشغل بوخز قدميه، وطنين أذنه.

ـ ١٣ ـ

اجتمع رفاق الغرفة حول الجريدة المهترئة، وأخذوا يتناولون السباغتي المعجنة، وكل منهم في فلكه الخاص يدور. لم يجلس هشام معهم، فأتوه بطبقه، ولكنه لم يأكل منه شيئاً. طلب من أحدهم إشعال سيجارة له، فنهض يحيا وأشعلها، ثم عاد إلى طبقه يأكل بتلقائية. وأخذ هشام يمتص السيجارة بدون لذة، وهو غارق في آلام الجسد والنفس معاً. أما ألم الجسد، فسوف ينتهي يوماً ما، إما بالموت أو الخروج من هذا المكان، ولكن النفس... هذا العبء الثقيل، كيف يمكن الهرب منها؟ كيف يمكن للنفس أن تهرب من نفسها؟ هذا هو العبء الأكبر، بل هذا هو العذاب الأكبر. لقد قرأ عن اللاأدرية والعبثية والعدمية ضمن قراءاته الفلسفية الماضية، وكان يسخر من مثل هذه المذاهب. ولكنه لم يدرك أنها سوف تهاجمه في حلف غير مقدس لا يدري من أي اتجاه يجيء. لقد فقد لذة الإيمان المطلق. ذاك الإيمان الذي يملأ جنبات النفس بكل ما هو مريح ولذيذ، وحل محله خواء شنيع لا انفكاك منه.

وطافت في ذهنه مقولة ابن الخطاب: «اللهم إيمان كإيمان العجائز»، وأخذ يكررها في داخله. كان بوده لو كان الإيمان بالإرادة أو الخيار، ولكنه للأسف ليس كذلك. إنه شيء يأتي ويذهب دون إرادة أو رغبة... هكذا. وهنا أدرك المعنى الذي ذهب إليه الغزالي في «المنقذ من الضلال» و «تهافت الفلاسفة»، ذاك المعنى الذي لم يفهمه في حينه، بل وسخر منه. وخطر عدنان على باله... كيف استطاع أن يحصل على إيمان مطلق في بضع شهور؟.. هل كان يخدع نفسه، أو أنه أجبرها على ذلك دون إيمان فعلي، أم أن روح الإيمان حلت في جسده فعلاً دون تخطيط أو إرادة؟ ولماذا اختارت تلك الروح عدناناً، وتركته هو معذباً في هذا المكان الحقير؟.. ألكل ذلك حكمة مدبرة منذ الأزل، أم أنه العبث المتحكم إلى الأبد؟ إنه لا يدري، ويبدو أنه لن يدري. يريد الإيمان بأي شيء، ولكن فقد الحماسة لأي شيء. أين تلك الأيام الخوالي التي كان يرتعش فيها حماسة وإيماناً؟ لم يكن له إرادة لا في إيمانه آنذاك، ولا في شكه المطلق اليوم، ويقولون إن الإنسان كائن حر... خزعبلات ليس لها سند أو برهان. ما أتعسك أيها الإنسان، لما رضيت بحمل الأمانة التي رفضتها السموات والأرض؟ لقد تساوى لديه اليوم كل شيء. لا فرق بين موت وحياة. وكلما تعمق في دهاليز ذاته، تلمس ذلك الخواء والعماء المسيطرين على أعماقه... أتكون هذه هي جهنم دون أن ندري؟.. إنه يشعر برهبة شنيعة، وفراغ كامل يجعل نفسه تنطبق بقسوة على نفسه. ما زال يحاول أن يكون صوته مشبعاً بالثقة واليقين حين الحديث، ولكن ذلك لا يعبر حقيقة عما يجول في خاطره، وفي أعماق تلك البئر العميقة الخاوية من كل أثر للماء التي هي ذاته. ما زال صوته قوياً وواثقاً، ولكن ليس لأنه كذلك، ولكن لأنه قادم من

أعماق بئر خاوية أو مغارة شعواء. مجرد صدى لا حقيقة له. وأخذت كلمات عارف الأخيرة ترن في رأسه... ألا ليتني كنت حيواناً، أو عنزاً طليقة في أزقة الدمام. بل يا ليتني لم أخرج من العدم، لأرحت واسترحت من معضلة الوجود وعناء الحياة، وهذا العبث الذي يلعب بنا... ولكن. أهو عبث أم قدر؟ فقد يكون العبث قدراً، وقد يكون القدر عبثاً، وقد لا يكون هذا ولا ذاك. لا أدري... لا أدري... واغمض عينيه وهذه الكلمات ترن في رأسه، رنين ناقوس مشروخ في دير مهجور.

- ١٤ -

استفاق على أشعة الشمس المائلة إلى الغروب... أشعة سعيدة، لا تعترف بالقضبان، ولا تقيدها الحدود. كان عارف يحك بعض نوى الزيتون بقسوة على إحدى البلاطات المهترئة. وكان علي وعبد الغني يثرثران ويضحكان، فيما كان يحيا مستلقياً على فراشه يدخن، وهو يتابعهما بعينيه. كانت أشعة الشمس البرتقالية في غاية اللذة، لا يساويها إلا لذة الحرية ذاتها. والشمس في غاية الجمال، كأنها تجسد لجمال الله ذاته، أو انعكاس لجمال أمه. أخذ ينظر إلى تلك الشمس المنتحرة وهو في غاية العجب. كيف يموت من كان قوياً؟.. وطاف بذهنه عماد حمدي وفاتن حمامة والأطلال... غريب أمر هذا الفيلم. لم يره إلا مرة واحدة عندما كان في العاشرة من العمر، ولكنه لا يبرح خياله. اذكريني عندما تغرب الشمس. لا ريب أن أمه تذكره عند الغروب والشروق، وفي ظهيرة كل يوم... اذكريني. لا بد أنه يطوف بخيال

نورة حتماً، ويتراءى لسارة قطعاً، وربما افتقدته رقية، وخافت عليه موضي... ولكنه نسي نفسه اليوم. فلا هو ميت فينسى، ولا حي فيرجى... رحماك يا رب العباد، إن كان للعباد رب يحميهم... ولِمَ لا؟ إن كان للبيت رب يحميه، فلا بد أن للإنسان رباً يحميه أيضاً. فالبيت وضع للناس، ولم يوضع الناس للبيت. انتحار الشمس... يوم مات ويوم يولد من جديد من قلب الظلام والعدم. والتحقيق من وراء ذلك. وأحس بانقباض المعدة... دائماً المستقبل في أحشاء الماضي. ودائماً لا بد أن يكون المستقبل مشرقاً، إلا هنا... الأمل مفقود... ليس إلا التحقيق والعقيد وجلجل وعوض. إني أكره المستقبل... دعوني في الماضي... ولكن ما بالأماني تستجاب الدعوات. كان المنظر أخاذاً للغاية. زهرة حمراء دامية، ربما من زهور ماوتسي تونغ المائة، تحتل كبد السماء وتعلن بسرور عن أن مهمتها في هذه الدنيا قد انتهت، وأنها في طريقها إلى الزوال. إلى الغروب في بحر ظلمات ذي القرنين والخضر أبي العباس... ومع ذلك هي تبتسم، وتتورد خدودها تورد مراهقة غازلها شاب في زقاق من أزقة الحسين. أليس عجيباً أن يكون الخفر والحياء والجمال جزءاً من الموت والفناء؟.. هل للموت لذة؟ لم يجرب... ولكن ربما! ألم يقل الرسول إن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا... وورد على ذهنه المعذب كافكا. هل هو حشرة تحلم أنها إنسان، أم إنسان يحلم أنه حشرة!! هل هو سجين يحلم أنه حر، أم هو حر يحلم أنه سجين؟ لا يدري... ألا ليتني كنت عنزة في أزقة الدمام. سامحك الله يا ابن الطين. هل كان من الضروري أن تأكل من تلك الشجرة المحرمة، وتبحث عن نبع الخلود، وتغضب رب الخلق والناس أجمعين؟ أكل هذا جزء من قدر إلهي، أم هو عبث شيطاني، أم هي

حكمة لا ندريها، مختبئة في عباءة قدر عابث، أو عبث قادر؟ لا أحد يدري، فالله والشيطان واحد هنا، وكلاهما وجهان لعملة واحدة... الصورة وعكسها، ولكن الكائن واحد. الحياة كلها سؤال بلا جواب.

وعاد إلى سجن المكان والذات. حاول أن يستمتع بأشعة الشمس الغاربة، ولكنه خائف من شيء ما... الخوف!.. هذا الهلامي الأسود. موت الشمس يعني حلول الظلام. وحلول الظلام يعني العقيد وجلجل. إنه خائف... سعادة الشمس الغاربة تعني بداية الألم. تمنى لو كان بإمكانه اغتيال سعادة الشمس، ووأد فرحتها بنهايتها. آه لو كان يوشع بن نون وأوقف الشمس عند حدها. ولكنه ليس من بني إسرائيل. ليس من آلاف أنبيائهم. ويهواه لا يستجيب إلا لبني إسرائيل. اجعلوني من شعب الله المختار، وأنا أبصق على الهاعولام هازيه... وهو ليس أميركياً كي يتوقف سوبرمان أو الحسناء الجبارة لإيقاف الشمس وإنقاذه... ليس من بني إسرائيل، وليس من بني سام وليس من جنس هتلر الآري. إذن... فقد حلت عليه اللعنة. ليس إلا إنسان في مهب ريح القدر والعبث. ريح الوجود والعدم. ريشة في مهب أعاصير غير قادرة على الاحتجاج. رحماك يا رب الكون... لماذا خلقت حام طالما أن سام هو الحبيب؟ ولماذا فضلت سام وصببت اللعنة على حام؟ ما ذنبه إذا سكر نوح، وزنت بنات لوط مع أبيهم، في كتاب يقولون انه كلماتك وارادتك؟

واستسلم لحلم يقظة جميل... تصور نفسه من بني إسرائيل أو سام، وود لو كان أسيره إلى الأبد. تصور أنه يوشع نفسه، أو سوبرمان ذاته. قادر على إيقاف الزمن ذاته. لا شيخوخة ولا موت ولا ألم ولا... تحقيق. تصور أنه الله ذاته... ولِمَ لا... ما فرقه عن الحلاج والسهروردي وابن العربي؟ نحن الله والله نحن... كانت تلك رسالة

موسى والمسيح ومحمد، ولكن أكثر الناس لا يدركون، فجعلوه ابن الله. إنه ذات الله الآن، فماذا يفعل؟ هل يجعل الكون أكثر راحة، وينشر السعادة بين البشر؟ ولكن... ما هي السعادة؟! سعادة سقراط أم أفلاطون أم أرسطو أم ديوجين أم أبقور أم زينون أم كونفيشيوس أم بوذا، أم وأم، وأم... جملة أمات لا نهاية لها. كالحياة ذاتها. ثم لو نشر السعادة وقضى على الألم، فهل يكون للسعادة معنى؟ السعادة نقيض الشقاء أو نقيض الألم، فكيف يمكن إدراك السعادة إذا اختفى الألم؟ حتى الجنة بدت له عديمة اللذة في تلك اللحظة، كما بدت جهنم عديمة الألم. الخمرة لا تسكر ذاتها، والجمرة لا تحرق نفسها... البراز لا يتأذى من رائحة نفسه، والفل لا يستمتع بريح ذاته. لا بد من البراز لاكتشاف لذة الفلة، ولا بد من الفلة لاكتشاف قذارة البراز. ولذلك كان هناك جنة ونار معاً، الله وشيطان، نبي وفرعون، وكل في قدَر يسبحون... تحقيق السعادة وحدها، يعني توحيد الألوان. وعندما تتوحد الألوان، تختفي... المعنى في الاختلاف، والعماء في التجانس. مشكلة... وجود الحياة بشكلها الحالي مشكلة... وجعلها أجمل وأحلى وأعدل مشكلة. لِمَ لا تكون ذات الحياة هي المشكلة؟ لو كان ذات الله، لألغى الحياة ذاتها. لألغى هذه المسرحية المملة، وصرف ممثليها وألغى تلك الأدوار المقررة المعروفة. لا حرية مع الوجود، فكل الحرية في العدم...

وأحس بقشعريرة قاسية، جعلت مسام جسده تبرز إلى الخارج وكأنه يعاني من موجة برد عاتية، وهو يذكر العدم، ويذكر ذلك الحلم البعيد القريب. فالجسد يكره العدم، رغم علمه أنه هو المآل... ولكن الروح. هذا الشيء الذي لا يصدق، ولكنه يفرض نفسه فرضاً. الروح

تريد ذاك العدم، فمن أدراك أن العدم هو عدم؟..

وطاف المعرّي وفخته في ذهنه... شرق قديم، وغريب جديد... ولكنه بقي أسير الروح. بين جسد مشروع، وروح لا تصدق، يبدأ الصراع... يتصارع الرحمن والشيطان، النعيم والجحيم، الخلود والفناء في ذات واحدة. وبدأ يحس بانقباض شنيع يخنقه، وكآبة قابضة تستولي على كل ذرة حية في جسده. أحس أنه مجرد زجاجة خمر فارغة، ملقاة على مزبلة قرية لا يدري أين تقع. بل أحس أنه تلك العلبة التي قام أستاذ الفيزياء بتفريغها من الهواء في معمل المدرسة... رباه. لقد بدأ ينسى... أستاذ الفيزياء؟ الأستاذ حقي لا يتذكره!؟ تباً لعوض... عوض لا... تباً للعقيد وجلجل. وأحس باللامعنى والخواء يدوران حول المكان ويضحكان. لقد أدرك في ومضة من لحظة، لماذا ينتحر المنتحرون، ولماذا يتصوف المتصوفون، ولماذا يتسكع المتسكعون، ويتصعلك المتصعلكون ويتزندق المتزندقون... إنه التمرد أو الخضوع، الله أو الشيطان، لسيناريو مسرحية معروفة. لقد فهموا اللعبة... لعبة الوجود، ومسرحية الحياة. وأدرك لماذا تحرم الأديان الانتحار... إنها مقص الرقيب على السيناريو. فلو انتحر الجميع، لفسدت المسرحية، وصاحب المسرحية لا يريدها أن تفسد. وأحس بالرعشة تعتريه من جديد، ونظر إلى الظلام المتسلل، وشعر بالرهبة... وصوت بعيد يسمعه بوضوح يرن في أعماق رأسه: «أنا من ضيع في الأوهام عمره، نسي التاريخ أو أنسي ذكره»... لله در من نظمها وأنشدها وغناها. وفجأة أحس بالغثيان... كل شيء قد تكالب عليه. تحامل على نفسه، ونهض وهو يحاول السير على أعقاب قدميه، رافضاً مساعدة علي وعارف، واتجه إلى الحمام. أراد الاستفراغ، ولم يخرج شيء. أدخل

اصبعه في حلقه بقوة، فخرجت بعض العصارات الصفراء والخضراء، وأشياء كالمخاط. أخذ يعب الماء المائل إلى الملوحة، وهو يشعر ببعض الانتعاش، وصوت يأتيه من النافذة، الصوت نفسه الذي سمعه في الخبر، وهو يغني بانكسار واضح:

يـــا لايــمـــي صـــدهـــا مـــا هـــوب
رمـــح تـــلـــقـــاه بـــجـــنـــوبـــي
صـــبـــري لـــبـــلـــواي مـــثـــل أيـــوب
وأحـــزانـــي أحـــزان يـــعـــقـــوب
فـــإن كـــان يـــحـــســـب عـــلـــي ذنـــوب
بـــوصـــال غـــيـــره فـــأنـــا أتـــوب
وإن قـــال شـــيـــخ فـــأنـــا مـــحـــســـوب
عـــبـــد لـــعـــيـــنـــاتـــهـــا نـــوبـــي
الـــطـــالـــب أرهـــى مـــن الـــمـــطـــلـــوب
ومـــغـــالـــب الـــلـــه مـــغـــلـــوبـــي

عندما عاد إلى الغرفة، كان الزملاء يعدون العدة لاستقبال طعام العشاء. وأحس بالعبث يحتويه مرة أخرى، والخواء يحيط بالمكان، ويجثم على صدر الزمان... إفطار وغداء وعشاء... ثم ماذا؟ نجري وراء اللقمة، واللقمة تأسرنا. حتى ما؟.. تحقيق وضرب وألم واعتراف... ثم ماذا؟ آه من ماذا هذه. هل هذه هي الحياة؟.. لم يكن يشعر برغبة في الطعام، ولكنه يجب أن يأكل. تناول تفاحة من بقايا الغداء، وخيال أبيه آدم يطوف بخياله، وأخذ يقضمها بروتينية وآلية

دقيقة. وجاء الشاي... أشعل سيجارة، وأخذ يشرب الشاي، ويدخن دون لذة. مجرد سوائل تتوغل، وأدخنة تتسرب، ولكن دون لذة. لا يدري لماذا أحس فجأة أنه صخرة مجهولة، ملقاة في صحراء مجهولة... كتلك الحلقة التي تحدث عنها ابن عباس الملقاة في فلاة، حين كان يتحدث عن الله. هل يعقل؟ أنحن الله؟ كلام فارغ... فارغ والا مليان، لقد سئمت، هذا هو أنا الآن. وبدأ الليل يحكم قبضته، وأطياف العقيد وجلجل تطوف بالمكان... إنها الحادية عشرة. لم يبق على يوم الحساب إلا ساعة واحدة... لكم يود أن يعرف ماذا يفعل العقيد وجلجل في هذه اللحظة. ربما يكونان في أحد مقاهي حوض البقر في مكة، حيث ألذ جراك يمكن تناوله. بل لعلهما في شارع قابل يستعرضان أعجاز النساء. ونساء الحجاز لسن ككل النساء. كلا... لا يعقل ذلك... لا ريب أنهما في أحد شاليهات أبحر، فمثلهما لا يمكن أن يكون في قابل أو حوض البقر. ولِمَ لا؟.. جلجل بقرة بذاته. بل هو خنزير. المهم... الله يسعدهم ويبعدهم. وأخذه الخوف كل مأخذ. إنها تقترب من الثانية عشرة... وحاول أن ينسى الوجود من حوله، فنظر إلى عارف الذي كان يحاول النوم قائلاً:

ـ عارف. عارف. أبو وحيد، هل نمت؟

ـ لا. خير. أي خدمة؟

ـ لماذا نأكل يا عارف؟

وضحك عارف بعنف، ثم وهو يزيح البطانية من حوله، ويرخي أطراف الغترة التي يلف بها رأسه:

ـ ألهذا أيقظتني... يا لك من بورجوازي متحذلق.

ثم وهو يلف الغترة حول رأسه:

ـ نأكل كي نعيش يا سيد سقراط.

ـ ولماذا نعيش يا سيد ماركس؟

وبهت عارف للحظات، ثم قال:

ـ لأننا يجب أن نعيش...

ـ ومن أوجب ذلك. من أوجب ما هو واجب؟

ـ لا أدري، هو وجوب وكفى.

ثم بعد لحظات من التردد:

ـ نعيش كي نحقق ما نؤمن به.

وضحك هشام باقتضاب وهو يقول:

ـ وإن لم نكن نؤمن بشيء، كلا... كلا يا صاحبي. أريد جواباً غير هذا. جواباً يأتي من أعماقك، لا مما يجب أو لا يجب.

ثم بعد صمت قصير:

ـ ولنفرض أن ما تقوله صحيح، رغم اقتناعي أن المتحدث هنا هو عارف الشيوعي، وليس عارف الإنسان. لنفرض أن ما تقوله صحيح، لماذا نحقق ما نؤمن به؟

وبسرعة أجاب عارف:

ـ كي نحقق عالماً جديداً. عالماً أفضل...

ثم مستدركاً:

ـ ونحقق ذواتنا في الوقت نفسه.

ـ ولماذا نحقق عالماً أفضل؟

ـ كي نعيش أفضل.

ـ ولماذا نعيش من الأساس؟.. ها قد عدنا إلى بداية الأمر.

قال هشام وهو يزفر بشدة. وصمت عارف، ونهض من رقدته، ثم قال بضيق ظاهر:

ـ ما هذا؟.. أهو تحقيق أم ماذا؟ ألا يكفي العقيد وجلجل؟

وضحك عارف باقتضاب، ثم قال:

ـ إذا كنت تعرف الجواب، فقل لي أيها الإمام المعصوم. دعك من سقراطياتك وأفلاطونياتك... هل تريد أن تؤلف جمهورية أخرى؟

وضحك عارف بصوت مرتفع، ثم وضع كفه على فمه كاتماً الضحكة وهو يتلفت يميناً ويساراً، فيما هشام يقول:

ـ لو كنت أعرف جواباً لما سألتك. يبدو أنه قد كتب علينا ألا نعرف شيئاً بالرغم مما نعرف.

وتوقف عارف عن الضحك، ثم قال:

ـ وأنا أيضاً لا أعرف جواباً يرضيك... ثم...

وعاد إلى الضحك قبل أن يكمل:

ـ ثم، ليش أنت مغلب نفسك؟ لِمَ لا تعيش وكفى!..

ـ ليتني أستطيع ذلك. هل نسيت كلامك السابق؟

وبعد أن اعتدل في جلسته قال:

ـ حتى لو استطعنا أن نعيش وبس، تصبح الحياة بغير معنى. أليس كذلك؟

وبعد تردد قصير، قال عارف:

ـ ليكن ذلك... المهم أن نعيش وبس.

ـ ولماذا إذن الاستمرار في هذه الروتينية القاتلة؟.. لماذا الاستمرار في مسرحية لا معنى لها ولا هدف؟

وضحك عارف وهو يقول:

ـ ألم تسمع عن مسرح الضحك للضحك، ومذهب الفن للفن؟ لِـمَ لا يكـون العيـش للعيش أيضاً؟

ثم وهو ينظر إلى هشام بعينه الوحيدة بحدة:

ـ أنت خبيث يا هشام... ألأجل أني تبسطت معك في الحديث، وحدثتك عن الانتحـار، تريد أن تلجمني بذلك؟ لقد قلت لك إني كنت أفلسف الانتحار، ولا أؤمن به.

وبصوت مليء بالأسى، قال هشام:

ـ صدقني يا عارف... كل ما أريد هو التنفيس ليس إلا... أريد أجوبة مريحة قادمـة من داخلي، لا من خارجي. أجوبة لا دخل لها ببعث أو شيوعية أو أي شيء ليس أنا... دع هذه الأشياء للعقيد وجلجل يحققان فيها، أما أنا... أما أنا، فأريد جواباً يريحني. هذا إن كان هناك جواب، وإلا فهو الضياع.

قال هشام ذلك، وهو يحس بألم شنيع في الحلق، جعل حنجرته وكأنها جلمود صخر يقف هناك. وتنفس عارف بقوة، ثم زفر بشدة وهو يقول:

ـ لنقل أننا نعيش بحكم العادة... لأننا ولدنا ويجب أن نعيش.

وأرجوك، دعنا من هذا الجدل الذي لا طائل من ورائه.

وصمت الإثنان لفترة، ثم قال هشام وهو يبتسم في الظلام المحيط:

ـ في الجدل نحن نقتل الوقت على الأقل، بدل أن يقتلنا.

ثم وهو يلتفت إلى عارف:

ـ نحن نتسلى يا صاحبي ليس إلا...

وساد الصمت من جديد، ولكن داخل الاثنين كان يغلي ويفور، كما الفرن أو التنور.

وقطع هشام الصمت قائلاً:

ـ حقيقة يا عارف... ما هو الحل لمسرحية الحياة هذه؟

ثم وهو يهز سبابته في الظلام:

ـ أريد جواب عارف، وليس ما قاله ماركس أو سارتر أو غيرهما... أرجوك أريد جواباً، ولا تصدع رأسي بالمثل والمبادىء. أريد جواباً يعبر عني، وليس فكرة أعبر عنها.

وشبك عارف كفيه وراء رأسه، وأغمض عينيه لبرهة، ثم قال:

ـ لا أدري يا صاحبي... لا أدري... لعله الموت اختياراً هو الجواب الذي تبحث عنه. لعل في الموت يكمن سر الحياة والخلاص.

ـ ولكن هذا ليس اختياراً...

قال هشام:

ـ فطالما أن الحياة بلا معنى، فكذلك الموت. الاختيار هو بين سـيء وجيد. وهنـا لا وجود للسيء والجيد... الموت والحياة وجهان لقطعة نقد واحدة هي الوجود. العدم هو صورة الوجود. وإذا

كان الوجود بلا معنى، فلا معنى لأي شيء.

ـ وما الحل في رأيك يا حكيم هذا الزمان؟..

ـ لا أدري... ليس عندي من جواب إلا لا أدري.

ـ إذن دعني أعيش بهدوء ولا تحاول زعزعة قناعاتي.

قال عارف بصوت خافت، فيما ضحك هشام وهو يقول ساخراً:

ـ وأين هي هذه القناعات... لقد اكتشفنا أنها قِناعات.

وتوقف هشام عن الضحك والحديث، إذ أحس بوخزة ألم في قدمه، وطنين مزعج في أذنه. وتوقف الألم فجأة كما بدأ فجأة، فقال:

ـ يا لك من منافق يا عارف. ألم أقل لك أني لا أفهمك. بل إني أفهمك... أنت مجرد هارب من ذاتك، ولكنك لا تريد الاعتراف بذلك. اعترف وأرح نفسك.

وضحك عارف وهو يقول:

ـ والله ما ندري نعترف لمين والا لمين... على أية حال قد تكون محقاً في ما تقول.

ثم وهو يعبث بشاربه الضخم:

ـ وقد تكون مهذاراً ومتحذلقاً... ولكن بالله عليك دعني وشأني. أرجوك لا تقتلني. دعني لقناعاتي، أو أقنعتي مهما كانت، ففيها طعم الحياة. سمه هروباً كما تشاء، ولكن مالك ومالي يا أخي!.. دعني هارباً كما أشاء. لقد بدأت أشعر بالخوف من حديثك. وجود، عدم، هروب... خرابيط كثيرة... خلنا ننام يا شيخ.

وألقى عارف بنفسه على الفراش، غطى جميع جسده بالبطانية، وساد

الصمت والسكون. أخذ هشام ينظر إلى النجوم في تلك الليلة الصافية، ويستأنس بأشعتها الفضية الباردة وهي تأتي من بعيد. ربما كان هناك أناس ينظرون إليها كما ينظر إليها الآن... ربما كان هناك أحدهم يستأنس بنور الكواكب كما يستأنس هو الآن بنورها. كل شيء هادىء وساكن لا يعكر صفوه إلا خطوات الحارس وهو يذهب ويجيء. دقت الساعة تمام الواحدة بعد منتصف الليل، وازدادت دقات قلبه، وأحس بكل رهبة العالم ووحشته قد تجمعت في تجاويف عظامه. وأطل عليه الحارس، ونظر إليه سريعاً وهو جالس يفكر، ثم عاد إلى الذهاب والمجيء وهو يردد أبياتاً شعبية بصوت كان يسمعه هشام بوضوح، وكأنه موجه إليه:

من عاش بالدنيا يشوف العباير
بالحال يقذف حلوها مع مرارة
أعرف ترى ما قدر الله صاير
بدنياك يكفي عن طوالة قصارة
بالك تصاحب من يبوق السراير
يودع إذا اقفيت جلدك سيارة

ومن بعيد، هُيء إليه أنه يسمع صوت أسمهان وهي تغني: «أنا اللي استاهل كل اللي يجري لي، الغالي بعته رخيص ولا احسبوش غالي». وأحس بالوحشة تشدد قبضتها على خناقه، فلم يحتمل، ونظر إلى عارف المنطرح وهو يقول:

ـ عارف. عارف. هل نمت؟..

كلا...

أجاب عارف وهو ينخر:

ـ هل أتتك خواطر جديدة. أرجوك. دعها لنفسك، ترى اللي فيني مكفيني.

ـ يا لك من ثقيل الظل. تسأل السؤال وتجيب عنه. أريد أن أتحدث...

ونهض عارف، واعتدل في جلسته، وهو ينظر إلى هشام بعين كان واضحاً أنها لم تذق طعم النوم:

ـ يا لها من ليلة مش فايتة. حسناً... إلينا بعبثياتك.

وضحك بهدوء، فيما كان هشام يقول بصوت كأنه قادم من بعيد:

ـ هل تؤمن بالله يا عارف؟

ـ هل أنت أبله أم ماذا؟.. وكما يقول المصريون، أنت عبيط ولا بتستعبط والا شكلك كده؟.. أنا شيوعي... هل رأيت شيوعياً يصلي؟

ـ يفعلونها في السودان.

قال هشام وهو يضحك، ثم يواصل:

ـ وسبق أن قلت لك أريد جواب عارف، لا جواب ماركس أو غيره. أريد ما تشعر به في أعماقك، وليس ما أقنعت نفسك به. الفلسفة الحقيقية هي السلوك العفوي، والشعور الفطري المدفون تحت ركام المكتسبات الخارجية.

ـ أحس من كلامك أنك تريد إدخال الهر فرويد في الموضوع.

ـ ولا هر ولا قط... أريد ما في أعماقك فقط.

وسرح عارف، وغاب في صمته، فأحس هشام أن الزمن يحاصره،

والسكون يتلمس طريقه إليه، فقال بسرعة:

ـ عارف... أما زلت معي.

ـ نعم. نعم.

أجاب عارف بسرعة وذهول واضحين، كمن أيقظوه من نومه بغتة:

ـ لم تقل لي... هل تؤمن بالله؟

قال هشام وهو يتحرق لإشعال سيجارة، ولكنه لا يستطيع. وجاء صوت عارف وكأنه مذنب يعترف أمام كاهن كاثوليكي:

ـ الحقيقة... الحقيقة أنه لم يسبق لي التفكير بمثل هذه المسألة، فقد كانت الماركسية تشبعني تماماً. تعطيني جواب أي تساؤل يخطر على ذهني.

ـ وكذلك يفعل الدين... ما الفرق إذن، ألا يفترض التناقض في الاثنين؟

ـ فرق شاسع يا صاحبي. هذا ميتافيزيقي، وذاك علمي.

ـ ولكن الأجوبة مطلقة؟.. وهذا شيء غير علمي.

ـ الماركسية هي فلسفة العلم والحياة.

ـ وكذلك الدين.

ـ ولكنه ماورائي...

ـ والماركسية حين تفكر فيها ماورائية أيضاً... ما الفرق بين الله في الديـن وقـوى الإنتاج، أو الجدلية الماركسية. كلها أمور لا ترى.

ـ فرق في المضمون.

ـ ولكن السلوك واحد... أليس كذلك؟

وصمت عارف لبرهة، ثم نخر بضحكة مكتومة وهو يقول:

ـ على أية حال، المسألة محسومة بالنسبة لي. لقد حسمها جان بول سارتر. هل تعلم ماذا قال؟..

ـ ذكرني.

لم يكن هشام يعلم ماذا قال سارتر، ولكنه لم يرد أن يعترف بجهله.

ـ كان سارتر يقول إن مسألة الله لا تهمه... فإن لم يكن موجوداً، فلا داعي للنقاش والجدل. وإن كان موجوداً وهو راض عما يجري في هذا العالم من ظلم ومآس، فهو إله لا يستحق الاعتراف به. وبالتالي فالمسألة لا تستحق النقاش على أي وجه قلبتها.

وضحك هشام باقتضاب وهو يقول:

ـ لقد ذكرتني بنكتة فضائل الجندية... هل تعرفها؟

ـ كلا... اتحفنا بها، فلعلها تنسينا ما نحن فيه. أو على الأقل تبعد فذلكاتك عنا.

ـ يقال يا سيدي الفاضل إن أحدهم سأل آخراً أيام الحرب: «لِمَ لا تتطوع في الجيش؟». فقال الآخر: «لِمَ أتطوع!.. ألكي أموت!؟». قال الأول: «لا. ولكن للوصول إلى فضائل الجندية. نيرفانا الموت والحروب...». فقال الآخر: «وما هي فضائل الجندية هذه؟». قال الأول: «عندما تتطوع في الجيش، فإما أن تترقى، وإما أن تموت. فإذا ترقيت، لا مشكلة في ذلك. وإذا مت، فإما أن تحرق أو تدفن. فإذا حرقت، لا مشكلة. وإذا دفنت، فإما أن تذهب إلى الجنة أو النار، وإما أن يتفتت جسدك. فإذا ذهبت إلى الجنة أو النار، لا مشكلة. وإذا تفتت، فإما أن يجرفك تيار النهر، وإما أن تمتصك شجرة. فإذا جرفك

التيار، لا مشكلة. وإذا امتصتك شجرة، فواحد من إثنين: إما أن تقطع الشجرة، وإما أن تبقى كما هي. فإن بقيت كما هي، لا مشكلة، وإن قطعت، فواحد من إثنين: إما أن يصنع منها أثاث، وإما أن تذهب إلى مصانع الورق. فإذا صنع منها أثاث، لا مشكلة. وإن ذهبت إلى مصانع الورق، فواحد من اثنين: إما أن تتحول إلى دفاتر وكتب، وإما أن تتحول إلى ورق تواليت. فإذا تحولت إلى دفاتر وكتب، لا مشكلة. وإذا تحولت إلى ورق تواليت، فواحد من اثنين: إما أن يُمسح بها مؤخرة رجل أو امرأة. فإذا مسح بها رجل، فلا مشكلة. وإذا مسحت بها امرأة، فتلك هي فضيلة الجندية...

وضحك عارف، وهو يحاول كتم ضحكته ويقول:

ـ لم أكن أعلم أنك تجيد إلقاء النكات.

فضحك هشام بدوره وهو يقول:

ـ ومن البلية ما يضحك.

واستمر الاثنان في ضحك مكتوم، حتى قال هشام:

ـ ولكنك لم تجب عن سؤالي يا صاحبي!..

وساد الصمت، بعد أن غرقت الضحكات، ثم قال عارف:

ـ الحقيقة أني أجد نفسي مدفوعاً بعض الأحيان إلى أحضان ما. إلى قوة خفية لا أراها ولا أحسها، ولكني أبحث عنها في أعماقي عندما تلم بي الآلام والمصاعب. أبحث عن أب شيء ألقي إليه بمتاعبي وآلامي ومصاعبي وأرتاح.

ثم بعد صمت قصير:

ـ لعله البحث عن الوالد في أعماقنا هو الذي يدفعنا إلى البحث عن

شـيء خارجنـا نلقي إليه بمصاعبنا! . نعم. البحث عن الوالد هو الذي يدفعنا إلى أحضان الوهم.

ـ أرى أنك أنت من لجأ الآن إلى الهر فرويد! . . وعلى أية حال، لماذا تسميه وهماً؟

ـ وماذا تسميه إذن؟ . . هل نسيت ما قاله سارتر؟

ـ وهل سارتر يعلم كل شيء؟ . . إنه وهم رغم وجوده.

ونخر عارف، فيما واصل هشام قائلاً:

ـ لِمَ لا يكون هذا النازع الذي تتحدث عنه جزءاً من طبيعة الإنسان فيك؟ . . جزءاً يسعى إلى أصله ومنشأه عند لحظة الخطر، كما يفعل الطفل وهو يلعب بعيداً عن والديه، ويداهمه خطر مفاجىء.

ـ وهل نحن أطفال؟!

ـ لِمَ لا . . . بل ربما يتامى في هذا الكون!!

قال هشام بتأكيد عجيب، رغم أنه يرتجف في داخله باحثاً عن جواب، فقال عارف:

ـ لِمَ لا يكون هذا النازع أو الإحساس مجرد مظهر خارجي؟

ـ لا شيء يأتي من لا شيء.

قال هشام:

ـ لا بد لهذا الإحساس من مصدر، كما أن وجودنا وعقلنا لا بد له من مصدر. بغير ذلك، فنحن الآلهة.

ـ لِمَ لا نكون مجرد تراكمات مختزنة في الوعي الفردي والجماعي، وهي التي تعطينا الإحساس بحقيقة ما نعتقد أنه وهم. العلم حل كل المعضلات.

وضحك هشام ساخراً وهو يقول:

ـ ألم أقل لك إنك منافق دون أن تدري يا أبا وحيد . . . ولعلك تدري! لا يهم. فقد أصبح النفاق جزءاً من شخصيتنا. ها أنت تلجأ إلى فرويد وتلميذه العاق يونغ. وتترك عزيزنا ماركس، وصاحبنا انجلس، ولينين الصادق. اللجوء إلى الوالد، وما نكبته في أعماقنا . . . أي ميتافيزيقا أبعد غوراً من ذلك؟ العلم والماورائيات! . . هل هناك فاصل يا صاحبي؟ . . العلم ذاته يقوم على فرضيات ميتافيزيقية. على ماورائيات . . . ألم تقرأ هيوم وبركلي وكانط؟

والتقط هشام بعضاً من أنفاسه، ثم قال وكأنه يرد على نفسه:

ـ نحن لا نستطيع العيش بغير الميتافيزيقا والماورائيات يا عزيزي. من أنـا؟ . . لا أدري. من أنت؟ . . لا أدري. سر الحياة هو العيش بغير جواب. لغز الحياة هو أننا لا نعرف الجواب.

وساد الصمت، فيما كانت الساعة تعلن تمام الثانية، ولا رسول من العقيد يبدو في الأفق. راحة ما بعدها راحة، ولكن العقيد وجلجل يلعبان بالأعصاب . . . واستمر الزمن في سريانه، وحل الخوف والقلق محل كل تساؤل . . . أين الله في هذا المكان؟ إن لم يكن موجوداً، فيجب أن يوجد. وإن كان موجوداً، فأين هو؟ إنه يريد الله بأي شكل من الأشكال. كل ذرة في أعماقه تناديه. كل شيء ساكن، والصمت يلف المكان، والرياح تزأر في الخارج. خطوات الحارس تؤنس وحشة المكان وهو يذهب ويجيء ويدندن: «هلا . . . يابو شعر ثاير . . .»، إنه يبحث عن الإثارة بدوره. هو سجين بقدر ما هو سجان. بل كلهم سجناء طالما يسجنون الكل، فالسجان سجين بدوره وإن لم يكن يدري. أراد أن يتحدث مع عارف، ولكنه فقد الرغبة في الحديث. الله،

الحتمية، الجبرية، العلم... كلها أشياء يتعلق بقشة منها. يريد الخروج، فمن يوفر له ذلك، فهو الله... وأعلنت الساعة تمام الثالثة بعد منتصف الليل، وتغير الحارس. لم يستدعه أحد، وأخذ الحارس الجديد يترنم: «على العقيق اجتمعنا...». كان يغالب النوم، ولكن الليل طويل. هل فعلها الله وتدخل؟ وتناول المصحف، وأخذ يقرأ: ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**﴾.. واستغرق في القراءة، حتى أعاده صوت الحارس وهو يقف عند الباب قائلاً: «هيا... نام يا مسجون، ممنوع الاستيقاظ حتى الآن...» فاندس تحت البطانية، وغطى وجهه بالكامل، وكل جزء فيه يرتجف، فيما علا شخير عارف، وصوت الحارس يأتي من بعيد وهو يقول: «من ترك الله تركه... ما تعرفون الله إلا بالشدة». واستمر الوقت في السريان، وصوت الحارس يصل إليه وهو يترنم بصوت: «يا من هواه أعزه وأذلني، كيف السبيل إلى وصالك دلني...»، فيما كانت عيناه قد أخذتا في الإغفاء، حتى غاب عن الوجود، وكان ذلك غاية المراد.

ـ ١٥ ـ

ومر اليوم التالي كغيره من أيام... إفطار وغداء وعشاء، وأحاديث. لعب شطرنج، وحك نوى الزيتون، ومحاولات للحديث مع قاطني الغرف الأخرى. كان هشام في غاية اللهفة لمقابلة شيخون، وحانت

الفرصة عندما جاء مرعي حارساً في أصيل ذلك اليوم. فرغم قلق التحقيق والرعب المحيط، كان هشام يريد أن يعرف الحقيقة. وذهب إلى شيخون في غرفته الداخلية، وسأله مباشرة عما يقال، فأنكر شيخون أن يكون هناك خمر أو نساء في تلك الليلة السوداء مع سليحف. لقد غرر به سليحف حقاً، ولكن لم يكن هناك خمر أو نساء. حكاية الخمر والنساء إشاعة يروجها الشيوعيون مثل عارف. ولكن هشام أخبره أن فريد المدراسي أخبرهم بالقصة ذاتها، ولكن بدون نساء، وفريد عضو قيادي في الحزب. فأنكر شيخون مجدداً، وقال إن المعلومات التي لدى فريد مستقاة من رفاق آخرين لا يكنون له الود. وخرج هشام من عنده وهو أكثر اضطراباً. فإذا كان التنظيم قد كشف بكأس عرق، فتلك مصيبة، وإن كان قد كُشف بدون عرق، فالمصيبة أعظم.

لم يفارقه طيف أمه طوال تلك الفترة، فقد كانت تتراءى له في كل مكان. وعندما أتى المساء، بدأ غزو الرعب... قلق وخوف وتوتر، وكل ما قاله علماء النفس يبدأ غزواً شاملاً لذرات جسده. ألا تباً للنفس وعلماء النفس. إنهم لا يعلمون شيئاً... هل يعتقدون أنهم قادرون على الوصول إلى كشف أسرار ذلك الصندوق الأسود؟ هراء. المهم. مالك وللصندوق الأسود!.. والغريب أنه لا يشعر برغبة في الحديث، رغم أن عارف كان يتحدث طول الوقت. أحاديث عن الله، وماركس، وسارتر، والصعاليك والمجان... ولكنه فقد الرغبة في الحديث. صورة أمه تحمل طفلاً عديم الملامح تسود المكان، والعقيد يحمل طفلاً يحتل المكان... وجلجل، يلعب بقضيبه، ويتبول على الجميع في كل مكان.

أعلنت الساعة تمام الثانية عشرة... منتصف الليل. بقي كل شيء ساكناً ولم يحدث شيء، فحاول إقناع نفسه أنه لن يحدث شيء الليلة

أيضاً، فاندس تحت البطانية وحاول الإغفاء لعله يحظى برحلة إلى ذلك العالم الذي انتقل إليه عندما جاء أول مرة، فلديه من الأسئلة الشيء الكثير. ولكن الزمن أدرك مخططات هشام، فقطع عليه الفرصة، إذ سرعان ما سمع صرير الباب الخارجي وهو يفتح، وصوت حمدان يمزق سكون الليل وهو يردد إسمه. وسار الموكب من جديد إلى حيث العقيد. أجلسه عوض في الغرفة الأخرى لمدة لا يدري كم طالت. لم يتغير شيء في المكان، سوى قالب ثلج كبير كان ملقياً بين الغرفتين لم يعرف له سبباً، خاصة وأن الجو يميل إلى البرودة ولا حاجة للثلج. وأخذ هشام يرتجف هلعاً وخوفاً، فلم يكن يلبس سوى إزار خفيف، وفانيلة بيضاء نصف كم. ثم جاء صوت جلجل مخترقاً كل ذرة في جسد هشام وهو ينادي عوض، الذي عاد بعد قليل وجر هشام إلى الغرفة الأخرى. كان الجو هناك أكثر دفئاً حيث كانت دفاية كهربائية بين مكتبي العقيد وجلجل، تبعث الحرارة في المكان. كان العقيد يحتسي بيالة شاي طائفي أخضر، فيما كان جلجل يتناول كأس كبيرة من الشاي بالحليب. كان العقيد يقلب أوراقاً بين يديه، فيما أشعل جلجل سيجارة أخذ يمتصها بشراهة وهو ينظر إلى هشام بنظرات بدت له غريبة. بقي هشام واقفاً، فيما الزمن والصمت يمارسان هوايتهما الأزلية في الجرح دون دم. كل شيء كان هادئاً وصامتاً، لولا صوت ارتشاف الشاي والحليب. ثم رفع العقيد رأسه عن الأوراق، ونظر إلى هشام وقد رسم ابتسامة على وجهه وأشار بيده إلى الكرسي المقابل:

ـ تفضل... تفضل يا بني... اجلس.

ثم وهو يجمع الأوراق في ملف، قال متأففاً:

ـ الشغل خلى الواحد ينسى نفسه، متى ربنا يتوب علينا.

وجلس هشام وظل ابتسامة يحاول أن يحتل فاه... لقد بدأ مسلسل اللطف إذن. لا يدري كيف يستطيع هؤلاء الناس الانقلاب فجأة من القسوة إلى اللين، ومن اللين إلى القسوة، دون إحساس حقيقي بلين أو قسوة في دواخلهم. حتى الممثل المحترف يحس بشيء في داخله عندما يتقمص دوراً ما، أما هؤلاء... أما هؤلاء، فهو لا يدري من أية طينة خُلقوا... هذا إن كانوا قد خلقوا من الطين كما باقي البشر. ونظر إليه العقيد وهو يبتسم ابتسامة واسعة، كاشفة عن صف من أسنان ناصعة البياض يبدو أنها استعصت على النيكوتين والقطران والكافيين. وخطر بباله فيلم «رصاصة في القلب» حين ينظر البطل، محمد عبد الوهاب، إلى أسنان البطلة، راقية ابراهيم، ويقول: «أنا مش شايف غير صفين لولي». ثم يكشف على «سنتها» ويقول، وهو يطلق إحدى قهقهاته السمجة الشهيرة: «علشان تحرمي تاكلي جلاس، وتدوبي قلوب الناس». ألا ليت كل سوس العالم يتجمع على أسنان العقيد، كي يحرم تكسير عظام الناس. أما جلجل، فيبدو أن لديه مناعة ضد السوس، وربما قد تحول إلى سوسة هو نفسه.

ـ تحب تشرب حاجة؟

قال العقيد، معيداً هشام إلى المكان والزمان. فانتفض هشام وهو يقول:

ـ كلا يا بيه... شكراً.

كان صوته جافاً وكأنه يعاني عطشاً شديدا، وهو يحاول السيطرة على رعشة خفيفة أخذت تغزو جسده، وخفقان القلب في ارتفاع.

ـ فيه حاجة مضايقاك؟

قال العقيد:

ـ إذا فيه قول... أنت زي إبني تمام. لا تخف.

ـ نعم يا بيه...

قال هشام، فيما اشرأب العقيد بعنقه إلى الأمام، وقد تحول إلى علامة استفهام كبيرة، يعلوها أذن صاغية:

ـ نعم يا بيه... السجن.

وأطلق العقيد ضحكة مجلجلة وهو يعود بظهره إلى الوراء، ثم يقول:

ـ لا... دمك خفيف. حقيقي دمك خفيف. ايش رأيك يا جلجل؟

وبدون أن ينتظر إجابة من جلجل، الذي بقي صامتاً يدخن ويشرب بقايا الحليب في كأسه، وينظر إلى هشام تلك النظرات الغريبة، قال العقيد وقد عاد إلى اتزانه:

ـ وعلى أية حال بسيطة... بإمكانك الخروج متى شئت.

وخفق قلب هشام بشدة وهو يسمع كلمة «الخروج»... هل تحدث المعجزة ويخرج من هذا المكان، كما خرج بنو إسرائيل من مصر؟!. ولكن، أين موسى؟ وهل أدخله يوسف كي يخرجه موسى؟..

ـ الخروج بيدك يا هشام.

قال العقيد:

ـ اعترف تخرج... هذا هو مفتاح هذا المكان.

وعادت الرعشة تعتريه بقوة أكبر وهو يحاول لم شتات نفسه ويقول:

ـ وبِمَ أعترف يا بيه؟.. ليس لدي ما أعترف به إلا ما أعرف.

ـ وماذا تعرف يا هشام؟

ـ اسمي ومن أنا... ولا شيء آخر.

وضحك العقيد بقوة وسرعة قبل أن يقول:

ـ رجعنا لحكاية القط والفأر، ولعبة الاستغماية مرة أخرى؟

ثم زفر بشدة قبل أن يقول:

ـ يجب أن تعترف يا هشام... هذا إذا أردت الخروج من هنا.

ـ ولكن يا بيه... بماذا أعترف؟! فأنا لا أعرف شيئاً.

ـ يا سلام...

قال العقيد بلهجة ساخرة:

ـ والشهود الذين ووجهت بهم... هل كانوا يكذبون بشأنك، هل كانوا يتبلوا عليك؟

ـ لا أدري يا بيه... كل ما أعرف هو أني لا أعرف شيئاً.

ولاح ظل ابتسامة على فم هشام وهو يقول جملته الأخيرة، إذ تذكر سقراط ومحاوراته. وبعين ذئب متربص، التقط العقيد تلك البسمة الباهتة، فقال مبتسماً بدوره:

ـ أراك تبتسم؟.. لعلي قلت ما سرك؟

«وهل هناك سرور في هذا المكان»، خاطب هشام نفسه قبل أن يقول:

ـ أبداً يا بيه... لقد تذكرت شخصاً.

واندفع العقيد بكله إلى الأمام فجأة، وقد اتسعت عيناه، وهو يقول بعجل وفضول واضحين:

- شخص؟.. من هو؟ من هو يا هشام وماذا قال؟

- سقراط... إنه سقراط يا بيه، الفيلسوف الإغريقي القديم.

وعاد العقيد إلى الاسترخاء من جديد، ثم أشعل سيجارة أخذ منها نفساً، ثم وضعها في المنفضة إلى جانبه قبل أن يقول ساخراً:

- سقراط؟.. أليس هو الذي مات بالسم؟

- نعم... نعم يا بيه، لقد كان رجلاً عظيماً.

- بل حماراً عظيماً... رجل تتاح له فرصة الهرب، ولكنه يتجرع السم راضيـاً. هل هناك غباء أكثر من ذلك؟!

كان هشام مستغرباً من معرفة العقيد بسقراط، فقد كان يتصور أن هؤلاء الناس لا يعرفون إلا فلسفة العصا، وحكمة الفلقة. وخطرت بباله حكاية رواها له أحد الرفاق أيام التنظيم لا يذكر اسمه، ولعله كان مرزوق المطراني. ففي إحدى المظاهرات العمالية التي شارك فيها والده، كانوا يقبضون على أبرز المشاركين فيها، وكان البعض منهم يردد بيت الشعر: «إذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر». ووصل الخبر إلى أسماع أحد القائمين بالأمر، فسأل عن قائل هذا البيت، فقيل له إنه أبو القاسم الشابي، فأمر باعتقاله.

- ما علينا من سقراط وأبقراط.

قال العقيد مخرجاً هشام من سرحانه:

- المهم أنت... هل تعترف وتخرج، أم هي سهرة صباحي كتلك الليلة؟

وبدأ العقيد يبرز أنيابه بعد مسرحية اللطف السابقة، وارتجف جسد

هشام بشدة وهو يتذكر سهرة تلك الليلة، وأحس بالألم في قدميه، والطنين في أذنيه من جديد، والرعب يجثم على فؤاده.

- وهل أعترف كاذباً يا بيه؟

وضحك العقيد وهو يقول:

- يا سلام... يعني لم تكذب طوال هذا الوقت؟ أم أن الأخلاق حسب المزاج يا رفيق أبو هريرة؟!

- ...

- ثم إن المسألة ليست في كونك صادقاً أو كاذباً، نحن لسنا من فلاسفة الأخلاق هنا. المسألة مسألة منطق يا سيد سقراط.

قال العقيد ذلك، ثم نظر إلى جلجل وأخذا يضحكان لبرهة، قبل أن يستأنف العقيد الحديث قائلاً:

- فمن غير المعقول أن تعتقل بتهمة مثل تهمتك دون دليل. ومن غـير المعقـول أن يشهد ضدك كل أولئك «الرفاق» ثم يكونون كلهم من الكاذبين وأنت الصادق الوحيد...

وصمت العقيد برهة ريثما أشعل سيجارة وطلب بيالة شاي أخرى، ثم قال:

- إذا كنت بريئاً رغم كل ذلك، فمعناه أننا نحن الكاذبون... يعني أننا أخطأنا في اعتقالك، وأننا نلفق لك تهمة أنت براء منها، وأننا ضغطنا على الشهود كي يشهدوا ضدك...

وصمت العقيد لبرهة أخذ يحدق فيها بوجه هشام المبتل بعرق بارد، قبل أن يقول:

ـ ثم لماذا نفعل ذلك، إذا كنا فاعليه؟ فلست ثورياً خطيراً كما قد يصور لك خيالك يخشى منه... أنت حيا الله عضو في حيا الله تنظيم. أنت مجرد مراهق مغرر به.

وأحس هشام بالإهانة من حديث العقيد، الذي قال مستدركاً، بعد أن لاحظ امتعاض هشام:

ـ أنت شاب ذكي له مستقبل باهر... فلا تحطم مستقبلك بيدك.

وصمت العقيد، وكان لا بد أن يقول هشام شيئاً رغم الإحساس بمهانة شنيعة تخترق عظامه، وكره متعاظم لهذا القابع أمامه، فقال:

ـ معك حق يا بيه...

فضحك العقيد باعتزاز وهو يقول:

ـ هل رأيت؟.. هذه إحدى حسنات هذا المكان. إنه يعلمك المنطق. وبالمنطق ستعترف، أليس كذلك؟

ـ معك حق يا بيه، ولكن بماذا أعترف؟

ونخر العقيد بضيق وهو يقول:

ـ يعني اللي نقوله نعيده... اعترف بما تعرف.

ـ ولكني لا أعرف شيئاً.

وبان الامتعاض على وجه العقيد، فيما تدخل جلجل قائلاً:

ـ والله إنك طيب أكثر من اللازم يا بيه... هؤلاء أناس لا ينفع معهم إلا العصا. فالعصا دائماً لمن عصا.

فقال العقيد بصوت هامس ورقيق، وهو ينظر إلى هشام نظرة بدت له حالمة:

ـ كنت أظن هشام مختلفاً... فهو ابن ناس. ولكن يبدو أن من عاشر القوم...

ولم يكمل العقيد الجملة، إذ قاطعه جلجل قائلاً وهو يضحك:

ـ بل من عاشر الحمير يا بيه.

يا له من ثعلب ماكر هذا العقيد. ها هو يعود إلى مسرحية «ابن الناس» و«مختلف»، محاولاً التفرقة بين المعتقلين للوصول إلى غرضه. لا بد أنه خريج مدرسة «فرق تسد» الإنكليزية. وأدرك أن مسرحية اللطف والرقة قد انتهت، وبدأ الاستعداد لفيلم من أفلام ألفرد هيتشكوك. وعاد الرعب كأشد ما يكون، فقال هشام في محاولة أخيرة لاسترضاء العقيد:

ـ صدقني يا سيدي... لو كنت أعرف شيئاً لما بخلت به عليك.

ويبدو أن النتيجة كانت عكسية تماماً، فقد انقلب العقيد بقدرة قادر من رضوان إلى مالك، إذ نهض فجأة وبعجلة، وقد اكتسى وجهه بقسوة غريبة، وجحظت عيناه، وأخذ الرذاذ يتطاير من فيه وهو يصرخ:

ـ إنت ما فيك فايدة... حيوان مثل الآخرين... يا جلجل.

وانتفض جلجل واقفاً، وهو يسحق سيجارته على الأرض ويقول بعجل:

ـ نعم... نعم يا بيه.

ـ بلا بيه بلا زفت... خذ الخرا هذا من قدامي. صحيح اللعب بالخرا مـا يجيـب إلا الريحة الوسخة.

ـ حاضر... حاضر يا بيه.

قال جلجل ذلك بعجل واضطراب واضحين، ثم التفت إلى هشام

وقد تحول وجهه إلى ما يشبه ليمونة سوداء مجففة، وهو يقول:

ـ قدامي يا خرا... سوف تندم على إغضاب سيادة العقيد.

رحماك ربي، لقد أغضبنا «زيوس» وآلهة الأولمب الإثني عشر، فاتفقوا جميعاً لأول مرة على إلقاء هشام في العالم السفلي، فتلقاه «هاديس» بحبور، وألقاه وراء بوابة «سيربيروس» حيث لا عودة إلا بمعجزة «عشتار». وجر جلجل هشاماً إلى الغرفة الأخرى، فيما كان العقيد يدخن سيجارة بيد ترتعش بشدة. ومالت الخيزرانة تلك الليلة في الهواء كما لم تمل من قبل، ورقصت بشغف لا يعرف الكلل ولا الملل. أوقفوه أولاً على قالب الثلج حتى أحس بانفصال قدميه عن بقية جسده، ثم ابتدأت الخيزرانة بالرقص. لم يشعر بالألم أول الأمر، ولكنه بعد اللسعة السادسة أو السابعة، أخذ يحس بخناجر دقيقة تنغرز في قدميه، فتصل أطرافها إلى منتصف رأسه. وتراءى له الحلاج من بعيد وهو يبتسم ويهز رأسه، وكان أقرب ما يكون إلى وجه الشيخ موسى في الدمام. كان يعرف أنه الحلاج، رغم أن مظهره يقول إنه الشيخ موسى. وتراءت له الخيزرانة وكأنها غانية تنخر بشبق من أحرقته نار الجنس، أو غجرية تصبب عرقها في سهرة حمراء، أو كودية زار أخذتها غفوة الارتماء في حضن حبيب من الجن. واستمرت حفلة الشبق الوثنية، متجرعاً هشام كأسها حتى منتهى الثمالة، ورنين أبيات لأبي نواس تطوف في مخيلته:

اشــرب فـــديـــت عـــلانـــيـــه
أم الـــتـــســـتـــر زانـــيـــه
اشــرب فــديــتــك واســقــنــي
حــتــى أنــام مــكــانــيــه

لا تــقــنــعــن بــســكــرة
حــتــى تــعــد بــثــانــيــه
وادع الــتــســتــر والــريــا
ء فــمــا هــمــا مــن شــانــيــه

وغفت عيناه، فيما كانت الغانية تحاول الوصول إلى الذروة...

ـ ١٦ ـ

كان مضطجعاً على فراشه يراقب آخر شعاع للشمس وهو يختفي، منذراً بقدوم الليل والتحقيق. لم يعد يخاف الليل والتحقيق، فقد زال خوفه تماماً مع استمرار حفلات آخر الليل. والغريب أنه بدأ يستمرىء هذه الحفلات رغم الرعب والألم، مثل استمراء مازوخي لتمزق جسده. من قال إن اللذة والألم لا يلتقيان؟ فربما تكون اللذة في سياق الألم، وربما يكون الألم في سياق اللذة. بل ما هي اللذة وما هو الألم؟ هل لهما وجود خارج الأنا، أم أنهما صور للأنا، والجوهر واحد؟ لقد حولته حفلات العقيد الوثنية إلى مازوخي فكري، يحترق رأسه فكراً، كما تحترق قدماه جلداً. فاستمرار هذه الحفلات أخذ يمنحه مفاهيم جديدة، ويقلب مفاهيم قديمة كانت من الثوابت التي لا تقبل جدلاً في الماضي... من قال إن الفلسفة تجريدات لا قيمة لها؟ من قال إن الفلسفة مجرد تأملات عابثة أو متعالية أو بلا معنى؟ لقد بدأ يدرك أن قيمة الفلسفة تكمن في معاناة صاحبها، ولذلك نجد فلسفات ذات قيمة، وأخرى تدّعي التفلسف وهي ليست بالفلسفات. المعاناة هي مقياس التفلسف من عدمه. والمُعاني قادر على إيصال معاناته بأي كلمات

كانت، فالمعاناة تفوح من الحروف قبل الكلمات. ومن لا يعاني، تصبح كلماته مجرد جمع من حروف لا معنى له، حتى وإن كان هذا الجمع عقد من الجواهر فريد. في الذات تكمن معاني الأشياء ومنها تنطلق...

ويغير الزمن من وتيرته هذه المرة، فيمر طويلاً وبطيئاً، وكأنه ينتحر على دفعات. لقد أدرك أن الضحية تريده أن يمر هذه المرة سريعاً، فغير من خططه لممارسة هوايته الدائمة: التعذيب بالانتظار... لا شيء يعادل عذاب الانتظار، فالخلود ذاته يشيخ في لحظة انتظار، كما قال من لا يتذكر اسمه. كان الوقت يمر سريعاً في الماضي حين كان لا ينتظر شيئاً، أو كان ينتظر ما لا يريده أن يجيء، ولكنه اليوم يمر بخطى سلحفاة هرمة. عندما كان مرعوباً من حفلات العقيد الوثنية، كانت الساعات تطوي الزمن بسرعة ضوء عجل، واليوم ها هي تطويه بسرعة رحالة مستكشف.

وحلت الساعة الموعودة، وجاء «هرمس» في موعده تماماً، ورقصت الغجرية من جديد، وتثنت الغانية، وانتشت الكودية بضرب الدفوف وريح البخور. ذاب الثلج، وتهتكت أوصال الغجرية، فأتوا بغجرية أكثر شباباً، وغانية أكثر شبقاً. مزيد من الدم، ومزيد من الصراخ، ولا جديد. كان هشام في كل مرة تعانقه الغجرية يريد أن يصرخ بالاعتراف ولكنه يؤجل ذلك للحظة أخرى، ثم تتوالى اللحظات... وما الزمن إلا لحظات متعاقبة. فقدوا الثقة بغواية الغجرية وغنج الغانية وسلطنة الكودية، فوضعوه في غرفة صغيرة لوحده، ومنعت عنه السجائر... وعاد الزمن إلى ممارسة لذته العتيدة وهو يضحك.

كانت غرفته الجديدة تقع في الشقة الأخرى في الدور الأرضي، حيث زكي عبد النبي وفريد المدراسي وسليحف، وكانت ملاصقة لحمام الشقة تقريباً. خلال الأيام الأولى من انفراده بنفسه، لم يتأثر كثيراً ولم يتضايق، فقد كان معتاداً على العزلة والانفراد بالنفس. كما أنه كان يرى الآخرين ويرونه حين استلام وجبات الطعام، وحين يصطفون في طابور الحمام أو الحلاق، وقد رأى زكي وفريد عدة مرات، فابتسموا لبعضهم بعضاً من بعيد. كما رأى أحد الأشخاص الذين اجتمع بهم لأول مرة وآخر مرة في الجلسة الأخيرة للخلية، حين استلم أموال التنظيم. أحس بالخوف حين رؤيته، ولكن كان واضحاً أن ذلك الشخص لم يتعرف عليه، أو تصنع أنه لم يعرفه، فشعر ببعض الارتياح. لم يكن مسموحاً له باستلام طعامه بنفسه، فقد كان يقدم له قبل الجميع، ويعطي طبقة لأحدهم كي يغسله. ويؤذن له بالذهاب إلى الحمام بعد أن تنتهي ساعة الذروة في الصباح والمساء. ما كان يضايقه في الأيام الأولى فعلاً هو الحاجة إلى سيجارة وكوب شاي. حقاً نحن نعتقد أننا نأسر الأشياء وهي في النهاية التي تأسرنا.

وبعد الأسبوع الأول من عزلته، بدأ يخور وكل يأس الدنيا وكآبتها يتسربان إلى قلبه، وتتشربهما روحه. لم تعد الحاجة إلى سيجارة هي أكبر همه، بقدر ما كان يريد الحديث إلى أي أحد، حتى لو كان العقيد أو جلجل، فيتناول المصحف ويتلو: ﴿**والضحى، والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك**

عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾. ويستمر في التلاوة حتى يصبح خارج الزمان والمكان، فيهدأ قليلاً، ويضع المصحف جانباً. ولكن ذلك الشيء الثقيل لا يلبث أن يجثم على صدره من جديد، فيبدأ بالترنم بأناشيد حماسية لعلها تزيح بعض وحشة المكان، فيردد بصوت خفيض، ولكنه يحس به صراخاً في داخله:

يا ظلام السجن خيم
إننا نهوى الظلاما
فليس بعد الليل إلا
فجر مجد يتسامى

غير أن أكثر الأوقات إيلاماً هو عندما تغرب الشمس ويحل الليل، فيتذكر أماسي الدمام والرياض، فتخنقه الغصة في حلقه، فيتناول المصحف من جديد ويقرأ: **﴿سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور﴾**. ويتبعها بسور الرحمن والقلم والإنسان، ثم يضع المصحف جانباً، فتطوف أم كلثوم في خاطره، فيغني معها:

أقبل الليل يا حبيبي وناداني حنيني
وسرت ذكراك طيفاً هام في بحر ظنوني
ينشر الماضي ظلالاً كان انساً وجمالاً
فإذا قلبي يشتاق إلى عهد شجوني
وإذا دمعي ينهل على رجع أنيني

ثم لا يلبث أن يترنم:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا مشتاق وعندي لوعة
ولكن مثلي لا يذاع له سر

ثم لا يلبث ناظم الغزالي أن يقحم نفسه وهو يتأوه:

ماذا أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيا جارتاه لو تعلمين بحالي

وعندما ينتصف الليل، ويسكن صوت كل شيء إلا زئير رياح مختلط بأصوات كلاب بعيدة وصفير بعض الحراس في الخارج وكلمات متقطعة، يتناول المصحف ليقرأ، إلا أن صوتاً يأتيه من بعيد، رغم أنه في غاية القرب، أو هو قريب رغم أنه في غاية البعد، فقد تداخلت المسافات وغابت الأبعاد... ذات الصوت الذي أسمعه في الخبر لأول مرة، وهو ينشد بصوت كئيب:

يا الله يا كاشف عن أيوب ما به
من الضر يا قابل مطاليب يعقوب

يـا رب يـوسـف يـا مـصـدق جـوابـه
يـا مـظـهـره مـن مـاقـع فـيـه مـصـلـوب

يـا داعـي بـنـداه مـوسـى وأجـابـه
يـا جـاعـلـه غـالـب وفـرعـون مـغـلـوب

يـا مـخـرج ذا الـنـون يـوم اكـترابـه
عـقـب أربـعـيـن بـغـبـة الـبـحـر مـسـكـوب

ولـيـن لـداود الـحـديـد اكـتـسـى بـه
ومـصـخـر لابـنـه مـن الـريـح مـركـوب

تـفـرج لـمـمـتـحـن يـبـي مـنـك ثـابـه
ضـاق الـفـؤاد ودك بـه كـل دالـوب

ثم يعود السكون وصوت الكلاب والحرس، وفجأة يعود الصوت:

خـذ مـا تـراه وخـل عـنـك الـتـفـاكـيـر
يـا قـلـب يـالـلـي كـل مـا جـاه داره

لا بـد لـلـعـسـر الـمـنـوخ مـيـاسـيـر
ولا بـد مـا تـقـفـى الـنـذارة بـشـارة

الـعـبـد مـا لـه عـن حـتـوف الـمـقـاديـر
والـلـي كـتـب لـو هـو بـصـنـدوق زاره

ثم يسمع نشيجاً، يعقبه صرخة ملتاعة:

لـو بـاتـمـنـى قـلـت يـا لـيـت مـن غـاب
ولا حـضـر بـالـلـوح والـلـي كـتـب بـه

أمـي وأبـوي الـلـي رمـونـي بـالأسـبـاب
يـا لـيـتـهـا بـعـد الـحـمـال أسـقـطـت بـه

وتختفي الأصوات جميعاً، ولا يبقى إلا زئير الليل. وينهض مفزوعاً على كابوس شنيع لا يذكر منه إلا أن شخصاً بوجه تيس، وأنياب نمر، وعين وحيدة حمراء في منتصف الجبهة، مشقوقة من أعلى إلى أسفل، كان يحاول أن يمتص لسانه ويلعق أنفه ويضحك. وتأتي خطوات الحارس كالمطارق في أذنه، ويعود إلى النوم، ولكنه لا ينام. شيء في داخله أثقل من الرصاص يجثم على صدره. يريد أن يبكي، لعل الدموع تذيب ذلك الرصاص الثقيل، ولكن حتى الدموع أبت الخروج، ولا يبقى إلا غصة مؤلمة في الحلق. يضطجع على الفراش، ويغفو، ثم يرى شخصاً بلا ملامح يقف أمامه، وإن كانت هيئته أقرب إلى «بروميثوس» في أساطير الإغريق، وقد قيدت يداه ورجلاه بسلاسل من ذهب إلى صخرة من عقيق أحمر، في وسط بحيرة فيروزية تتلاطم أمواجها، لتموت على الشاطىء حبات من لؤلؤ لماع. كان يحاول التملص من قيوده ولكنه لا يفلح، فيهدأ، ثم ينظر إلى هشام بانكسار وهو يقول بصوت غير مسموع، وإن كان هشام يسمعه بوضوح كامل:

تحتبس في عيني الدموع

وتأبى الروح ذل الخنوع

وترفض الزاد رغم الجوع

وتشك بموسى ويسوع

وتأبى السجود والركوع

فينتبه من نومه وهو في غاية الفزع، فلا يجد إلا وحشة المكان وسكون الليل، فيتدثر بالبطانية، ويحاول الإغفاء من جديد، ولكن أشباحاً لا يراها تبقيه يقظاً طول الليل، فينتظر حتى يأتي صوت مؤذن من بعيد، وعندها ينتصر سلطان النوم.

ـ ١٨ ـ

ومرت أيام عشرة، لا أحد يستدعيه ولا أحد يكلمه. ينتظر الوجبات ليتحدث بكلمة أو اثنتين مع عم عبده، وينتظر نوم من في البيت كي يتبادل كلمات مع الحارس مرعي أو غيره. حتى التحقيق حُرم منه. لقد حاصره الملل والرتابة وانتظار ما لا يجيء. يريد أن يتحدث مع أي أحد، حتى لو كان عوض أو حمدان، أما العقيد وجلجل فهما أمنية. حتى الشمس يبدو أنها قد اشتركت في مؤامرة الصمت المحيطة، فهي لا تريه نفسها وأشعتها إلا دقائق معدودة في نهاية كل نهار، وكأنها تعلن قدوم الليل وكوابيسه. البرد شديد، ولكن صقيع الداخل أشد برداً. كم يتمنى كوباً من الشاي الساخن، وسيجارة وشخص يتحدث إليه، وهذا أقصى المنى. لم يعد كل الكون يهمه، وما عاد يفكر بشيء غير إنسان يتحدث إليه، وسيجارة ينفث دخانها، وشاي ساخن يتجرعه ببطء. ما عاد يهمه بعث أو شيوعية، مادية أو مثالية، فقد انشغل بنفسه عما عداها. كان يكثر من الذهاب إلى الحمام، لا لقضاء حاجة، ولكن لقتل الرتابة، ولعله يجد في طريقه من يتحدث إليه ولو بكلمة واحدة. ولكنه كان دائماً يعود جاراً ذيول الخيبة والأسى، وهو يحاول استراق النظر إلى غرف النزلاء بكل حسرة. يا للعجب، لقد تحولت هذه الغرف وقاطنيها

إلى أمنية بعيدة عليه.

غريبة هي الذات... أعز شيء في الوجود على صاحبها، يفعل كل شيء من أجلها. الحياة كلها مجرد مسرح للذات كي تمارس فيه دورها، والوجود مجرد مجال لتجسد فيه الذات ذاتها. يسرق الفرد ويقتل ويفعل أي شيء من أجل هذه الذات، ولكنها كريهة ومقيتة ومنتنة عندما ينفرد بها صاحبها. ألأجل ذلك كان المتصوفة يحاولون الهروب من الذات إلى الذات؟ وهل أن ما نفعل هو هروب من الذات وليس من أجلها؟ لا يدري... كل ما يدريه أنه قد مل من ذاته، ويريد ذاتاً أخرى قد تتحمل شيئاً من ذاته وتريحه منها. ولأول مرة يدرك المعنى الحقيقي لذلك المثل: «جنة من غير ناس ما تنداس». هل هي حكمة الشعوب التي تتجاوز حكمة كل حكيم؟ ربما، ولكنها حقيقة. والحقيقة لا تظهر إلا في نار المعاناة، مثل المعادن المنبثة في نسيج الصخر والتراب، لا تمنح نفسها إلا بالصهر والنار. بالمعاناة تتجلى الحقيقة، وكلما كانت المعاناة أكبر، كانت الحقيقة أكثر تجلياً. لذلك لا يعيش الناس في الحقيقة لأنهم لا يعانون، إنهم يعيشون في وهم اسمه الحياة. أما الحياة ذاتها، فلا يعرفون عنها شيئاً. كان في الماضي من محبي العزلة والخلوة والبعد عن الناس، ولكنه اليوم يبحث عن أي إنسان. العزلة جميلة، والخلوة مع الذات أحياناً لذيذة، ولكن أن تختار أنت ذلك، لا أن يُختار لك... فالحياة في النهاية هي لحظة اختيار، ولكن أين هو الاختيار؟

يجلس وحيداً في الركن القصي من الغرفة، وقد تقوقع على نفسه مثل هرة خائفة. يترك العنان لنفسه، ويتحدث إلى نفسه، ثم لا يلبث أن يغني. تخرج منه «ساري الليل هارب من جراحه» لعبد الله محمد، ثم لا يلبث أن يتحول بسرعة إلى «يا ريم وادي ثقيف» لنجاح سلام، ثم لا

يلبث ناظم أن يقتحم الفضاء كعادته «ليلى تعيرني عجب الشيب ليلى»، ولا يلبث عبد الوهاب أن يزيحه صائحاً: «كيلوباترا. . .»، ويدخل عبد الحليم على استحياء: «وحياة حبك يا ناسيني، يا ريت يا حبيبي أنساك»، ثم تسيطر أم كلثوم: «ذكريات عبرت أفق خيالي، بارقاً يلمع في جنح الليالي». ويضحك بعدها، ثم ينهض ويرقص وهو يترنم بطقطوقة لأحد الحرافيش، وهو يترنح من البوظة والحشيش والمنزول: «اما أنت مش قد الخمرة بتسكر ليه، واما أنت مش قد الحب بتحب ليه»، ثم تلوح فتاة خمرية اللون، مصرية الملامح والجسد، وهي «تتقصع» في مشيتها، وكل شيء فيها يرتج بقوة، وهي تغني بدلال: «أوعى تكلمني، بابا جي ورايا». ثم يبرز سيد درويش وهو يغني: «زوروني كل سنة مرة حرام»، ثم تقتحم فيروز المكان وهي تشدو: «بكتب اسمك يا حبيبي عَ الحور العتيق»، فيعود إلى ركنه القصي ويحاول البكاء، ولكن لا دموع. ثم يأخذ في الحديث إلى نفسه كما اتفق، ويصدر أصواتاً غريبة لعلها تبعث الحياة في المكان، ولكن الوحشة تبقى هي السيد. وانتبه لنفسه، أو قد جن؟ ربما، فالوحدة شيء فظيع. كم كان سارتر مخطئاً وهو يقول إن الناس هم العذاب. ليس الناس هم العذاب، بل الذات هي العذاب. أن تكون وحيداً بغير اختيار، هو أقصى عذاب ممكن. نحن لا نريد الناس لأننا نعلم أنهم موجودون حين نريدهم، ولكن حين تريدهم ولا تجدهم. . . هذا هو الجحيم بعينه.

مع بداية الأسبوع الثالث من وحدته، تحالف السأم والقلق والخوف واللامعنى في الهجوم عليه دفعة واحدة، ولم تكن حصونه الدفاعية قادرة على صد الهجوم، وعند ذاك فقط أدرك معنى الحياة. أليس غريباً أن تدرك معنى الحياة عندما تفقد الحياة ذاتها؟ فالإنسان ليس إنساناً بغير

الإنسان. ربما قال أرسطو والفلاسفة ذلك من قبل، ولكن أن تقرأ عن الحقيقة غير أن تمارسها، فالحقيقة في النهاية لا تفصح عن نفسها إلا حين الممارسة، والمعاناة من أجلها، مثل عروس لا تكشف كل مفاتنها إلا ليلة زفافها. ولكن حتى تصل إلى ليلة الزفاف، لا بد أن تكابد. بلا ذوات أخرى، الإنسان مجرد كتلة من مشاعر وأحاسيس ورغبات وطموحات وطاقة مكبوتة لا تجد مجالاً لها، فتنقلب على صاحبها وتفترسه. من هذه الحقيقة، المعروفة وغير المعروفة في الوقت ذاته، أدرك لماذا كانت السجون ولماذا كان العقاب دائماً هو حجر الذات وعزلها. السجن يقضي على الذات بالحجر على حريتها وعزلها عن بقية الذوات. والإعدام هو قضاء على الذات نهائياً. وليس الإعدام هو العقاب، فلحظة الإعدام سريعة يعقبها الموت وفناء الذات، ولكنه التهديد به، وإحساس الذات بقسوته قبل تنفيذه. ولذلك كثير ممن يحكم عليهم بالإعدام يستعجلونه إذا فقدوا الأمل بالخلاص منه. وقد لا يكون الإعدام عقاباً بقدر ما هو ردع لذوات أخرى، أما الذات المعدومة فقد انتهى أمرها.

لكم يشتاق إلى سيجارة وكوب من الشاي الساخن. أسبوعان لم يتذوق فيهما الدخان والشاي، وقد تحولت الرغبة فيهما إلى شبق شديد. يقول المقلعون عن التدخين أن فترة أسبوع إلى أسبوعين كافية لتقليل الرغبة في الدخان، ولكنه لا يشعر بذلك. أهي الحرية والاختيار مرة أخرى؟ ربما. . . فإن تترك الشيء طوعاً، يختلف عن أن ترغم على تركه. ففي الأولى تكمن «أنا» وفي الأخرى يكمن «هو»، وأنا دائماً أقرب إلى الذات من هو. قد ينشر الدخان السرطان في الجسد وهو يجوس خلاله، ولكن ما قيمة صحة الجسد إذا كانت الذات مريضة؟ ما

قيمة صحة الجسد إذا كان الجسد محجوراً عليه؟ لا يهمه الآن سرطان أو غيره... إنه يريد سيجارة وحسب.

هو وذاته... يا له من عذاب. لقد اشتاق إلى حفلات العقيد وجلسات جلجل، ولكن أين هي؟ لقد حرموه منها. رباه... إن النفس لا تطاق. ما كنت أعلم أن ذاتي كريهة إلى ذاتي إلى هذا الحد... أريد الفرار. ولكن إلى أين، وكيف؟ فذاتي جزء من ذاتي، فكيف أهرب من ذاتي، ومن عذابي إلى عذابي؟ رحماك يا رب أيوب وإله محمد... رحماك يا الله. ولكن أين الله في هذا المكان، لقد ألغاه العقيد وجعل من نفسه رباً للمكان. رحماك يا عقيد، أريد جنتك فقد كوتني نارك. رحماك يا عقيد، فذاتي تقتل ذاتي... رحماك يا عقيد، احشرني مع الناس، فأنا طامع في سيجارة. وبدون وعي منه، هب واقفاً وأخذ يصرخ: «يا حارس... يا حارس...» وجاء الحارس على مهل وهو يقول بغير اكتراث: «نعم... ايش تبغي؟»، «خذني إلى إله المكان... أعني خذني إلى العقيد. أريد المغفرة. خذني إلى العقيد...».

ـ ١٩ ـ

واعترف... كتب لهم ما أرادوا، ودفع سعر الجنة. خضع وتذلل وتمسكن واعترف، ومنحوه الجنة... كانت رائحة الدخان ألذ رائحة استنشقها في حياته عندما دخل مكتب العقيد للاعتراف. أجلسه جلجل إلى مكتب صغير على يسار الداخل، بجانب مكتب العقيد، وأعطاه رزمة من الورق الحجازي المسطر، وقلم حبر، وطلب منه العقيد بكل لطف، والابتسامة تحتل وجهه، أن يكتب كل ما يعرف. كان العقيد وجلجل

يدخنان ويشربان الشاي الساخن أثناء ذلك، فيما كان هشام يحاول الكتابة وهو ينظر بشوق إلى السيجارة وكأس الشاي بيد العقيد. وابتسم العقيد، وقد أدرك ما يجول بخاطر هشام، فأمر عوض أن يأتي بكأس شاي ساخن، ودفع إليه ما تبقى من سجائر في علبته وعلبة كبريت، وهو يقول باسماً: «أما كان من الأجدر بك أن تعترف منذ البداية يا ولدي... يعني ناقص مرمطة؟!..» فابتسم هشام بآلية، ثم سحب سيجارة من العلبة بعجل، وأشعلها بيد مرتجفة، ثم أخذ منها نفساً عميقاً أحس معه أن كل ذرة في جسده قد عادت إليها الحياة. ثم أخذ نفساً آخر، وبدأ الدوار اللذيذ يتجول في ثنايا رأسه، وطافت رقية بباله، وتحلب فمه بلعاب غزير، فأخذ رشفة كبيرة من كأس الشاي، أحس معها بمعنى العقاب والثواب. وكان العقيد آنذاك ينظر إليه مبتسماً وقد ارتخى تماماً على مقعده الوثير، فيما كان جلجل يبتسم بسمة بلهاء. راودته نفسه ألا يعترف ولا يكتب شيئاً، ولكن ذكرياته مع ذاته طوال الأسابيع الثلاثة الماضية أرعبته، وبدأ يكتب. كتب كل شيء، واعترف بكل شيء. لم يكن بوسعه إلا ذكر كل الأسماء، الحركية والحقيقية، فكل شيء قد أصبح مكشوفاً. ما كان يتحاشاه فعلاً هو عدم ذكر أي شيء عن تلك الجلسة الأخيرة التي استلم فيها النقود، خاصة وأن أي واحد من الشهود لم يذكرها، ولم يعترف عليه أحد من الرفاق في تلك الجلسة. وكان أثناء ذلك لا يتوقف عن التدخين، ويمتلىء كأسه بالشاي كلما فرغ.

وانتهت الاعترافات، ولم يكن هناك الكثير ليذكر على أية حال. دفع السعر كاملاً، كل ما في جيبه من نقد مطلوب رغم قلته، ودفع الأوراق بمسكنة إلى العقيد الذي كان في غاية الحبور. وأعاده عوض إلى الغرفة الأخرى، دون رعب هذه المرة، وبقي هناك لفترة لا يعلمها، كان يسمع

أثناءها حديثاً بين العقيد وجلجل لا يدري كنهه. ثم ظهر حمدان في الأفق، وما لبث أن دخل غرفة العقيد. وما هي إلا دقائق، وكان حمدان يقوده إلى البيت الكبير.

ـ ٢٠ ـ

لم يعيدوه إلى غرفته السابقة مع عارف والآخرين في الدور الأرضي، بل وضعوه في الدور الثاني المخصص لمن انتهى معهم التحقيق نهائياً. أما الدور الأول، فقد كان منزلة بين المنزلتين. فهو مخصص لمن حقق معهم، ولكنهم لم ينتهوا بشكل كامل، فيوضعون على أهبة الاستعداد للاستدعاء عند ورود معلومات جديدة، أو اعترافات جديدة. وفي ذلك الدور كان يوجد منصور وموافق، أما زكي فكان لا يزال في الدور الأرضي. وقد استغرب وجود زكي في الدور الأرضي رغم أنه مثله لم يكن ذا شأن كبير، ووجود موافق في الدور الأول. ولكن لعل ترقيته التنظيمية هي التي جنت عليه في النهاية.

كان أفضل ما في انتهاء التحقيق هو إزالة القيود من رجليه بعد أشهر من العيش معها وبها حتى أصبحت شيئاً معتاداً، والإحساس بالقدرة على نوم غير متقطع، رغم الخوف من أن يعتقل ممن لم يذكر أسماءهم، فيطرد من جنة العقيد. وضعوه في صالة شقة واسعة، ويبدو أنهما كانتا شقتين فتحتا على بعضهما. كانت الصالة واسعة جداً، وتنتشر على جنباتها فرش السجناء جنباً إلى جنب. وحول الصالة تنتشر غرف كثيرة، تمتلىء بدورها بالفرش. وضع فراشه ملاصقاً للجدار المقابل لباب الشقة، بين فراشين آخرين أحدهما لشخص عن يمينه، عرف فيما بعد أن

إسمه «وليد الدايم»، والآخر عن شماله، لشخص إسمه «عبد الله الصاعد». كان وليد قومياً متحمساً، فيما كان عبد الله قومياً سابقاً، وماركسي من أنصار «الجبهة الديموقراطية» المنفصلة عن حزب البعث. كان من السهل معرفة انتماءات الموجودين في هذا الدور، فقد اعترفوا وانتهى أمرهم. وعند الجدار المقابل، والمجاور لباب الخروج، كان هناك عدة شخاص لفت انتباهه أحدهم، فقد كان ملتحياً ويرفع إزاره إلى ما فوق الكعبين، عرف فيما بعد أن اسمه «لقمان أيوب علام»، وهو متهم بالانتماء إلى تنظيم الأخوان المسلمين. كان في غاية الاستغراب من وجود لقمان بينهم، فقد كان كل الموجودين إما من البعثيين أو القوميين، أو كانوا بعثيين، أو أعضاء تنظيمات أخرى لها علاقة بهم. كان هناك أكثر من ستين شخصاً في الصالة، لم يحاول التعرف على أحد منهم، وحتى وليد وعبد الله ولقمان، ما كان ليعرف أسماءهم لولا اجتماعهم على سفرة الطعام بشكل مستمر، ونقاشاتهم اللاحقة.

كان وليد حاد النظرات بشكل ملفت للنظر، ذكره بمنصور عبد الغني، وإن كان أقل وسامة منه بكثير، وأقصر منه. أما عبد الله، فقد كان أبرز ما فيه صلعة تحتل منتصف رأسه، تبدو وكأنها دهنت بزيت لتوها. أما لقمان، فقد كان ما يلفت النظر فيه، سمنته المفرطة، ولهجته المكية الخالصة في محيط تغلب عليه اللهجة الخليجية والنجدية. كانت لهجته في غاية العذوبة، مقارنة باللهجة النجدية الجافة، والخليجية المطاطة، فقد كانت الكلمات تخرج من فيه بسرعة وكأنها رصاص متتابع، وتذكره باللهجة المصرية، وإن كانت أقل عذوبة منها. كان الثلاثة يشتركون في شيء واحد: شدة الحماس، والإيمان المطلق بما يعتقدون. وكان كل منهم يعتقد أنه يحمل تلك العصا السحرية القادرة

على تحويل الجحيم إلى نعيم، وكل الشر إلى خير، والظلم إلى عدل، والتأخر إلى تقدم. كانت الأمة هي عصا وليد السحرية، والطبقة عند عبد الله، والعقيدة عند لقمان. كل واحد من هؤلاء كان يمسك بعصاه السحرية ويهزها في وجوه الجميع. وتنافس الثلاثة عليه، رغم علمهم ببعثيته الرسمية. ففي المناقشات التي كانت كثيراً ما تدور حول سفرة الطعام، أو عند الأصيل حين تميل الشمس إلى المغيب، كانت تصدر من هشام كلمات توحي مرة بأنه ما زال قومياً متحمساً، وأحياناً بماركسية أصيلة، حسب تعبير عبد الله، وأحياناً أقوال يستشف منها لقمان الضراعة لله واللجوء إليه. أما هشام، فلم يعد يدري ما هو، فهو يترك نفسه تفكر بصوت عال حين النقاش، ولا يبالي أي كلمة خرجت. وفي أحيان كثيرة، كان الثلاثة يتفقون ضده بالرأي، حين يصدر منه ما لا يمكن حصره في اتجاه من هذه الاتجاهات..

- ٢١ -

ومرت عليه عدة أيام في مقامه الجديد، وبدأت جنة العقيد تتحول إلى جحيم لا يطاق. لم يكن له شاغل إلا الاضطجاع على الفراش أكثر الأحيان، أو الجلوس مستنداً إلى الحائط، وهو يدخن ويراقب حركة الأشباح من حوله بملل يحاول كسره بالتدخين المستمر. وكم كان ممتناً لعارف ومنصور اللذين استمرا في تزويده بالسجائر عن طريق عم عبده، أو الحارس مرعي. فعلبة واحدة كل يومين لم تكن تكفيه على الإطلاق. لقد تحولت كل حركة حوله إلى سكون قاتل، فالمألوف هو السكون بعينه. أشباح تروح وتجيء وتعمل وهي لا تعمل. أحدهم يفرك نوى

الزيتون هناك، وآخرون يلعبون الشطرنج والداما، وهناك أحدهم يقوم بصنع صندوق ضخم من علب السجائر الفارغة ولب الخبز المبلول، وعند الباب يقف الحارس وهو يدخن ويتحدث ضاحكاً مع أحد أشباح المكان، ثم ينصرف الشبح ويأخذ الحارس في الصفير وهو يبدو في غاية السعادة. كم يود لو يعرف مصدر سعادة الحارس هذه، ودفعته نفسه إلى محاولة الحديث معه، ولكنه لم يستطع، فقد كان خجولاً ومتردداً بطبعه.

وأخذ ينظر إلى حركة الأشباح من حوله وهو يفكر ولا يفكر. وطاف بذهنه جحيم دانتي وأبي العلاء وباربوس، وغريب كامو وذباب سارتر وشحاذ محفوظ في الوقت ذاته. طرد كل الأفكار السابحة، ونهض حين أشعل سيجارة وعاد لامتصاصها وهو لا يزال ينظر حوله. وأحس فجأة بخواء رهيب يملأ جوفه، فلم يعد يعلم من هو ولا أين هو، ثم اختفى هذا الإحساس فجأة كما ابتدأ، وعادت الأشباح إلى الحركة من جديد. أراد أن يفعل شيئاً لكسر المألوف من حوله، فذهب إلى الحمام، وحاول أن يتقيأ. لم يكن يشعر بحاجة إلى الاستفراغ، ولكنه أخذ يدخل اصبعه بقوة في حلقه، حتى أخرج ما في جوفه من عصارات وبقايا طعام. أحس ببعض الانتعاش، فشرب الكثير من الماء وعاد إلى الفراش بعد أن أشعل سيجارة أخرى في طريقه، أخذ يمتصها دون لذة أو أي إحساس آخر. سحق السيجارة في الطبق البلاستيكي الصغير إلى جانبه قبل أن يكملها، واستلقى على الفراش وهو يتوسد كفيه المتشابكين، وينظر إلى تلك البقع الإسمنتية المكشوفة في السقف. لا ريب أن هذا المكان كان مقراً لعلية من القوم قبل أن يصبح مقبرة لقوم آخرين، ففي سقفه وجدرانه من بقايا الزخارف والمنمنمات ما يوحي بذلك. كيف يكون ذات المكان قصراً وقبراً؟ إنها قصة الموت والحياة من جديد. وأحس

فجأة بشعور يملأ عليه كل كيانه... إنه شيء ما، ملقي على مزبلة ما، في قرية ما، وهو لا يدري ما هو ذلك الشيء، ولا أين تكون المزبلة وتقع القرية. أحس بالضياع وتلاشي الأبعاد والاتجاهات، رغم أنه يعي ما يدور حوله من حركة الأشباح، وأنهم في الكراديب وفي جدة، جميلة الجميلات. وعلى السقف، رأى صورة هيكل عظمي قادم من بعيد، وهي تحتل كامل مساحة السقف، وهو يرتدي عباءة سوداء ويحمل منجلاً طويلاً في يده اليمنى، بينما تشير له اليد اليسرى بالقدوم. لطالما شاهد مثل هذه الصورة في أفلام الكرتون المتحركة، وأفلام رعب كثيرة، ولكنها اليوم تحتل كل ذهنه، وتدعوه إليها... لم تكن وهماً، لقد رآها وأحس بأنفاسها الباردة المقززة. نهض من فراشه مرعوباً، وأشعل سيجارة بعجل، عاد يمتصها بسرعة ويد مرتعشة، والعرق البارد يتجمع قطرات على جبينه الواسع.

ـ إنك تدخن كثيراً... هذا ليس جيداً.

قال وليد، وهو يحك نواة زيتون على بلاطة بجانب فراشه، وقد انحسر إزاره عن ساق هزيلة منتصبة. نظر إليه هشام، وابتسم بآلية، ثم عاد إلى سيجارته، ويزيد ما زال ينظر إليه وهو مستمر في حك النواة، ثم ساد الصمت من جديد.

ـ إجازة طويلة... أليس كذلك؟

قال هشام وهو يطفىء سيجارته، ويسحق رأسها بهدوء وبرود، وهو يعتدل في جلسته ويحاول أن يبدأ حديثاً مع وليد. غير أن وليد لم يزد على أن نظر إليه نظرة خاطفة، وابتسم بسمة سريعة، ثم عاد إلى حك النواة بقسوة وسرعة، ثم ساد الصمت من جديد.

ـ ولكن الأمة العربية ستنتصر في النهاية... هذا هو قدرها. وعندها يكون لكل حادث حديث...

وفوجىء هشام بتعليق وليد الذي بدا وكأنه يحدث نفسه، فلم يكن هنالك مناسبة لمثل هذا التعليق. كانت النواة قد بدأت تكشف عن جوفها، فيما وليد لا يتوقف عن الحك القاسي والسريع، وقد اكتسى وجهه بكل ملامح الصرامة والقسوة. لم يدرِ هشام بماذا يجيب، ولم يكن يريد الصمت من جديد، فهو يريد الخروج من دائرة ذاته بأي شكل. فنظر إلى وليد وهو يقول:

ـ ليكن ذلك إذا شئت.

ـ لست أنا من يشاء... إنها الأمة. إنها الجماهير. ولا طريق غير طريق الأمة. هذا هو القدر وهو المصير...

قال وليد بهدوء، فيما هو لا يزال يفرك النواة بقسوة. وعاد الصمت من جديد، وعاد هشام إلى ذاته... الجماهير؟ الأمة؟.. ما هي هذه الأشياء؟ إن كانت هذه الأشياء هي ما نراه في الشارع، فيا لها من مسكينة، فنحن نحملها أكثر من طاقتها، ونتوقع منها أكثر من طبيعتها. الجماهير لا تعرف البعث ولا تعرف الماركسية، ولا تهتم بأي منهما... إنها تريد أن تعيش وحسب. هل نعرف ذلك، ونوهم أنفسنا بغير ذلك، فيتحول الوهم إلى حقيقة؟.. ربما... الأمة... الجماهير... هل هي أوهام بذاتها خلقناها خلقاً، كما فعلنا مع أشياء كثيرة، وجعلناها تتسلط علينا؟ ربما... لا أدري... بل أدري... ليس تماماً. والمصير... ما هو المصير؟.. أهو شيء مثلها نتوهمه ونعيشه ولا نعرفه؟.. وطافت بذهنه صورة ذينيك الشابين على الدراجة النارية عندما كان في طريقه إلى

الكراديب قبل أحقاب زمنية خلت.

ـ ليكن ذلك...

قال هشام وهو ينهض لإشعال سيجارته الألف ربما، فيما أخذت النواة تختفي في العدم في يد وليد الذي لا يريد التوقف عن الحك. وعاد والسيجارة تتدلى من فمه، فيما صوت لقمان من الجانب الآخر يأتيه وهو يقول: «لا إله إلا الله... ولا حول ولا قوة إلا بالله»، فنظر إليه هشام باسماً، وعاد إلى فراشه، فيما عاد لقمان إلى مصحفه، بعد أن نظر إليه وهز رأسه بأسى. يا لك من منافق يا لقمان... تخدم ألف إله وإله، ثم تقول لا إله إلا الله... قاتل الله الحياة، فهي النفاق بعينه. قاتل الله الحياة فهي التي تجعلنا عبيداً دون أن نريد، وأسياداً ونحن نريد ولا نريد. قاتل الله حياة تذلنا فيها لقمة، وتأسرنا كلمة، وتستعبدنا شهوة، ويموت فيها الطيبون... ثم نقول لا إله إلا الله. حقاً إن الحياة عبء لا يطاق... الموت هو الخلاص الوحيد، وهو النشوة الكبرى. وبدأت صورة الهيكل العظمي تتبدى له من جديد، فأحس بالبرودة تعتريه. ألقى بالبطانية على منكبيه، وحاول أن يتشاغل بمراقبة الأشباح.

ـ ٢٢ ـ

ويستمر الوقت في السريان... إنه يعلم ذلك من خلال حركة الشمس التي لا تتوقف، وأشعتها المتسللة من وراء القضبان السوداء كل أصيل. أما هو، فيحس أن الزمن ثابت لا يريم. أحس أنه سوف يبقى في هذا المكان اللعين إلى أبد الآبدين... خالد مخلد في ظلمات القبر وحريق السعير، ولن ينقذه من ذلك ولا حتى الموت... الموت...

هذا المنافق اللعين. إنه حليف الشقاء والمعاناة والأشرار. فكلما كانت الحياة يائسة وتعيسة ومملة، رفض التدخل لإنهاء مهزلتها. وعندما تبتسم الحياة، وتفتح ذراعيها ومغاليق قلبها، ينقض هذا اللعين انقضاض ذئب على نعجة شاردة. وهو لا يأخذ إلا أرواح الطيبين. أما الأشرار، فهم يلبثون في الحياة دهوراً. هل من حكمة وراء كل ذلك، أم أنه عبث ولا معنى؟.. لا أدري... ربما! ربما ماذا؟ لا أدري...

وعادت به الذاكرة إلى يوم لا ينساه من تلك الأيام العابرة والغابرة. كان ذاهباً إلى المدرسة باكراً صبيحة ذلك اليوم كالعادة. كان يسير وعدنان في الطريق ذاته الذي سلكاه لأيام وشهور سابقة. وفجأة، ودون تفسير أو سبب واضح لما حدث، أحس أن الزمن قد توقف، فتوقف عن المشي وأخذ ينظر إلى ما حوله مبهوتاً، متردد الأنفاس، التي كانت تقول له إن الزمن لم يتوقف فعلاً. أحس أن هذه اللحظة خالدة خلود الأبد، وباقية بقاء الأزل. وهي لم تدم أكثر من لحظة، ثم عاد سريان الحياة، وذلك مثل فيلم تعطلت آلة عرضه ثم عادت للدوران من جديد. لم تدم أكثر من لحظة، ولكنها بقيت قابعة في أعماقه لا تريم، وكأنها انفصلت عن سلسلة الزمن واستقرت مثل جرثومة مرض مزمن في تعرجات الأمعاء. وها هو اليوم هنا في هذا المكان يعاني سلسلة من تلك اللحظات المنفصلة عن سريان الزمن، تذهب واحدة وتأتي أخرى، في مؤامرة مكشوفة ولكنه غير قادر على وقفها.

أليس من المضحك المبكي أننا نعيش طوال حياتنا على وهم أننا نعرف من نحن، ثم نكتشف أننا لا نعرف شيئاً حين نجابه النفس مباشرة بعيداً عن سريان الأشياء في الخارج. عندما نترك الخارج، ونقوم برحلة إلى الداخل، نكتشف كم كنا من الأغبياء، وأننا لا نعرف أي شيء على

الإطلاق. وكلما ارتحلنا إلى الداخل أكثر، اكتشفنا مدى عمق تلك البئر التي لا ندري عنها، وما يستقر في قاعها. نحاول الوصول إلى قاع البئر، لعلنا نجد ماءً، فلا نجد إلا السراب وبقايا التراب... مجرد طين عفن، وقطرات من ماء آسن. عندها ندرك أن كل ما نفعل في الرحلة الخارجية، هو مجرد بناء قصور رمال على شاطىء بحر مجهول، لا تلبث أن نسحقها بأقدامنا، أو تجرفها أمواج البحر. وتنتهي نزهة ذلك اليوم، فنلقي بأنفسنا عراة على الرمال الباردة ونغفو، ونحن لا ندري ماذا كان اسم البحر، ولا أين يقع الشاطىء. ونصحو على أشعة شمس فقدت معناها، فنلهو بمياه البحر وقصور الرمل، ونغفو من جديد ويبقى البحر والشاطىء والشمس تلهو بنا ونحن نعتقد أننا نلهو بها.

لا شك أننا نهرب من شيء ما... لا نكتشف ذلك إلا عندما نترك قطار الخارج، ونستقل قطار الداخل. نكتشف أن الحياة مجرد حالة هروب من الذات، ونحن نعتقد أنها تحقيق للذات. فالذات لا تريد أن تصطدم بذاتها، وتكتشف اللامعنى المحيط. الكفاح، العمل، النضال، النشاط، اللذة، الألم، السعادة، الشقاء... كلها مجرد وسائل للهروب من حياة يحيط بها العماء، ويغلفها الخواء من كل جوانبها. ليست الحياة إلا حفلة ماجنة يُدخن فيها الحشيش، ويؤكل الخبز مغموساً بالنبيذ والعرق الراشح من أجساد أدمنت الجنس، وأدماها الهوى، ومزقت نفسها بوحشية أخلاقية. نحاول أن نضفي المثال والجمال على هذه الحفلة العابثة، ولكن كل شيء ينكشف ولو بعد حين، وتقف الحقيقة عارية من جديد، كما ولدت عارية من قديم... العدم يقف بالمرصاد، والمجهول يتربص من بعيد، والعجز يقيد الجميع.

يصدمنا عري الحقيقة، ويهز مكامن الخوف والرهبة، ولكننا نتشبث

بالهرب، ففيه كل الأمل. نخلق الأساطير، ونتعلق بالأوهام، مثل مدمن خمرة لا يجد ما يشفي خماره إلا بمزيد من الخمر، فيعالج الخمر بالخمر، ونعالج الوهم بالوهم، حتى تأتي اللحظة التي لا وهم ينفع معها ولا هرب، فندخل نفقها ونحن لا ندري كيف وأين ولماذا. الماضي لم يعد ماضياً، مجرد صور تتأرجح بين الوجود والعدم، مثل حلم سريع في قيلولة ظهر أسرع. صور اختفى منها كل إحساس بالسعادة أو الألم... مجرد صور تستجلب الذكرى، وتبعث على الابتسام، حتى في أشد الذكريات إيلاماً، ولكنها تبقى صوراً لا حقيقة لها، وربما كانت وهماً لا نريده أن يكون وهماً. ليس إلا الحاضر، وهو المستقبل بكل قلقه ورهبته. تنجلي لحظات الحاضر وتأتي اللحظات اللاحقة لاعنة تلك الماضية، وكل إلى الوهم راحل. المستقبل... هذا الطيف اللعين الذي لا يريد أن يجيء، وهو لن يجيء أبداً. ليس إلا ماضٍ هو من عالم الوهم، وحاضر هو من عالم الشقاء، وسعادة نصطنعها هرباً وخوفاً. المستقبل يلازمنا ملازمة القرين لقرينه، ولكننا لا نرى القرين، وهنا تكمن المشكلة. ويأتي المستقبل الحقيقي في تلك اللحظة الفاصلة بين العوالم، ولا يريد إلا أن يكون سيفاً على الرؤوس. فنحن لا ندري إلى أي عالم سنكون، وإلى أي حياة أو فناء سنؤول. هذا المراوغ الذي لا يريد أن يتجلى، مثل سراب صحراء قاحلة، يبتعد عنك كلما اقتربت منه. لن يتحول إلى ماض بسعادة واهمة، ولن يتجسد في حاضر يسير، إنه دائماً يقف هناك مبشراً ومنذراً، وهو على الحدود لا يريم. ونحن لا نعلم أين تكون البشارة وأين يكون الإنذار، فالفرق بين الوعد والوعيد مجرد حرف صغير.

ـ ٢٣ ـ

ـ لقد جاء طعام العشاء. . .

قال وليد وهو ينهض حاملاً طبقيه إلى حيث الباب، الذي سده جسم عم عبده الضخم وقدوره الساخنة. ونهض هشام بتثاقل، فهو لا يشعر بالجوع، ولكن لا بد له من أن يأكل، ومن أن يحضر الطعام. فقد كان النظام هنا مختلفاً عن النظام في غرفته السابقة، فكل فرد مسؤول عن جلب طعامه بنفسه، وغسل أطباقه وملابسه. وتجمهر ستة أشخاص حول قطعة كرتون كبيرة، وأخذوا يزدردون لقيمات الفول والبيض المسلوق بصمت لا يسمع خلاله إلا صوت اللقيمات وهي تهرس في الأفواه، فيما لا زالت الضجة عالية عند الباب. كان وليد وعبد الله يجلسان في أحد الأطراف، وشخصان آخران، عرفا أنفسهما بسفيان وعباس، في الجهة المقابلة، فيما كان هشام ولقمان يجلسان متقابلين على الجهتين الأخريين. وبعد أن كادت الأطباق تكاد تفرغ من فولها وبيضها، قال سفيان:

ـ سمعت أنهم قد يطلقون سراحنا مع حلول العيد، وصدور عفو عام.

ـ أي عيد؟. . بيننا وبين عيد الفطر شهران، وعيد الأضحى أربعة أشهر. . .

قال لقمان، وهو يمسح الطبق بآخر قطعة خبز لديه.

ـ أعتقد أنه عيد الفطر، فهكذا جرت العادة، وهكذا أكد الحارس عطية.

ـ وما أدرى الحارس؟

قال وليد:

ـ لا أدري. . . ولكن لا بد أن لهؤلاء مصادرهم.

ـ الله كريم. . . من فمك لباب السماء.

قال لقمان وهو يرفع يديه إلى السماء، ثم يعود للبحث عن قطعة خبز باقية.

ـ والله يا اخوان أنا غير متفائل. . . لابد من عشر أو خمس عشرة سنة على الأقل. هذا إن لم يكن الإعدام.

قال عباس، فيما انتفض لقمان وهو يقول بصوت عال لفت إليه أنظار القريبين منهم:

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ. . . ايش هادا الكلام. ايش سوينا عشان يعدمونا؟

ثم وهو يهدأ قليلاً:

ـ ثم أنت فاكر الإعدام لعبة؟. . سفك الدم له شروط وعليه قيود ليسـت سـهلة. والا أنت ما تعرف الشرع!

وابتسم عباس بسخرية وهو يقول:

ـ بسيطة. . . يُطبق عليكم حكم الحرابة، والإفساد في الأرض.

ـ ولكننا لم نحارب الله ورسوله، ولم نسعَ في الأرض فساداً. . .

قال لقمان وقد جحظت عيناه:

ـ كما أننا كنا نحاول الإصلاح.

قال وليد:

ـ والأعمال بالنيات، كما يقولون.

قال عبد الله:

ـ المسألة نسبية يا إخوان... ما تعتبرونه إصلاحاً، قد يكون بالنسبة لهم فساداً، وما تعتبرونه فساداً، قد يكون عين العقل بالنسبة لهم.

قال عباس، ثم وهو يبتسم:

ـ رحم الله اينشتاين...

وضحك لقمان وهو يقول هازاً سبابته في وجه عباس:

ـ لا تجوز الرحمة على غير المسلم... استغفر ربك. استغفر...

فابتسم عباس دون تعليق، فيما قال سفيان بصوت تفوح منه رائحة الرعب:

ـ ولكني لم أفعل شيئاً كي أعدم.

ثم وهو يهز يديه في الهواء:

ـ بل إني من غير المفروض أن أكون هنا... قاتل الله من وشى بـي لكلمـة طائشـة قلتها في جلسة وناسة... لا... لا يمكن أن يحدث ما تقولون، فالله لا يرضى بالظلم.

ـ ولكنه رضي بما هو أشد...

قال عبد الله، فيما انتفض لقمان قائلاً:

ـ بلا تجديف يا سيد. بلا تجديف. مالك إنت ومال الله، خليك مع اليهود والنصارى...

ثم وهو يوجه كلامه إلى سفيان:

ثم ما أدراك أن ما يحدث هو لحكمة خافية لا يعلمه إلا هو علام الغيوب؟..

فضحك عبد الله وهو يقول:

ـ لقد كثرت الحكم التي لا نعلم حكمتها...

ثم وهو يلقي بفمه بقايا قطعة خبز:

ـ وعلى أية حال، تقبل موتك على أنه حكمة لا يدركها إلا هو...

فنظر لقمان إلى عبد الله وقال بهدوء هذه المرة:

ـ ما قلنا لك يا ابن الناس، ما لك إنت وهادي المسائل... خليك في إبن ماركس.

ثم وهو يلقي بنظره إلى الأرض:

ـ وعلى أية حال، فالأمر لله من قبل ومن بعد... قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

وساد الصمت، فيما بدأت الضجة تعلو من جديد عند الباب، فقد وصلت أباريق الشاي الساخن، فانفض الجميع. وعاد هشام إلى فراشه وهو يحمل كوب الشاي الساخن، وعلى طرف فمه تتدلى سيجارة تستعد للإشعال.

ـ إنك تدخن كثيراً... ألا تعلم أن التدخين يؤدي إلى السرطان؟

قال وليد وهو يرتشف شايه، وعيناه لا تفارقان هشام:

ـ وهل تعلم أن السببية لم تعد نظرية قادرة على التفسير الكامل؟..

قال هشام وهو ينفخ دخان السيجارة في سقف الصالة:

ـ وعلى أية حال، ثم ماذا؟

ـ الموت!.. هل تريد أن تموت؟

ـ لا أحد يريد الموت، ولكنه يريد الجميع...

ـ ولكنك تتعجله بهذه الطريقة.

وسحق هشام السيجارة، ثم قال:

ـ أنا لا أستعجله ولا أستبطئه... أنا أسخر منه فقط.

ـ لا أفهم...

ـ هو قادم على كل حال... بعد يوم أو شهر أو سنة أو عقـد أو قرن... كـل مـا أريـد هو أن أبين له أني لا أخافه، فهو نكتة قديمة مكررة.

ـ أنت تتحدث عن الموت وكأنه كائن مجسد، وليس حادثة أو حالاً.

وضحك هشام باقتضاب وهو يقول:

ـ وما أدراك أنه ليس كائناً؟.. ألا يقولون إن الملاك عزرائيل هو قابض الأرواح؟ أوليس ذاك الهيكل العظمي الأسود هو الموت بعينه؟ ألا يقولون إنه بعد انتهاء الحساب يوم القيامة يؤتى بالموت على شكل خروف فيذبح على الحدود بين الجنة والنار؟..

ثم وهو يضحك:

ـ لقد ذكرتني بنزار وقصائده المتوحشة.

ثم وهو يعتدل في جلسته:

ـ ولكن أتدري ما يحيرني يا وليد... هل يمكن للموت أن يموت؟ كيف يموت من هو ميت أصلاً؟ وإذا كان الموت يميتنا، فمن يميت الموت؟.. الله؟.. هو الحياة ذاتها، فكيف يمكن للحياة أن تميت؟.. حقاً يا لها من حيرة.

ـ أكل هذا من أجل أن تبرر تدخينك المفرط؟

قال وليد وهو يبتسم ساخراً، فيما تجاهل هشام التعليق، وواصل الحديث، وكأنه يفكر بصوت مسموع:

ـ الموت قادم لا محالة... إنه مصير ملموس، وليس كمصير الأمة أو الطبقة مشكوك فيه بقدرما هو مشكوك في الأمة والطبقة ذاتهما. فلماذا الاحتياط، ولماذا الخوف؟.. ولماذا هذه اللعبة السمجة، لعبة القط والفأر؟.. ما نحن إلا ممثلون في مسرحية، وسواء طال دور أحدنا في هذه المسرحية أم قصر، فإنه لا يلبث أن ينتهي، وتنتهي كل المسرحية في النهاية...

ثم بعد تردد طفيف:

ـ ولو كان لي من الأمر شيئاً في البداية، لما اخترت الاشتراك في المسرحية من الأساس.

وساد صمت كان وليد ينظر خلاله إلى هشام بنظرات بدت غريبة، تحمل معاني كثيرة، ولا تحمل أي معنى على الإطلاق. فيما كان الخوف قد استولى على قلب هشام بالكامل، وتراءت له صورة الهيكل من جديد في كل مكان، وهو الذي كان يستهزىء قبل قليل بالموت ولعبته السخيفة. ولكن ما العمل، فالحقيقة في ذاتها غير مخيفة ولا مطمئنة، ولكن ماذا نفعل بتلك العفاريت في داخلنا التي نسميها عواطف ومشاعر وانفعالات.

ـ إنك ترعبني بكلامك، ولا أدري هل أنت مجنون يخذرف، أم عاقل يتفذلك، أم على الحدود بينهما؟.. أكل هذا من أجل سيجارة؟

وضحك هشام من الأعماق لأول مرة منذ أن جاء إلى الدور الثاني، وقال وهو يمسح دمعة فرت من عينه:

ـ الجنون ضرب من العقل، والعقل ضرب من الجنون... وعلى أية حال أنا لا أرعبك. نفسك هي ما يرعبك. إنها تريد الاعتراف بالحقيقة العارية، التي تحسها ولكنها تطرحك جانباً بالنسيان والتجاهل، فتجعلك لست أنت... إنها لا تريد الاعتراف، لأنها لو اعترفت لاكتشفت أنها لا شيء... مجرد علبة سردين فارغة على قارعة طريق ما.

وابتسم وليد وهو يقول:

ـ لا حول الله... الاعتراف ورانا ورانا.

ثم ساد الصمت والنظرات الزائغة. وفجأة، اعتدل وليد في جلسته، وقال بحماس بان من بريق عينيه الصغيرتين، ذكره بوصف لأرخميدس قرأه ذات يوم، عندما عثر على حله المنشود في الحمام:

ـ ولكننا نستطيع قهر الموت بنسلنا... بأطفالنا... أطفالنا هم نحن الخالدة.

ـ ولكني أنا من يعاني.

قال هشام:

ـ أنا من يتألم ويموت لا أولادي... أنا من يحس. كان آدم على استعداد للتضحية بكل أولاده من أجل الرجوع إلى الجنة. هو المطرود لا أولاده...

ثم وهو يبتسم:

ـ قد لا يضحي بحواء، ولكنه قد يضحي بقابيل وهابيل...

وطافت سارة بخاطره في تلك اللحظة... لا ريب أنها قد وضعت وليدها الآن، أو هي على وشك ذلك. وأحس بألم كالخواء ذاته يعتريه،

ثم يحيط به بإحكام، لولا أن صوت وليد اخترق الحصار وأعاده إلى المكان والزمان:

ـ ما تقوله هو فردية مقيتة أرفضها...

ثم وهو ينظر إلى لا شيء أمامه:

ـ لو كان لديك أولاد، لعرفت قيمة الحياة.

وعادت سارة إلى خيال هشام، وأحس أن الخواء يحاصره من جديد، فحاول الهرب منه قائلاً:

ـ ترفض أو تقبل... هذا راجع لك... ولكنها الحقيقة عارية.

وانفعل وليد وهو يقول:

ـ أي حقيقة هذه... وإن كانت كذلك، فهي حقيقة قذرة.

ـ قد تكون قذرة أو نظيفة، ولكنها تبقى حقيقة.

ـ يا لك من برجوازي متحذلق...

أتى الصوت فجأة من الجانب الآخر، كما إعصار صيف بلا إنذار. كان صوت عبد الله الذي كان يتابع الحديث دون أن ينتبه له أحد:

ـ إن ما تقوله مجرد رفاه فكري لا طائل من ورائه... عذابك المزعوم، وألمك ولذتك وخرابيطك. ترهات برجوازية متعالية.

واستدار الإثنان في جلستهما باتجاه عبد الله، الذي اعتدل في جلسته وقال:

ـ يا حبيبي القضية الأساسية في الفلسفة هي الصراع بين المادية والمثالية، وفي التاريخ بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في إطار أسلوب الإنتاج، وفي المجتمع هو الصراع بين طبقتين رئيستين، وبينهما

الطبقات الثانوية التي لا بد في نهاية الصراع من حسم موقفها إما مع هذه الطبقة أو تلك، إما مع التقدم أو التخلف... المجتمع هو القضية، وليست تأوهاتك الميتافيزيقية، ومشاعرك الرومانسية المجروحة، وغيبياتك المضللة... يا شيخ... بلا خرابيط.

أنهى عبد الله حديثه وهو يشيح بيديه في كل اتجاه، فيما كانت بسمة ساخرة تحتل جانب فمه، وبعض التجعدات تحتل جبهته وأسفل عينيه، وكأنه أكل شيئاً مراً لتوه.

وهز وليد رأسه دلالة الموافقة، إلا أنها لم تكن موافقة تامة، حيث قال:

ـ كلام عبد الله سليم إجمالاً، فالمجتمع هو القضية فعلاً. ولكن لا دخل للبرجوازية أو البروليتارية في المسألة. إنها قضية قومية قبل أن تكون اجتماعية، فما يقوله هشام هو بقايا وترسبات الفكر الغربي الاستعماري الذي يريد لأمتنا الإنشغال بقضايا تافهة تبعدها عن قضاياها الهامة والملحة، والتي أهمها مقارعة الاستعمار والعودة إلى السيادة العالمية. إنها مؤامرة فكرية استعمارية واضحة، خاصة في مثل هذا المنعطف التاريخي الهام الذي تمر فيه الأمة...

وأحس وليد وعبد الله أنهما قد حاصرا هشام تماماً، فأخذا ينظران إلى بعضهما ويبتسمان. نهض هشام، وعاد وهو يحمل سيجارة مشتعلة، ثم قال قبل أن يجلس:

ـ أمة؟.. طبقة؟.. أليست هذه مفاهيم أتت من الغرب، وهي نتاج الفكر البرجوازي الغربي تحديداً؟.. ثم أين هي الأمة وأين هي الطبقة؟.. أنا لا أرى إلا أناساً يأكلون ويشربون ويتناسلون

ويتعاركون... كلنا في الهم بشر.

ـ مادية ساذجة...

قال عبد الله:

ـ ضحالة تامة...

قال وليد:

ـ بل هي ماسونية ماكرة.

وجاء الصوت هذه المرة من الطرف الآخر من الصالة، حيث كان لقمان يتابع النقاش من بعيد دون أن يلحظه أحد. نهض لقمان واتجه إلى حيث الثلاثة، ثم جلس على طرف فراش هشام، وأمسكه من ذراعه وهو ينظر إلى عينيه مباشرة ويقول:

ـ كلكم تبتعدون عن الحقيقة التي هي منكم براء، براءة الذئب من دم يوسف... لن تجدوا الحقيقة في ضياع الفكر، ولا في هلوسات العبث، أو عند عفلق أو جمال أو ماركس أو سارتر، أو غيرهم من أوثان البشر... الحقيقة في المحجة البيضاء التي لا اعوجاج فيها، من تمسك بها نجا، ومن تركها ضاع في الدنيا والآخرة... أم أنكم لا تعترفون بالآخرة.

قال لقمان ذلك وهو يضحك، وقد أرخى ذراع هشام. ثم وكأنه يستدرك شيئاً فاته:

ـ وعلى أية حال، لقد اعترفتم أمام عقيد من البشر، فكيف يكون الوضع عندما تقابلون الديان؟..

وساد الصمت لبرهة، كان لقمان يتأمل فيها الجميع وبسمة ماكرة لا

تبرح فاه. ثم جاء صوت وليد وكأنه قادم من أعماق بئر خاوية:

ـ لا يمكن أن يقف الله ضد أمة اختار منها أعظم رسله وأنبيائه... لو لم تكن الأمة العربية عظيمة من الأساس، لما كانت محل رسالة عظيمة. الأمة هي التجسد التاريخي للإله.

ـ بل البروليتاريا هي التاريخ مجسداً. إنها الطبقة التي ستلغي كافة الطبقات، وتحقق المجتمع اللاطبقي... مجتمع العدل والمساواة والكفاية، ويبدأ بها التاريخ الحقيقي للإنسان، بعد أن عاش في مجاهل ما قبل التاريخ... الجنة هنا، والبروليتاريا هي رسولها ومحققها.

قال عبد الله، ثم اضطجع على فراشه وهو لا يزال ينظر إليهم، فيما قال لقمان وهو يهز رأسه متحسراً:

ـ كلكم زنادقة متحذلقون، وضالون مضللون... الله وحده هو المصير وإليه المصير. حقيقي، السجن ليس كافياً بالنسبة لكم.

ثم أخذ يحوقل ويتعوذ، فيما كان الجميع يراقبونه بصمت، وهو يراقب الجميع.

ـ عندما نمارس الجنس فإننا لا نمارسه مع حيوان، وإلا اعتبر شذوذاً...

قال هشام وكأنه يحدث نفسه:

ـ نحن نمارسه مع امرأة، أي إنسانة، ولا نسأل أبورجوازية هي أم بروليتارية؟ مسلمة أم نصرانية، عربية أم أعجمية... كل ما نعلمه ونحسه أثناء ذلك هو أنها امرأة وحسب... أنثى تنتمي إلى البشر قبل أي شيء. لو تركنا أنفسنا على فطرتها، لكنا أناساً قبل أن نكون عرباً أو عجماً، من هذه الطبقة أو تلك الطائفة أو ذلك الحزب...

ـ هذا كفر بواح...

قال لقمان:

ـ لو ترك الجميع أنفسهم لسلطان الفطرة، لتحول البشر إلى مسلمين دون استثناء... فالمولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه.

ـ أو يؤسلمانه...

قال عبد الله وهو يضحك باقتضاب:

ـ كل يدعي الفطرة كما يدعي الكل وصلاً بليلى، وليلى...

وعاد إلى الضحك المقتضب قبل أن يكمل:

ـ هذه هي مصيبة الإنسان...

قال هشام:

ـ إنه يصنف الإنسان كما تصنف علب السردين والفاصوليا.

وهب لقمان واقفاً وهو يقول:

ـ لا أستطيع تحمل كل هذا الكفر. ماسونية على إلحادية على تجديف... الحق علي أن أتيت أصلاً.

ثم عاد إلى فراشه، والتقط المصحف وأخذ يقرأ بصوت عال، وعيناه لا تفارقان الطرف الآخر.

ـ رومانسيات برجوازية، وأوهام مثالية.

قال عبد الله:

ـ جهد فكري ضائع... ليته كان من أجل الأمة.

قال وليد:

ثم بعد صمت قصير:

- على أية حال سوف تنتصر الأمة في النهاية بالرغم من كل شـيء... فلهذه الأمـة رسالة خالدة لا بد أن تؤديها على مر الزمن... هذا هو قدرها، ولا راد للقدر.

- بل هي البروليتاريا ورسالتها...

قال عبد الله:

- إنها طبقة المستقبل التي ستنهي كل طبقة، وترفع راية الإنسانية الحقة.

- بل إن الله سيورث الأرض ومن عليها لعباده الصالحين...

جاء صوت لقمان من الطرف الآخر، ثم عاد إلى مصحفه، وأخذ يرتل بصوت مسموع، وهو يسترق النظرات إلى الطرف المقابل: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير * آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾، ثم جاء صوت الحارس معلناً أن وقت النوم قد حان، فاندس الجميع تحت البطانيات، وعادت الأشباح إلى قبورها، وساد السكون.

كانت قلة السجائر تشكل مشكلة بالنسبة له. فبالرغم من نصيبه من السجائر، وما كان يرسله عارف ومنصور، إلا أن ذلك لم يعد كافياً، لولا أن عبد الله أخذ يمنحه نصيبه. فقد دخل عبد الله الكراديب مدخناً ثم توقف عن التدخين بعد ذلك بفترة وجيزة. ولما سأله هشام عن سر التوقف في مثل هذه الظروف التي تدفع إلى التدخين لا تركه، أجاب أنه لا يريد تكالب المرض وانعدام الحرية عليه، مما سيقضي عليه حتماً. لم يقتنع هشام بالجواب، وأثار عنده شطحات فكرية كثرت في الآونة الأخيرة، ولكنه لم يعترض على الجواب، إذ إن توقف عبد الله عن التدخين وفر له مزيداً من السجائر، وهذا هو المهم.

ومرت الأيام، تتلوها أيام. ثوان تطارد دقائق، ودقائق تطارد ساعات، وساعات تتراكم أياماً. وذات صبح عادي من أيام آذار، حيث كان الجو دافئاً ولذيذاً، والشمس تملأ المكان بأشعتها الذهبية المتسللة إلى القابعين وراء القضبان، أفاق على حركة غير عادية. حركة قطعت دائرة الروتين وانفصلت عن لحظات الزمن الراكد. كان أشباح الصالة يتزاحمون عند النوافذ المطلة على الساحة الخارجية، وهم يتدافعون وقد تمنوا لو كانت لهم أعناق زراف في تلك اللحظة، تاركين عم عبده وقدره وأباريقه عند الباب. وكان الحارس أشد منهم فضولاً، فقد أخذ يمر عليهم وهو يقول: «إجلس يا ولد... مكانك يا سجين»، دون أن يبذل جهداً فعلياً لإجلاسهم. بل على العكس من ذلك، كان يشرئب بعنقه وهو يحاول أن يلقي نظرة عما يلقي إليه المساجين النظر. لم يذهب هشام إلى الحمام كالعادة، بل انضم إلى أقرب تجمهر منه، وأخذ

يشرئب بعنقه بدوره. كان هناك ثلاث سيارات «جيب» رمادية اللون، تقف في الساحة الخارجية، أمام البوابة الكبيرة لبطن الحوت، ويقف حولها ما لا يقل عن ستة جنود يحملون الرشاشات الخفيفة، فيما كان بعض المدنيين يقفون أمام البوابة. كان هناك شيء غير عادي يجري، ولكنه لا يدري ما هو. سأل أقرب المزاحمين عما يجري، ولكنه كان مثله يزاحم ولا يدري. استمر في المزاحمة والمراقبة، وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً فاتته بدايته، فهو يصارع كي يلتقط الخط الذي تدور حوله حبكة الفيلم. وطال الوقت، والسيارات لا تزال تنتظر، ولا أحد يدري ماذا يجري. تغير الحارس، وجاء آخر ودود، فذهب إليه أحد المزاحمين وسأله عن الخطب، ثم عاد وهو يبتسم: «سوف يطلق سراح الأخوة اليمنيين اليوم... هذه بشرى خير، لعلهم السابقون ونحن اللاحقون». فعلاً يا للبشرى... وافتر ثغر هشام ببسمة واسعة، وأحس بفرح حقيقي لأول مرة منذ قدومه لبيت الأشباح، وإن كان يخالطه بعض الحسد الذي أفسد لحظة اللذة الصافية، وإن كان يجاهد لطرد ما علق بقلبه من حسد هو أقرب إلى التمني منه إلى الشر. فرح يجتاح خلايا جسده كلها، مثل إشعاع نوراني لا يصده صاد. فرح كفرح أيام البراءة الخوالي، وسعادة كسعادة يوم أن تذوق المشمش لأول مرة في صيف شامي على ضفاف بردى برفقة والديه. ورغم أنه كان آنذاك لا يتجاوز الثامنة من العمر، إلا أن طعم المشمش بقي عالقاً في فمه حتى اليوم. ورغم أكله المشمش كثيراً بعد ذلك، إلا أن مشمش ذلك اليوم كان شيئاً مختلفاً، فقد كان نبعاً من لذة صافية، ومتعة فائضة... وعاد إلى فراشه وهو يدخن ويبتسم. إذن فسوف يخرج يحيا وعبد الغني وعلي، ويعودون إلى صنعاء مهما طال السفر. كم كان يود لو أنه الآن في تلك الغرفة معهم كي يرى

وجه يحيا وهل باق على تجهمه، ويتناقش مع عارف في أسباب خروجهم اليوم وليس قبل ذلك. إنه لا يزال يذكر ما قاله عارف قبل ذلك من أننا مجرد بيض بين ثيران متناطحة... فهل تصالحت الثيران وسلم البيض؟ ربما... العزلة عن العالم شيء فظيع، حتى وهي في أعلى حالات رومانسيتها. لا جرائد، لا راديو، لا شيء يخبر بما يجري في هذا العالم، والشيء دون علم به هو لا شيء في النهاية. ما أسعدك اليوم يا علي، ها قد حصلت على ما تريد وأتاك المستقبل الذي تريد. سوف تعود إلى تعز، وتخزن وتتزوج وتعيش... ولكن ماذا بشأن المستقبل البعيد، فالمستقبل لا يأتي وإن أتى. لقد تحول المستقبل الذي تريد إلى حاضر يا علي، وبقي المستقبل رهن المجهول... رغم أن الموت ليس من عالم المجهول. ولكن ذلك لا يهم، أعطني هذه اللحظة وارمني بعدها على أية مزبلة شئت. أعطني لحظة سعادة صافية، وصادر ما بقي من لحظات هي في خرج حاوي المجهول... لو عرف كل إنسان بالعدم المحيط بخرج الحاوي، لربما عاند المستقبل والمجهول وانتحر. ولكن... الحمد لمن له الحمد. فقد تكون حياتنا أساسها الوهم والأسطورة، ولكن لذة الإيمان بالشيء هي ما يجعله حقيقة واقعة، ووجوداً مهيمناً. حرارة الإيمان تبعث الدفء بالبرودة المحيطة، وتعطي الأشياء معناها... لم يكن لأي شيء معنى قبل أن يعلم الله آدم الأسماء كلها. فالأشياء هي أسماؤها، والأسماء بذاتها ليست بالضرورة من عالم الوجود، ولكنها أضفت المعنى على الوجود... المعنى... إلهي امنحني المعنى أو احرمني الوجود، فالوجود هو الجحيم بغير معنى، ولا معنى بغير حرارة إيمان. مجرد نقطة من إيمان... كلما نظرت إلى القمر في ليلة صيف صافية، أو إلى الشمس في يوم شتاء حزين، أو إلى أوراق

الشجر تداعبها نسمات نيسان، أو تتلاعب بها رياح تشرين، أو رأيت نملة تسعى منذ الأزل وإلى الأبد، أدركت المعنى، وشاعت في النفس حرارة غريبة. ولكن كل المعنى، وكل الحرارة تضيع عندما أسمع صراخ طفل جائع، أو أرى ذبابة تتبرز على أنف عجوز هرم... لماذا يصرخ، ولماذا يهرم إذا كان الذباب هو المصير؟ أين المعنى، وهل هناك معنى، إن لم يكن المعنى مجرد اسم سميناه لما نريد وهو غير موجود؟.. رباه... أعطني لحظة صفاء يتجلى فيها كل شيء، وخذ كل شيء.

وارتفعت أبواق السيارات في الخارج، فعاد إلى المكان... قفز إلى القضبان وأخذ يراقب وهو يشد على أحد القضبان بقوة وتوتر، مع إحساس طاغ بسعادة لا تريد أن تستقر. ثم رأى علياً وعبد الغني ويحيا وهم يخرجون من فم الحوت، وكل منهم يحمل كيساً ورقياً، ويلبس الثوب الأبيض الذي أهدي إليه في آخر عيد. كانت السعادة واضحة على وجوه الجميع، أو هكذا هيء له، ما عدا يحيا الذي كان عابس الوجه كالعادة. أُركب كل واحد في سيارة من السيارات الثلاث، ثم تحركت في طريقها إلى الخارج. ولم يبرح هشام مكانه عند النافذة إلا بعد أن رأى آخر السيارات وهي تخرج من رحم المكان إلى بحر الدنيا هناك، وخيل إليه أنه يسمع صرير الباب الخارجي وهو يقفل بهدوء، فاصلاً عالم البشر عن عالم الأشباح... أو لعلهم جميعاً أشباح، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ـ ٢٥ ـ

كان صباح يوم خميس. الجو في غاية الروعة، لولا نفحات محتملة من حرارة أواخر أيار، وذلك شيء رائع، فجدة كالدمام لا تعرف إلا

صيفاً رطباً طويلاً، وشتاءً بارداً قصيراً، وبينهما فترة انتقالية هي الجنة بعينها. كان الحلاق قد غادر لتوه، بعد أن انتهى من حلاقة آخر وجه، وجز آخر رأس، فقد كان اليوم هو خميس الحلاقة الشاملة. فقد كان الحلاق يأتي كل يوم خميس لحلاقة الذقن، والخميس الأول من كل شهر قمري لحلاقة الرأس والذقن معاً. كان الجميع في حالة استعداد وأمل، فالخميس الأول من كل شهر قمري هو يوم الزيارة لقاطني الدورين الأول والثاني، ومن انتهى معهم معظم التحقيق في الدور الأرضي دون أن ينتقلوا إلى مراتب السعير الأخرى.

كانت البسمات تعلو معظم الوجوه، كان لقمان وبعض من أهل المنطقة يستعدون للقاء زوارهم الليلة، فاصطفوا لأخذ حمام جيد، وأخرجوا أنظف وأجمل ملابس لديهم. كان لقمان يذهب ويجيء ويوزع الابتسامات وهو يترنم ببيتين من قصيدة «حديث الروح»، لمحمد إقبال: «إذا الإيمان ضاع فلا أمان، ولا دنيا لمن لم يحي ديناً. ومن يرضى الحياة بغير دين، فقد جعل الفناء لها قرينا»، ثم يتبعهما بيتين من رباعيات الخيام: «إن لم أكن أخلصت في طاعتك، فإنني أطمع في رحمتك. وإنما يشفع لي أنني، قد عشت لا أشرك في وحدتك». كان صوت لقمان جميلاً فعلاً وهو يترنم بهذه الأبيات بألحان رياض السنباطي، ويذكر الجميع بليالي الست الخالية، التي ستغني الليلة ولكن لن يسمع أحد صوتها هنا. وكان لقمان يهيم فعلاً مع البيت الأخير، ويأخذ في ترديده وهو سارح بعيداً. وعندما علق عليه أحد الموجودين مداعباً، قائلاً إن الغناء حرام، أجاب بحزم: «ذلك عندما يدعو إلى معصية، وليس عندما يلين القلوب للطاعة». وامتدح أحدهم عذوبة صوته، وشبهه بصوت البلبل في صباح يوم ربيعي. فابتسم لقمان راضياً

وهو يقول: «لم أترك مسجداً في مكة والمدينة إلا وأذنت فيه، كانوا يسمونني بلال هذا الزمان». فعلق أحدهم مداعباً: «بلال وبلبل... كلاهما شجي الصوت. لِمَ لم تحترف الغناء يا لقمان، فربما أصبحت أشهر من طارق عبد الحكيم وجميل محمود، وربما حالفك التوفيق وغنيت في القاهرة وأصبحت أشهر من محمد رشدي وعبد الحليم؟»، فغابت البسمة عن وجه لقمان، وإن بقي وجهه مبتسماً وهو يقول، هازاً سبابته في الهواء: «لا يجوز طلب الرزق في الغناء... الغناء ترويح للنفس، وشفافية للروح، ودعوة للإيمان عندما يكون ملتزماً، ولا غير ذلك... ثم... من هو محمد رشدي هذا؟»، فضحك الجميع، وابتسم لقمان، ثم تشاغل بترتيب ما سوف يلبسه الليلة في الزيارة.

كان هذا هو ثالث خميس من أول كل شهر قمري يمر عليه في مكانه الجديد. كان يداعبه الأمل في مجيء والديه لزيارته، ولكنه لم يكن يعول على هذا الأمل كثيراً خشية أن يصدم كما حدث في أول خميس له هنا، حين توقع بما لا يدع مجالاً للشك في أن والديه آتيان لا محالة. ولكنهما لم يأتيا ذلك الخميس، فبرر ذلك ببعد المسافة بين المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية. وعندما لم يأتيا في الخميس الثاني، افترسه القلق بالكامل... هل حدث لهما أو لأحدهما شيء؟ لا يمكن أن يتحملا كل هذه المدة دون أن يرياه. وقد وطد العزم على تجاهل الأمر هذه الليلة، فإن جاءا فهو ما يتمناه، وإن لم يأتيا، فلم يكن يتوقعهما على أية حال. ولكنه سيجن إن لم يأتيا. سيتأكد من أن مكروهاً ألمّ بهما. وحاول أن يبعد هذه الهواجس من ذهنه، وانخرط في حلقة تنكيت وفكاهة كانت تتجمع حول لقمان.

وجاء وقت الزيارة بعد نهاية صلاة العشاء، وبرز رسول العقيد،

الوكيل حمدان، وبيده ورقة تحمل أسماء أصحاب الحظ السعيد لهذه الليلة. وقف عند باب الصالة وأخذ يصرخ بصوته الرفيع منادياً، ويأتيه الجواب المتحمس: «حاضر... حاضر...»، ثم يقفز أحدهم وقد ارتدى أفضل ما عنده ويقف خلف الرسول. حتى إذا ما تم استدعاء خمسة محظوظين، تقدمهم حمدان وغادروا إلى غرفة التحقيق حيث العقيد والزائرين. أليس غريباً أن تجتمع الجنة والجحيم في مكان واحد؟ غرفة التحقيق تتحول تلك الليلة إلى غرفة من غرف الجنة، وينقلب مالك بقدرة قادر إلى رضوان. ويعود المحظوظون الخمسة بعد فترة لا تتجاوز الربع ساعة، والابتسامات تعلو وجوه البعض، فيما تبتل عيون البعض الآخر، والجميع يحملون هدايا الزوار، ومن خلفهم يقف حمدان من جديد منادياً على «وجبة» أخرى من المحظوظين. جاء حمدان وعاد ثلاث مرات، ولم يسمع هشام إسمه من بين المحظوظين، فوطد النفس على الخيبة تلك الليلة، والقلق يحرقه كنار الحطمة، التي تطلع على الأفئدة، من الداخل. كان الزمن في غاية البطء والسماجة، وحمدان يذهب ويجيء كالزمن ذاته. يا له من كريه هذا الزمن، وحمدان معه. كان أيام التحقيق يمر سريعاً، إذ لا يلبث الصبح أن يتنفس، حتى يعسعس الليل، ويظهر الرسول على عجلة من أمره. أما اليوم، فقد طال تنفس الصبح وكأنه في نزهة، وها هو الليل يعسعس سريعاً وكأنه مجبر على ذلك، وحمدان لا يريد أن ينطق إسمه رغم تمنيه، في حين كان ينطقه وهو لا يريد. وبينما هو يتأرجح بين اليأس والرجاء، إذ هيء له أنه يسمع إسمه مدوياً في الصالة «هشام العابر... هشام إبراهيم العابر». وبقي متردداً للحظات بين المكذب والمصدق، حتى سمعه للمرة الثالثة، وكان صوت حمدان أعذب صوت سمعه في تلك اللحظة من حياته، بل

في حياته كلها. لم يكن يعلم أن اسمه جميلاً لهذه الدرجة حتى سمعه يتردد على لسان حمدان، أجمل مخلوقات الدنيا. قفز من مكانه بسرعة وهو يردد «حاضر... حاضر...»، ويلبس ثوباً أبيض على عجل، ويدس قدميه في الشبشب الأزرق إلى جانبه، وينطلق إلى حيث حمدان الذي كان غاضباً يتمتم بكلام غير مفهوم، ولكنها كانت تمتمة أشبه بالموسيقى.

اتجه الموعودون الخمسة بالسعادة إلى الخارج، مروراً بالبهو الرئيس الذي غص بقاطني الدور الأرضي وهم يسترقون النظر من وراء القضبان إلى قافلة السعادة. لم يكن يعلم أن المسافة بين المبنى الرئيس وغرفة العقيد بهذا الطول والبعد، فقد كانت قصيرة جداً أيام التحقيق. أدخلوا الخمسة إلى الغرفة الأخرى، وأغلقوا الباب عليهم، فيما جلس عوض على المكتب الخشبي وهو يشرب كأساً من الشاي، وينظر إليهم دون أي تعابير معينة على وجهه. وجاء حمدان، واستدعى أحدهم، ثم غاب وعاد بعد حوالى الخمس دقائق ليستدعي آخر. كان هشام يحترق في داخله، ولكن لا بد من الصبر. وأخيراً استدعاه حمدان، فدخل إلى غرفة العقيد، وهناك كانت أمه وكان أبوه. كان العقيد يجلس على مكتبه وهو في غاية الأناقة، يحتسي بيالة شاي، ويبتسم بمودة. وكانت ثلاثة كراسي قد صفت أمام مكتبه جلس والديه على إثنين منهما، فيما بقي الثالث فارغاً. لم يكن جلجل موجوداً، ولكن شبحه كان يحوم حول المكان. وما أن أطل من باب الغرفة، حتى هبت أمه وقد نسيت وقارها، وسقطت عباءتها السوداء من على كتفيها، واحتضنت هشام بقوة، وأخذت تقبله في كل مكان يصل إليه فمها، وتشمه بشوق أشبه بشوق مدمن إلى مخدره، فيما كانت عيناها قد تحولتا إلى نبع ماء مالح لا

يتوقف. خلال ذلك بقي والده واقفاً، وقد ضم كفيه في وسطه، وهو ينظر ويغالب مشاعره التي يعلم هشام أنها في حالة احتراق كامل، ولكنه يجب أن يبقى رجلاً في كل المواقف، وكأن رقة المشاعر تتناقض مع الرجولة. ولكن هكذا هو والده دائماً... نجدي دائماً مهما كانت الأحوال، هكذا تربى، وهكذا يعيش، وهكذا سيموت. وتملص من أمه بالقوة، واحتضن أباه، وطبع قبلة طويلة على جبينه البارد، وطعم العرق المالح يتشبث بشفتيه، فيما أجبر والده نفسه على طبع قبلة سريعة على خده. وجلس الثلاثة والأم لا تزيح نظراتها المبتلة عن هشام، وقد أمسكت بكفه ودفنتها بحنان ودفء بين كفيها، فيما والده يبتسم ابتسامة باهتة وينظر إليه متفحصاً، وهو يغالب دموعاً تريد أن تفر من عينيه. وبقي الجميع في حالة من الصمت أبلغ من أي كلام، حتى قطعه العقيد قائلاً وهو ينظر إلى الأم، التي أعادت العباءة إلى رأسها، ولكنها نزعت الخمار الذي كان يحول بينها وبين رؤية هشام كما تحب:

ـ والله يا ستي، نحن نعاملهم هنا وكأنهم أولادنا...

ويستمر الصمت.

ـ نقدم لهم طعاماً أفضل مما في بيوتنا.

ثم وهو يضحك برقة:

ـ حتى أني أنا نفسي أتناول من طعامهم بعض الأحيان، فهو أفضل من طعام المعزبة عندي في البيت...

ويستمر الصمت.

ـ وفواكه طازجة أيضاً...

ويستمر الصمت، فيصمت العقيد. وتستمر الأم في النظر إلى هشام

وهي لا تزال قابضة على كفه بين يديها، وتجوس بنظراتها كل أجزاء جسمه. كانت نظرات أمه تتحدث بلغة لا علاقة لها باللغة، وكان هشام يتقن هذه اللغة جيداً، فقد رضعها مع لبنها منذ أن خرج إلى الحياة صارخاً. كان يعلم أن أمه تود أن تصرخ وتقول: «ما بال وجهك مصفراً، وأين شعرك اللامع المسترسل الطويل، وما هذا الذبول في عينيك، وأين تلك الوجنات المتوردة... أين أنت يا هشام، وماذا فعلوا بك؟». لم تقل أي شيء من ذلك، ولكنها قالته عندما زفرت بعمق وقوة وهي تقول بانكسار:

ـ هل أنت بخير يا ولدي؟..

ـ الحمد لله يا أمي... بكل خير وعافية، لا تقلقي بشأني.

إنه يعلم أنها تقول في نفسها الآن: «إن لم أقلق بشأنك، فبشأن من أقلق؟!..»، فيما بقي والده صامتاً، ولكنه يعلم بعض ما يجول في خاطره. كان يتقن لغة أمه غير المحكية أو المكتوبة تماماً، أما أبوه فقد بقي فيه الكثير من الألغاز التي لم يستطع حتى الآن فك طلاسمها، ولن يستطيع، ولكنه يحبه ويحترمه كما هو. وسادت لحظة من الصمت وأدها العقيد وهو يقول:

ـ لا تقلقي يا سيدتي... إنهم أبناؤنا. وهل هناك من يؤذي أبناءه؟

ونظرت الأم بسرعة إلى العقيد نظرات نارية سريعة، لا ريب أن العقيد قد قرأ ما تحمله، ثم عادت بكليتها إلى هشام، فيما كان العقيد يقول:

ـ إن الوالد يعاقب أبناءه لأنه يحبهم، ولأجل ذلك هم هنا... لأننا نحبهم ولا نريد لهم إلا الصلاح والبعد عن الانحراف.

وهنا قالت الوالدة بحدة:

ـ هشام تربية يدي، ليس من المنحرفين أو الفاسدين.

وفوجىء العقيد بحدة الأم، فيما قال الوالد بسرعة وهو ينظر إلى العقيد ويبتسم:

ـ أعز الله الدولة، هذا هو العشم.

فابتسم العقيد دون أن يحول نظراته عن الأم التي عادت إلى فحص هشام بنظراتها الملتهبة. وعاد الصمت إلى التحكم في الزمان والمكان، فيما كان العقيد ينظر إلى ساعته، ويجيل النظر بين الوالدين ويقول:

ـ أرجو المعذرة يا جماعة... ولكننا تجاوزنا وقت الزيارة المسموح به، باستطاعتكم زيارته في المرة القادمة، وأعدكم أنها سوف تكون أطول...

قال ذلك وهو ينظر إلى وجه الأم مباشرة، ثم يبتسم وينظر إلى الوالد وهو يقول:

ـ ولعلكم لا تحتاجون إلى زيارته، فقد يخرج قبل ذلك إن شاء الله.

فغمغمت الوالدة قائلة وهي تنهض: «الله كريم... الله كريم...»، واحتضنت هشام مرة أخرى، ثم عدلت من عباءتها، وأضفت الخمار على وجهها وهي تقول لهشام: «ألا تريد شيئاً يا ولدي؟..»، فلم يترك العقيد مجالاً للرد وهو يقول وقد هم بالوقوف: «إنهم في غير حاجة لأي شيء يا سيدتي، كل شيء موجود، أعز الله الدولة»، ثم مد يده مصافحاً الوالد. وقبل هشام رأس أمه مرة أخرى، ثم قبل جبين والده الذي دفع إليه كيساً ورقياً ضخماً وهو يقول: «إن كنت بحاجة إلى أي شيء أرجو أن تخبرنا، مع ثقتي أن الجماعة هنا ما يقصرون...»، قال ذلك وهو

ينظر إلى العقيد الذي كانت أسنانه البيضاء تبرق من خلال فمه وهو يهز رأسه موافقاً. وجر الوالدان نفسيهما جراً وهما يخرجان، فيما كان العقيد يشعل سيجارة أخذ يمتصها وهو يمد يده إلى الكيس الورقي، ويخرج منه محتوياته: بعض المعمول بالتمر، غيارات داخلية، ومجموعة من المجلات، كان بينها مجلد من مجلات «سوبرمان». التقط العقيد مجلد سوبرمان وأخذ يقهقه وهو يقول:

ـ عاملين لي ثورجية وأنتم شوية عيال...

وأخذ يضحك من جديد، فيما كان هشام يشعر بحرج وخجل شديدين، وتمنى في لحظتها لو أن والديه لم يزوراه. إنه يعلم أن والده هو من اشترى المجلد، ليس لعلمه أن هشام يحب قراءة سوبرمان، فذاك أمر مفروغ منه، ولكن ربما لهدف آخر. إنه يريد أن يقول إن هشام ما زال صغيراً أو غراً، والدليل على ذلك أنه لا يزال يقرأ مجلات الأطفال في عرف أبيه. وأعاد العقيد سوبرمان إلى الكيس، ثم أخذ يقلب المجلات وهو يقول: «هذه ممنوعة»، ثم وضعها جانباً فيما كان حمدان يطل من وراء الباب.

كان في غاية السعادة والألم حين عاد إلى مكانه، فقد اطمأن على والديه على الأقل. كم كان يود لو أن العقيد سمح بالمجلات، فقد كان واضحاً أن شيئاً ما يجري في مصر والأردن، فقد احتلت صور الرئيس أنور السادات والملك حسين أغلفة المجلات كلها. تناول بعضاً من المعمول، ووزع الباقي على من حوله، واستلقى على فراشه يتابع مغامرات الفتى الجبار مع كتيبة الجبابرة في القرن الثلاثين، وهو يتلفت بين الحين والآخر في كل الاتجاهات، ويحاول إخفاء غلاف المجلد عمن حوله، وغادر المكان إلى حيث المكان.

ـ ٢٦ ـ

كلما دارت الأيام في بيت الموتى ومقر الأشباح، أدرك أن عمر الأحياء لا يقاس بالسنين، بل بالمشاعر والأحاسيس. فدقات الساعة، وحركة الشمس والقمر، وتوالي الليل والنهار، وتعاقب الفصول، ليست إلا مقياساً صنعناه صنعاً للزمن، وما الزمن إلا حركة الأشياء الجامدة من حولنا. أما العمر، فهو زمننا نحن، حركة الأشياء الحية، وليس ما يقال لنا إنه زمن. لحظة ألم حي تعادل قرناً من زمان جامد، وقرن سعادة حي قد يعادل لحظة زمن جامد من زمن الأشياء. صار له الآن شهوراً في «الكراديب» لا تبلغ السنة في مقياس الأشياء، ولكنه يحس أنه هنا منذ أن حشر الإله الروح في جسد آدم. إنه يحس في داخله أنه كان معاصراً لقابيل وهو يقتل أخاه، ولنوح وهو يصارع أمواج الطوفان، ليونس وهو يصيح في بطن الحوت، ولأيوب والدود ينخره، وليوسف في الجب، والمسيح وهو يصيح مصلوباً، والنبي الأمي وهو يشكو، والحلاج وهو يصلب، وجان دارك وهي تحرق. إنه يحس أنه قد تحول إلى الإنسان، بعد أن كان مجرد إنسان. لقد أنضجته لحظات الكراديب، فلم يعد ذلك المراهق الذي تصفه كتب علم النفس، ولم يعد الشاب الذي يجب أن يكون، ولم يعد يدري حقيقة ما هو أو من هو، رغم علمه بأنه إنسان. ولا يدري أهذا نضوج أم احتراق، لقد فقد القدرة على التمييز بين الأشياء، عندما تداخلت الأشياء واختفت تلك الشعرات الرفيعة التي تفصل بينها. أو قد جن؟ لا يدري، فمن هو القادر على التفريق المطلق بين الجنون والعقل. قد يكون عاقلاً جن، وقد يكون مجنوناً عقل، ولكنه لا يدري في أي الحالين هو. هل كان حكيماً أدرك العبث

المحيط، أم عابثاً وصل إلى الحكمة من حيث لا يدري؟ ربما لا هذا ولا ذاك، ولكنه لا يدري، فإذا كان الفرق بين العبقرية والجنون مجرد شعرة، فإن الفرق بين الحكمة والعبث قد يكون أحد من ذلك. لم يعد يدري ما هي الحكمة وما هو العبث، فقد اختلطت الأمور وغاب المعنى، ولكنه باق يطل برأسه بين الفينة والفينة. قد يكون العبث حكمة لا ندريها، وقد تكون الحكمة عبث خبيث، وقد يكون الأمر مجرد أسماء سميناها لأشياء وأمور لا وجود لها. قد تكون معرفة العبث هي غاية الحكمة، وقد لا يكون العبث إلا عاصفة رملية عابثة تخفي صفاء الينابيع من ورائها. قد لا تكون إلا الصدفة العمياء هي الأساس وهي المآل، وما بينهما خال من أي معنى، فلا هو حكمة ولا هو عبث. ما هي الحياة، وما هو الكون، وما هو النظام، ومن أنا ومن أنت؟ إنه لا يدري ولا يدرون مهما ادعوا غير ذلك. تاريخ طويل من المعاناة، وقصير في حركة الأشياء، ونحن نحاول أن نفهم سر ما يجري، ولكننا ننتهي إلى صخرة سيزيف، ويبقى السر طلسماً قاتلاً من طلاسم سليمان الحكيم، وتعويذات وزيره أصف بن برخيا العابثة. أليس عبثاً كل ذلك؟ محاولات لفرض نظام على ما لا نظام له، والمعنى على ما لا معنى له، والمنطق على ما لا منطق له؟ النظام، المعنى، المنطق، لم لا تكون أمور صنعناها بدافع الغرور والضياع، وهي ليست من تلك الأسماء التي علمها الإله لصنع يديه من الطين، ونفسه الذي يتردد في ذلك الطين. وإلا، بأي منطق يموت طفل صغير لم يكد يتنسم ريح الحياة وأريج الزهور؟ إن كان هناك منطق ومعنى في وجوده، فكيف يختفي قبل أن يمنح فرصة الوجود؟ وإن يكن هناك منطق في موته، فلماذا يوجد أصلاً؟ وإن لم يكن هناك منطق في وجوده أو في موته، فلماذا يوجد ويموت؟ بل بأي منطق تموت ذبابة

حقيرة نسحقها لأنها مؤذية ولا تستحق الحياة؟ إذا كانت مؤذية ولا تستحق الحياة، فلماذا وجدت؟ وإذا كان لها حق في الحياة، فلماذا تُقتل؟ من الذي يحدد من يؤذي من؟ هل ما يجري هو حكمة خافية لا ندريها، أو أنه مجرد عبث اعتدنا عليه فأصبح نظاماً، أم هو مزيج منهما، أم لا هذا ولا ذاك؟ أين المعنى في كل ذلك وما هو النظام؟ لا أحد يدري، ولن يدري أحد، فربما كُتب علينا أن نعيش ونموت ونحن ملفوفون في خرق بالية من الجهل والضياع. قد لا يكون ذلك الجهل جزءاً من الحكمة الخفية، أو من العبث المعربد، ولكنه يبقى جهلاً. فالحياة في خاتمتها ليست إلا رموزاً وطقوساً وإشارات، ولكن من يفهمها وقد فقدنا القدرة على الفهم، وكان الجهل هو القدر وهو المصير. كل ما يدري الآن أنه ليس هو. ليس هشام الذي جاء قبل شهور من زمان الأشياء، ودهور من زمان الأحياء، بل هو شخص غريب عنه لا يعرف عنه إلا أنه يحاول معرفته كما يحاول هو معرفته، لا يدري هل يلتقي الشخصان.

- ٢٧ -

- يا شيخ. . . دعك من هذه المثاليات الميتافيزيقية.

قال عبد الله وهو يرتشف الشاي بعد إفطار يوم قائظ من أيام حزيران:

- أي إنسان هلامي هذا الذي تتحدث عنه، إنه أشبه بكتلة لحم دون شكل أو مضمون أو روح. . . حدد أبعاده وأنا أحدد أي إنسان هو. موقعه الطبقي وموقفه هما من يحدد كينونته.

- إني أتحدث عن الإنسان.

قال هشام وهو ينفث الدخان في الهواء:

- أنا أتحدث عن الإنسان الذي هو من لحم ودم ومشاعر وأحاسيس، بغض النظر عن الأبعاد التي سجنه فيها القدر... أو الظروف إن شئت. وما عدا ذلك فهو إضافات اخترعناها ولكنها ليست جزءاً حتمياً من الإنسان. ما يهمني هو الإنسان وحيداً وعارياً... بالضبط كما يولد وكما يموت، وكما يُبعث ويحاسب، فيعاقب أو يثاب حسب ما يقول به الدين. يأتي فرداً، وينتهي فرداً، ويعاني فرداً، ولا أحد يدرك ما يعتمل داخله إلا هو.

- معذرة يا رفيق... أعني يا هشام...

قال عبد الله وهو يحاول أن يكون هادىء النبرة:

- أي إنسان هذا الذي تتحدث عنه؟.. الإنسان لا يكون إنساناً إلا في ظل مجتمع وتاريخ. إنه كائن اجتماعي كما قال أرسطو، فمن يستطيع الاستغناء عن المجتمع، إما أن يكون إلهاً أو بهيمة... ولكن الإنسان أدنى من الأول وأعلى من الثاني.

ثم وهو يلقي ما تبقى من الشاي في جوفه، ويحرك يده في الهواء وكأنه يضرب بسيف:

- كون الإنسان كائناً اجتماعياً مسألة محسومة... فبعيداً عن الحاجة إلى المجتمع، فإنه لا تتحدد معالمه دون تحديدها اجتماعياً. الفرد يولد في إطار طبقة اجتماعية معينة، وهذا الإطار الطبقي هو الذي يحدد موقعه ووضعه في الحياة، فالحياة هي المجتمع. وفي النهاية، فإن الإنحياز إلى هذه الطبقة أو تلك، هو الذي يحدد المواقف وبالتالي

الوعي... الوعي وعي طبقي أولاً وآخراً، وهذا الوعي هو الذي يشكل المعنى لدى الإنسان الذي يريد جنابك تجريده من كل ما تسميه إضافات لاحقة.

وأخذ عبد الله نفساً عميقاً وهو يغمض عينيه، ثم يقول:

- والإنسانية الحقة هي أن تنحاز إلى الطبقة التي تمثل التطلعات التقدمية في فترة من الفترات حتى ولو لم تكن من المنتمين إلى هذه الطبقة بالميلاد... هذا هو الوعي الإنساني الحق، إنه وعي طبقي أيضاً، وليس تجرداً من الطبقة والمجتمع كما يحاول جنابك أن يفعل. لقد فعلها الفلاسفة قبلك، وحاولوا البحث في جوهر الإنسان وطبيعته بتجرد ظاهر، ولكنهم كانوا يعبرون في الحقيقة عن وعي وأفكار الطبقة السائدة في زمانهم، ولكن ماركس أتى وفضح كل ذلك... لقد بين أن كل الفكر هو ايديولوجيا طبقية بالضرورة، وأن الوعي السائد هو وعي الطبقة السائدة، ولذلك قدم فكره بصراحة على أنه وعي وفكر الطبقة الصاعدة، البروليتاريا... الطبقة التي بتحرير نفسها تحرر الإنسانية جمعاء. لقد فضح ماركس السابقين، وقدم الوعي الصحيح للاحقين، وما زلت أنت يا سيد هشام أسير الوعي الزائف والمقولات الفارغة. يؤسفني أن أقول إنك جاهل، وتحاول أن تغطي جهلك بتأملاتك الجوفاء. أو لعل السجن أثر على خلايا دماغك.

وصمت عبد الله، وقد رسم على فمه ابتسامة ساخرة، فيما أخذت حبيبات العرق تنسلق على صلعته اللامعة، ثم مد رجليه وأسند ظهره إلى الجدار، وهو لا يزال ينظر إلى هشام تلك النظرات الساخرة، فيما البسمة الباهتة لا تريد أن تفارق فمه. أحس هشام بالمهانة، وأخذت النار تتأجج في داخله، وود لو كان بإمكانه صفع هذا الثقيل الذي يعتقد أنه ملك

الحقيقة، وأغلق عليها في صندوق من ذهب. ولكن، ألم تكن يا هشام بنفس الفكر والحماس في السابق؟ بل ألا تتمنى لو كنت بذات الحماس والثقة فيما تقول اليوم، كما عبد الله؟ إنه يحسد عبد الله بشكل من الأشكال، ويتمنى لو كان مثله، ولكن المصيبة أنه لا يستطيع. إنه لا يتمنى أن يكون مثل عبد الله فقط، ولكن مثل وليد أو لقمان، ولكنه لا يستطيع حتى لو أراد.

من قال إننا أحرار؟ من قال إن الإقناع العقلي هو طريق الإيمان؟ كله هراء في هراء، ويبدو أن الغزالي كان مصيباً حين أدرك أن الإيمان، سواء بالله أو بغيره، مسألة لا علاقة لها بعقل أو بإرادة أو باختيار. إنها مسألة تأتي هكذا، دون إرادة أو عزم، كالقدر والحتم سواء بسواء. ربما كان هناك تفسير عقلي أو علمي لذلك، ولكننا لا ندري. وطالما أننا لا ندري، فلا وجود لما لا ندريه... الوعي بالشيء هو دليل وجوده، وبغير ذلك، لا وجود له. ولكنه يحس بكره غير قادر على السيطرة عليه تجاه محدثه على الجانب الأيسر. في كلامه الكثير من المعقولية، ولكن هناك شيء في داخله لا زال غير مطمئن، رغم أنه يريد من أعماق قلبه أن يقتنع بما يقوله عبد الله. ورغم ما يعتمل في داخله من عواصف وأعاصير، طوفان ونار، إلا أنه حاول أن يستجمع شتات نفسه وهو يقول:

ـ أتدري ما المشكلة يا عبد الله؟.. أم أقول الرفيق أبو محجن؟

وضحك عبد الله وهو يسمع اسمه الحركي، وتلمع عيناه برضا، فيعتدل في جلسته ويغمغم بكلمات لم يفهمها هشام، ثم يقول: «ها ما عندك يا حكيم زمانه»، فيبتلع هشام السخرية ويقول:

مشكلتنا هي اللجوء إلى الآخرين...

ولمعت عينا عبد الله ببريق عدم الفهم، وواصل هشام:

ـ عندما نفكر أو نريد حلاً لهذه المشكلة أو تلك، فإننا نلجأ إلى الآخرين... الآخريـن في الزمان أو المكان، الذي ننتمي إليهم بحكم الميلاد أو غيره، أو الذين لا ننتمي إليهم بحكم الميلاد أو غيره، لا فرق... نلجأ إلى كل هؤلاء وننسى أنفسنا. ننسى اللجوء إلى تجاربنا واجتهاداتنا، نحن يا من يعيش المشكلة ويعانيها.

وهز عبد الله كتفيه باستهانة وهو يقول:

ـ وما العيب في ذلك؟.. ما ضير ذلك؟

ـ لا عيب إطلاقاً، ولا ضير إطلاقاً... الإنسانية واحدة في كـل زمـان ومكـان. ولكن يجب ألا نفعل ذلك على حساب ذواتنا الخاصة وتجاربها ومعاناتها وانفعالاتها. نحن من يعاني، ونحن من يتألم، ونحن من يبحث عن حل. الإنسانية واحدة نعم، ولذلك يجب أن نكون جزءاً منها وليس تابعاً لها. أكيد أنك تعرف ذلك المثل القائل: «غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون»...

وهز عبد الله رأسه بملل وعجل، فيما واصل هشام:

ـ مثل يعبر عن كل شيء، ولكننا جعلناه: «غرسوا فأكلنا، وغرسوا فيأكلون».

ـ ولكنهم عاشوا كما نعيش، وعانوا كما نعاني!..

ـ نعم... ولكنهم يبقون هم لا نحن. حاولوا التعبير عن عيشهم بالرجوع إلى أنفسهم، ولكننا نحاول العيش بالرجوع إليهم، ولذلك عاشوا حياتهم، بينما نحن نعيش حياتهم لا حياتنا.

ـ هذا تفكير فوضوي، بل هو عدمي. . . أتعني تجاهل التجارب الاجتماعية في المكان والزمان؟

ـ على الإطلاق. . . ما أعنيه هو أن تكون تجاربنا هي الأساس مع الاستفادة من تجاربهم، لا أن تكون تجاربهم هي الأساس وتجاربنا مجرد تكرار ممل.

ثم وهو يبتسم بسمة واسعة:

ـ نحن هنا مطالبون بما طبقه ماركس على فلسفة هيغل. . . ألم يقل ماركس أن فلسفة هيغل كانت تقف على رأسها، فأعادها للوقوف على رجليها؟. . هذا هو بالضبط ما يجب أن يكون في تعاملنا مع آخرنا وآخرهم في الزمان والمكان. . .

وزفر عبد الله بشدة وهو يقول متململاً:

ـ تأملاتك الفوضوية تعني هدم العلم. . . أليس العلم قائماً على التراكم؟

ـ ليس بالضرورة. . .

قال هشام وهو يتنفس سيجارته بعمق:

ـ هناك نظريات ترى أن العلم وتطوره يقومان على الانقطاع وليس التراكم. . . وعلى أية حال، أنا لم أقل بالتجربة الذاتية المنعزلة، أنا أقول بالاستفادة من السابق وليس هيمنته وعبوديته. ومسألة العلم هذه دليل على ما أقول. فلو اكتفى اللاحقون بما فعل السابقون، لما كان هنالك حضارة وإنسان. . . ولكننا في الأمور الأخرى نكتفي بما فعل السابقون، فنبقى أسرى لهم. لو أن ماركس اكتفى بما قال هيغل لما كان ماركس، ولو أن هيغل اكتفى بأرسطو لما كان هيغل. . .

ـ هذه هي البديهيات.

قال عبد الله وهو يهز يديه في الهواء:

ـ والبديهيات لا تحتاج إلى كل هذه الفذلكة.

ـ لعل ما ينقصنا هو البداهة والرجوع إليها. . . وقد لا يكون ما نظنه بداهة هـو مـن البداهة بالفعل.

ـ دعك من هذا الهراء.

قال عبد الله وهو يهز سبابته في وجه هشام:

ـ كل ما تقول هو مجرد مكابرة بعد أن أفحمتك.

وابتسم هشام وهو يقول:

ـ وهل تعتبر أن الافحام هو الهدف؟. . ثم ما أدراك أن ما نسميه هراءً هو الحق بعينه؟

ـ بعينه والا بخشمه. . . دعك من بيزنطياتك وسفسطاتك وحدثني عن صاحبك الإنسان. ما هو لونه وطعمه ورائحته إن لم يكن جزءاً من كيان اجتماعي، من جماعة، من طبقة. . .

ـ ومن أمة، الأمة هي الأساس.

كان ذلك صوت وليد الذي كان يحك زيتونة ثم ألقى بها بعيداً وجلس بين هشام وعبد الله.

ـ بالطبع، وأمة. . .

قال عبد الله:

ـ فالأمة كيان اجتماعي أيضاً يتحدد من خلاله الوعي، وهذا ما يفرق بيننا وبين الشيوعيين التقليديين الذين ينكرون الأمة، وبين القوميين

التقليديين الذين يقدسون الأمة ويضعونها فوق حركة المجتمع وقوانينه.

وبعد أن ازدرد ريقه:

ـ أي إنسان هذا الذي تتحدث عنه يا سيد هشام إن لم يكن ضمن جماعة ما... الإنسان كيان لا فرد، وما عدا ذلك هراء لا نفع فيه.

قال ذلك، ثم نظر إلى وليد الذي أخذ يهز رأسه موافقاً، واسترق النظر إلى لقمان الذي كان يتلو القرآن وهو يهز رأسه يمنة ويسرة دون توقف. ثم استرخى قليلاً، وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تحتل كامل وجهه عندما يشعر أنه قد أتى بفصل الخطاب.

ـ الإنسان... ما هو الإنسان؟

أخذ هشام يردد ذلك وهو ينهض لإشعال السيجارة المليون، ثم عاد وقال قبل أن يستقر به المقام:

ـ سؤال صعب... يحتاج إلى تفكير.

وضحك عبد الله وهو يقول:

ـ فكر ما شئت يا زرادشت... أم هل أقول النبي يا سيد جبران.

وابتسم وليد على استحياء، فيما لاحت بسمة على وجه لقمان دون أن يتوقف عن التلاوة، وأحس هشام بالمهانة تعتريه، وذلك الكره يجتاحه من جديد، فأخذ يمتص السيجارة بقسوة، ثم سحقها على الأرض وقد أحس كأنما تناول كأساً كبيرة من زيت الخروع. ابتلع ريقه بصعوبة، وحاول التحكم في لوزتيه المتضخمتين، والجفاف الذي غزا حلقه، وقال:

ـ أنا لا أدعي مثل هذا الفخر... إن كان هناك فخر في ذلك، فلم

يكن نيتشه ولا جبران أفضل منا. لقد كانا يفكران. وهذا هو ما ينقص البعض.

وانتفض عبد الله في جلسته وكأنما لدغته عنكبوتة سوداء شبقة، وأخذ ينظر إلى هشام لفترة، ثم أسند ظهره إلى الجدار من جديد وقد تحول وجهه إلى أشبه ما يكون بليمونة معصورة لتوها، فيما كان شيء من السرور والرضا يعيدان بعض الحياة إلى وجهه، والبريق إلى عينيه.

وساد صمت قلق، وأخذ الجميع يتصنعون الإنصات إلى صوت لقمان العذب وهو يتلو سورة «مريم»، فيما كان كل واحد مسافراً في رحلة ذاتية في الحقيقة. وطال الصمت، فنهض عبد الله وأخذ يلعب الشطرنج مع زميل بعيد، فيما عاد وليد إلى حك نواة جديدة، وبقي هشام مضطجعاً وهو يستمع إلى لقمان يتلو: ﴿**كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداءً خفيا * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكُ بدعائك رب شقيا * وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون له غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا**...﴾.

ويأتي الطعام ويلاك، ثم يلفظ. وتغرب الشمس كالعادة، ويحين وقت النوم، فتصدر الأوامر، ويلبد الجميع في فرشهم كالعادة، والأنوار مضاءة، وحارس يذهب وآخر يجيء كالعادة. ويضطجع هشام على فراش لا يعرف كم ضاجع في السابق من أجساد، وكم سيضاجع في

اللاحق. ويطول الوقت، ويسود الصمت، وخطى الحارس تذهب وتجيء موحية بسريان الزمان. وتتسلل خيوط ذهبية لا تعترف بقضبان، ويأتي أمر الحارس بالنهوض، فتدب الحياة في المكان، وتتشكل الطوابير، وتزدحم الأبواب، وتمتلىء المراحيض. ويأتي الطعام، فتصدر الأوامر فيوزع، ثم يلاك، ويستعدون للإفراغ من جديد. وتستمر الأوامر، وتستمر الحركة، ثم تنتهي الأوامر فيعود كل إلى نفسه. لم تكن الأوامر في الدور الثاني بصرامة الأوامر في الدور الأرضي، ولكنها تبقى أوامر.

ـ لا أحسب أنك نمت ساعة واحدة.

قال عبد الله وهو «يتربع» على فراشه ويحتسي شايه بلذة. ابتسم هشام وهو يقول:

ـ وماذا الذي يدعوك إلى مثل هذا الاستنتاج؟..

وابتسم عبد الله بثقة الخبير وهو يقول:

ـ المسألة واضحة... عيناك حمراوان كقرص الشمس لحظة الانحدار.

ـ يا له من تشبيه آسر.

قال هشام وهو يبتسم:

ـ إذن فالحمرة قد تكون مؤشر موت؟..

ـ هي كذلك... فالدم المسفوح أحمر.

ـ إذن لِمَ التعنت؟

وتوقف عبد الله عن ارتشاف الشاي، وقال ببلاهة:

ـ لم أفهم ما تعني.

ـ أعني لماذا تصنفون الألوان فتجعلون الأحمر تقدماً، والأبيض تأخراً، والأخضر تخلفاً، رغم أنها لا تدل على ذلك بطبيعتها. بل بالعكس، قد تعطي طبيعتها انطباعاً مخالفاً... فالأبيض دوماً كان رمز النقاء، والأخضر رمز النماء، والأحمر رمز الخطر...

وضحك عبد الله، وأخذ رشفة كبيرة من كوبه قبل أن يقول:

ـ يا لك من سطحي يا هشام. لقد ذهب بك هذيانك بعيداً.

واستمر يضحك لفترة قبل أن يقول:

ـ تلك أمور اصطلاحية، فلا الأحمر بذاته يعني شيئاً ولا غيره من ألوان... هل فهمت يا سيد ديوجين.

وعاد إلى الضحك من جديد، فيما قال هشام:

ـ هي كذلك إذن؟..

ـ بالطبع يا أستاذ هشامقريطس.

ـ أوليست الأمة والطبقة كذلك... مجرد مفاهيم مصطلح عليها لا علاقة لها بذات الإنسان؟

وتوقف عبد الله عن الضحك، وأخذ يهز سبابته في وجه هشام وهو يقول:

ـ أنت خبيث... أنت خبيث... أخبث مما كنت أتصور. ماذا تعني؟

ـ أعني، لماذا لا تطبق المعايير نفسها على الإنسان، أي تعتبره إنساناً أولاً، ثم تضيف إليه ما شئت من مفاهيم، ولكن بشرط أن تعلم دوماً أنها مفاهيم اصطلاحية، وليست من ذات الشيء.

وبدمدمة تكاد لا تتضح، قال عبد الله:

ـ ما زلت لا أدري عما تتحدث... ماذا تقصد؟

كان واضحاً أن عبد الله قد فهم المقصود، وأن عقله يعمل بشكل سريع، ولكنه كان يحاول البحث عن إجابة مقنعة، فقال هشام وهو منتشياً بانتصاره الآني:

ـ بكل وضوح ممكن... لماذا لا نتعامل مع الإنسان بصفته إنساناً أولاً، أي صفته الأولى التي خرج بها إلى الحياة، ثم تأتي اللواحق كأن يكون بروليتارياً أو برجوازياً، عربياً أو أعجمياً؟.. نحن نتعامل مع الناس بصفاتها اللاحقة وننسى الصفة الأولى التي أتى بها إلى الحياة، ويخرج منها بها... لو بحثت في أعماق الناس المستورة لوجدتهم مثل بعضهم، ولكن قاتل الله اللواحق...

وضحك عبد الله وهو يقول:

ـ هل تريد أن تعرج بنا على فرويد وصحبه؟

فضحك هشام أيضاً وهو يقول:

ـ ولا فرويد ولا عبد المتجلي... أتدري من يطوف بخيالي الآن؟

ـ من يا صاحب الحكمة؟

ـ غاندي... المهاتما غاندي.

وبانت نظرات الاستغراب على وجه عبد الله وهو يقول:

ـ غاندي؟!.. قديس الهند... ما علاقته بكل هذيانك؟

ـ كل العلاقة...

قال هشام وهو ينفخ الدخان إلى الأعلى:

ـ عندما كان يتعامل مع النظام العنصري في جنوب افريقيا، ومع الاستعمار البريطاني في الهند، لم يكن يقسم الناس إلى مستعمِرين ومستعمَرين، طبقات وفئات وجماعات متصارعة، بل كان يتعامل مع الحس الإنساني المطمور في داخل الجميع... لم يكن يقاوم العنف بالعنف، لأن العنف يأتي بالعنف بشكل تصاعدي، ولكنه كان يتحمل عنف وقسوة الآخرين حتى الدرجة التي يستثير فيها حسهم الداخلي بالتعاطف معه، ومن ثم يدركون أنهم مخطئون وظالمون... وقد نجح.

وضحك عبد الله ساخراً وهو يقول:

ـ لم تجد إلا غاندي مثالاً؟.. لو كان غيره هو الزعيم، لما احتاج تحرير الهند إلى كل هذا الوقت الطويل، بالإضافة إلى أن ما فعله غاندي وانتصاره مجرد استثناء لا قاعدة...

ـ قد يكون استثناءً ولكنه دليل على أن الحس الإنساني موجود لدى الجميع بغض النظر عن مواقعهم اللاحقة.

ـ ولكن بريطانيا لم تغادر الهند إلا بعد أن أصبحت السيطرة عليها مكلفة... لقد رحلت بريطانيا لأسباب اقتصادية وليس إنسانية يا أبا العريف.

ـ هذا صحيح... ولكن تعاطف ولو جندي واحد من الجيش البريطاني المحتل هو دليل على ذاك الشيء المستور في ذواتنا، وتحجبه تلك اللواحق، التي تشكل كهفاً مثل كهف أفلاطون لا يجعلنا قادرين إلا على رؤية الظلال والأطياف...

وينهض هشام ثم يعود بسيجارة وهو يقول، كأنه يحدث نفسه:

ـ لقد سألتني البارحة عما أقصد بالإنسان، إن لم أحدده بأبعاد

اجتماعية أو سياسية أو غيرها...

وأراد عبد الله أن يقول شيئاً، ولكن هشام لم يمنحه الفرصة وهو يقول:

ـ يولد الإنسان عارياً حافياً، ثم يكسى بالملابس، وتحشر قدماه في حذاء... فالملابس والحذاء شيء مضاف لاحق، أليس كذلك؟

ـ نعم... نعم... ولكن!؟

قال عبد الله بآلية، ثم وهو يهز سبابته في الهواء:

ـ ولكنها ضرورية... لا يمكنك أن تنكر ذلك، إلا إذا كنت عضواً في نادي العراة.

وضحك الإثنان وهما ينظران إلى لقمان الذي يقلب بصره بينهما وبين المصحف، فيما كان وليد يتحدث مع جاره وهو يسترق النظر إليهما بين الفينة والفينة.

ـ معك حق.

قال هشام:

ـ اللباس والطعام والمأوى مسائل ضرورية وإن كانت لاحقة. ولكننا نمنحه القيـم والمعتقدات بمثل ما نمنحه النعيم والجحيم... حسب وضع العائلة الاجتماعي وحتى القومي، فالعامل السويدي أفضل حالاً من العامل الهندي، أليس كذلك؟..

ـ بالطبع.

قال عبد الله متحمساً:

ـ ولأجل ذلك يجب تغيير هذه الأوضاع، والوعي الزائد الذي يبررها.

ـ معك حق... ما تسميه وعياً زائفاً مرتبطاً بوضع هذه الطبقة أو تلك، أسميه وعيـاً لاإنسانياً يحجب الإنسان داخل الإنسان...

ـ أحس أحياناً أنك بدأت تعود إلى عقلك، ثم لا تلبث أن تهذي من جديد. المهم... خلصنا.

ـ هل القيم والمعتقدات والوضع الاجتماعي أشياء ضرورية؟

ـ ليست بضرورة الطعام والشراب، ولكنها ضرورية لقيام مجتمع، رغم أننا غير مخيرين فيها...

ـ وهل نحن مخيرون في أي شيء يا صاحبي؟..

ـ ماذا؟

ـ لا شيء... المهم... إن تلك الأشياء أمور مضافة إلى الوجود الأصلي.

وزفر عبد الله بشدة وهو يقول متبرماً:

ـ لنفرض ذلك، ونرى إلى أين تريد بنا.

ـ هناك فرق إذن بين الأصل وهو الفرد العاري الحافي، والمجتمع بصفته كياناً لاحقاً ليس جزءاً من ذات الإنسان.

ـ اها...

قال عبد الله وكأنه قبض على هشام متلبساً:

ـ ولكن الفرد بدون الجماعة لا يعيش.

ـ صحيح، ولكن الجماعة رغم ضرورتها، تخنق الفرد في النهاية رغم أنها ما نشأت إلا لأجله، فالملابس ضرورية، ولكن الكثير منها يخنق، والطعام ضروري، ولكن الكثير منه يقتل... المجتمع ضرورة،

ولكن عندما يتحول المخلوق إلى خالق، هنا المشكلة... أليس كذلك؟

وزفر عبد الله من جديد، وقد بان السأم في وجهه، غير أن هشام لا يكترث فيقول:

ـ المهم أن هناك فرقاً بين الأصل والإضافة. الفرد والمجتمع. هل توافق على ذلك؟

ـ فلنسايرك لنرى. نعم.

ـ كلا، لا أريد المسايرة. أريد الموافقة.

ـ خلاص... موافقين، خلصنا.

ـ هل هناك خط فاصل بين الفرد والجماعة؟

ـ ليس فاصلاً تماماً.

ـ هل باستطاعتنا تمييز الفرد من الجماعة؟

أظن ذلك.

ـ إذن لماذا لا نرسم مثل هذا الخط، طالما أننا قادرون على التمييز؟..

ـ لم أفهم...

ـ حسناً... أنا فرد أمامك. تحدثني وأحدثك. هل باستطاعتك أن تحدث المجتمع، أو تتناقش مع الجماعة؟

ـ بالطبع، اختلاف الآراء والتيارات والتوجهات هو حديث مع المجتمع... هو حديث الفرد للمجتمع، وحديث الجماعة مع المجتمع، وحديث المجتمع مع كل هؤلاء.

ـ أقصد، هل هناك كيان ملموس ومحسوس مثلي أنا الذي أمامك هو المجتمع، تتحدث إليه وجهاً لوجه؟

ـ تراك طولتها... إلى ماذا تريد أن تصل؟ قل وخلصني.

ـ باختصار... الإنسان لا يكون نفسه عندما يكون مقيداً بأي نوع من القيود. قيـود اجتماعية أو سياسية أو تنظيمية أو أي نوع من القيود التي تستر جوهر الإنسان فيه.

ـ هذه فوضوية فجة، وعدمية سطحية... بل لا يمكن أن تكون حتى عدمية سطحية، إنها سفسطة محصنة... أنت تريد النقاش وحسب، لا يهمك النتيجة ولا يهمك ما يدور فعلاً. هذا هو أنت عارياً إذا أردت الحقيقة.

ثم مستدركاً:

ـ ولا تدخل لي في جدل بيزنطي آخر حول الحقيقة وماهيتها ورجلها ويدها وخصوتها...

وأحس هشام بالحرج فعلاً، وبدأ العرق يتصبب منه غزيراً، إلا أنه قال بصوت حاول أن يكون طبيعياً، ولكن الارتعاش كان واضحاً في ثناياه:

ـ المسألة ليست كذلك. نحن نتناقش، فإما أن تقنعني أو أقنعك... بالمنطق.

وضحك عبد الله بصوت لفت الأنظار إليه، ثم قال:

ـ أليس هذا هو المنطق الذي تسخر منه يا سيد نقاشوف. لست إلا متفذلكاً منافقاً يا سيد هشام.

واحمر وجه هشام خجلاً، وصمت لبعض الوقت، وهو يحس في داخله أن هناك الكثير من الحق فيما يقوله عبد الله. فهو يحس بالضياع فعلاً، ولم يعد يدري أي شيء عن أي شيء. كان في الماضي موقن أنه كان يعرف كل شيء عن كل شيء، الأجوبة جاهزة والطريق واضح، ولكن كل شيء اليوم تحول إلى عتمة قاتمة لا يرى حتى يده خلالها. وبلا وعي منه، وجد نفسه يقول بصوت كأنه لا ينتمي إليه، صوت قادم من بعد آخر لا يعرف أين يقع ولا أين يكون:

ـ يبدو أننا لا نعرف أي شيء عن أي شيء... تاهت القيم، وضاعت المثل، وانعدم المعنى... نحن جيل اللامعنى والضياع رغم أن كل لافتاتنا تؤكد على المعنى وتبين الطريق. نحن جيل الضياع. وسوف نضيع أجيالاً تأتي من بعدنا، إن لم ندرك ما نحن فيه من ضياع...

ـ هذا إذا كان هناك أجيال أخرى.

قال عبد الله بلهجة يائسة مستسلمة، وكأنها صادرة عن شخص آخر وهو ينظر إلى نواة زيتون ملقاة على الأرض، وقد حُك نصفها. واستغرب هشام هذه اللهجة القادمة من شخص لم يكن عبد الله الذي كان يتحدث إليه قبل قليل، فقال بتلقائية:

ـ غريبة!.. أين عصاك السحرية يا رفيق صاعدوف؟

وأجفل عبد الله، وكأنه اكتشف حية آدم تحت فراشه، فقال وكأنه يفيق من نوم عميق:

ـ أقصد... أعني...

ـ دعك من النفاق الذي وصفتني به... كلنا منافقون يا رفيق. لقد تركت نفسك على سجيتها، فخرجت الحقيقة عارية، كما خرجت أنت عارياً منذ آلاف السنين... تجاوزت نفسك كل حجاب، فتحدثت دون وصاية.

ـ والله... الصراحة... يعني... والله...

وضحك هشام باقتضاب وهو يقول:

ـ ألا تلاحظ أنك تستخدم الله كثيراً وأنت ماركسي؟

ـ مجرد عادة... ترسبات الماضي.

ـ ولِمَ لا تكون رغبة دفينة؟

ـ بلا كلام فارغ...

قال عبد الله وهو يلوح بيده في الهواء، ثم نهض واقفاً، فيما هشام يقول:

ـ ولِمَ لا يكون ما نسميه كلاماً فاضياً هو الكلام المليان؟

ـ رجعت ربما... عدنا إلى السفسطة والبزنطة وزقزقة العصافير!!

ثم وهو يتجه نحو رفيق له في إحدى الغرف الداخلية، بعد أن تغير الحارس وجاء آخر ودود:

ـ أنت ضائع يا هشام... صدقني أنت ضائع وتحاول أن تفلسف ضياعك، ولكنه يبقى ضياعاً مهما حاولت. ليس هناك إلا الضياع أو الإيمان، فاختر أحدهما.

ثم وهو يمضي:

ـ هذيان بورجوازي يريد أن يهذي الجميع معه.

وترك هشام لوحده يدخن ويفكر. . . هل هو ضائع فعلاً ولكنه لا يدري أنه ضائع، أم أنه يدري أنه ضائع ويريد أن يضيع الجميع معه؟. . هل أن كل ما تمور به نفسه مجرد هذيان وتفاهات فكرية برجوازية كما يقول عبد الله، أم أن عبد الله هو الضائع ولكنه لا يدري؟. . إنه يعتقد أنه قد أمسك الحقيقة من تلابيبها، ولكن حقيقته تختلف عن حقيقة وليد وحقيقة لقمان. . . فأي الحقائق الثلاث هي الحقيقة، هذا إن كانت من بينها؟. . الضياع أو الإيمان. . . هذا ما قاله عبد الله، وعليه الاختيار بينهما، ولكن هل يستطيع؟ لو كنا قادرين على الاختيار، لما شقينا. وربما لأننا قادرون على الاختيار نشقى. رباه. . . رأسي يكاد يتحطم. . . وعادت إليه أمنية عارف قبل حين. . . ألا ليتني كنت عنزة تأكل من شجر البلدية في أزقة الدمام.

ـ ٢٨ ـ

كان صباحاً عادياً من أحد أيام حزيران، ولم يكن كذلك. إنه الخامس من الشهر. . . ذكرى هزيمة النفوس قبل الجيوش في ذلك الصيف المشؤوم من عام ١٩٦٧. اليوم تمر خمس سنوات على ذكرى الألم والجرح الذي لا يريد أن يندمل. إنه يذكر ذلك اليوم وما قبله بكل وضوح وكأنه كان ليلة البارحة، وليس قبل خمس سنين. كان يؤدي امتحان شهادة الكفاءة المتوسطة تلك الأيام، وكانت أجهزة الراديو لا تفارق الجميع الذين كانوا يتابعون أنباءً طالما انتظروها. فمنذ أن طلب جمال من يوثانت انسحاب القوات الدولية من سيناء وشرم الشيخ في السادس عشر من أيار، والمؤتمر الصحفي الذي عقده جمال في الثامن

والعشرين من أيار، وإغلاق مضائق تيران، ومجيء الملك حسين بطائرة يقودها بنفسه إلى القاهرة في الثلاثين من أيار، والإعلان عن قيادة مشتركة، ووضع الجيش الأردني تحت قيادة عبد المنعم رياض في إطار القيادة المصرية للجيش الأردني، والحشود المصرية والسورية والأردنية في سيناء والجولان والضفة الغربية، والجميع يتوقون إلى اليوم الذي تبدأ فيه المعركة، وتعود فلسطين. ورغم أن هذه الأحداث أثارت بعض التساؤلات في حينها، ولكن لا شيء يهم طالما أن نهاية إسرائيل باتت قريبة. لماذا كانت مضائق تيران مفتوحة طوال الوقت أمام الملاحة الإسرائيلية، طالما أنها جزء من المياه الإقليمية المصرية؟ وهذه القوات الدولية في سيناء وشرح الشيخ كانت موجودة طوال الوقت، ولكن لم يسمع أحد عنها قبل ذلك، فلماذا كانت موجودة طوال الوقت على أرض عربية قادرة على حماية نفسها؟ أسئلة كثيرة أثارتها تلك الأحداث، ولكن لا شيء يهم الآن، فكل شيء أكيد وواضح، فالقوات المصرية أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط، ولديها القاهر والظافر وغيرهما من صواريخ صنعتها أيدي عربية. واليهود ليسوا إلا أشتات مجتمعات في دويلة مزعومة لا تلبث أن تنهار وتفر بمجرد أن تلوح بيارق الفيالق العربية الظافرة. فذكرى المعركة الجوية بين الطيران السوري والطيران الإسرائيلي في نيسان لا زالت عالقة في الأذهان، وما زالت الأغنية التي كانت ترددها الإذاعة السورية تطرب الجميع: «ميراج طيارك هرب، مهزوم من نسر العرب، الميغ علت واعتلت، بالجو تتحدى القدر». وها هي مجلة «الأسبوع العربي» تؤكد الحقيقة الحتمية بنهاية إسرائيل بمانشيت عريض على الغلاف: «بداية النهاية في وجود إسرائيل». وها هي مجلة «الجمهور الجديد» تجري تحقيقاً من داخل إسرائيل تبين فيه مدى

التخلف الحضاري الذي يعاني منه المجتمع الإسرائيلي المشتت، مقارنة بالمجتمعات العربية، والمجتمع اللبناني. وها هو أبو خالد والمشير عامر يجوبان القطاعات العسكرية ويجتمعان مع القوات المتأهبة، وبسمة الثقة والنصر تعلو وجهيهما. كل شيء مضمون، فقد عدلت الأوضاع الفاسدة التي أدت إلى نكبة ١٩٤٨، ولم يعد مطلوباً إلاّ الشرارة التي تفجر برميل البارود وتقضي على هذا السرطان الذي زرعه الاستعمار في أحشاء الوطن العربي والأمة العربية منعاً لوحدتها.

وها هو اليوم الموعود يأتي. استفاق صباح يوم الاثنين على إذاعة صوت العرب وهي تعلن أن العدو الصهيوني قد هجم على مصر وسوريا، ولكن القوات العربية ردت العدوان، وهي تزحف الآن إلى فلسطين من كل الاتجاهات. ذهب إلى المدرسة وصدره يغلي بالحماس، وكان المدرسون والطلبة هناك يستمعون إلى صوت العرب وهم يصيحون فرحاً وحماساً، وأدوا الامتحان كما اتفق. وعاد إلى البيت هو وعدنان، وأخذا يتسليان بحساب عدد الطائرات التي أسقطتها قوات الدفاع الجوي المصري، وهي تتضاعف بين لحظة وأخرى، حتى وصلت إلى ما يقرب المائتين قبيل الغروب. وكان صوت أحمد سعيد أجمل صوت يمكن أن يسمع في ذلك الوقت. كانت طائرات العدو تتحول إلى نوع من الذباب في الأجواء العربية، لم يكن يحتاج إلا إلى النفخ لإسقاطه. وكان يتندر هو وعدنان على الفيتناميين الذين لم يستطيعوا طوال سنوات المواجهة مع أميركا أن يسقطوا طائرات جونسون بهذا العدد وهذه النسبة. وكانا يتوقعان أن ينتحر ليفي اشكول وموشي دايان وأبا ايبان واسحق رابين قبل أن تصل القوات العربية إلى تل أبيب وتقبض عليهم، فالفرار سيجلب لهم العار بعد دمار إسرائيل وتشتت اليهود من

جديد. وكانا يتناقشان في مصير اليهود بعد زوال إسرائيل: هل يبقون في فلسطين، أم يعادوا إلى ديارهم التي أتوا منها. واستقر رأيهما على إبقاء من أتى إلى فلسطين من اليهود قبل ١٩٤٨، وإعادة من جاء بعد هذا التاريخ. كانا في غاية الحبور، وكان والده يطل عليهما بين الحين والآخر وهو يبتسم، وقد حمل جهازه قريباً إلى أذنه، ويعدهما بصيفية طيبة في نهاريا وحيفا ويافا وتل أبيب، ثم يعود إلى أصحابه في حديقة المنزل، الذين كانت أصواتهم تسمع وهم يصرخون أو يضحكون، حين يعلن أحمد سعيد عن وجبة جديدة من الطائرات المتساقطة، والأميال التي قطعتها القوات العربية في الطريق إلى فلسطين، وكان صوت صديق والده «أحمد الخنيجر» يصل إلى سمعيهما وهو يضحك ويقول: «إسرائيل لم تعد تشبعنا ولا ترضينا... شوية يهود حطوهم على شوية حديد طاير، سنقاتل أميركا نفسها ونهزمها... هذا الظافر والقاهر مهوب لعب، وهذا أبو خالد مهوب أي كلام».

ولكن الأيام تطول ولا يصلون إلى تل أبيب. فها قد مر يومان وحل الثالث، والأنباء لا تتحدث إلا عن قتال بالسلاح الأبيض في الجولان وجبل المكبر، ومعارك طاحنة بين الجيش المصري والجيش الإسرائيلي في أماكن تارة قرب رفح وغزة، وتارة داخل إسرائيل، وتارة دون تحديد، والطائرات لا تزال تتساقط بغزارة. كلا... لا يمكن أن تكون هذه طائرات إسرائيل وحدها، لا بد أن أميركا وبريطانيا تحاربان إلى جانب إسرائيل، وعادت ذكريات بورسعيد والسويس. وبدأ القلق يسود، فأخذوا يغيرون على استحياء إلى «هنا لندن» و «صوت أميركا»، ثم يعودون بسرعة إلى «صوت العرب». هناك أنباء مغرضة تبثها لندن وواشنطن... القوات الإسرائيلية تصل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس،

والجولان تسقط، والضفة الغربية والقدس كاملة وقطاع غزة تذهب مع الريح، ودايان يعلن أنه ينتظر مكالمة من جمال عبد الناصر في أي لحظة. كلا. . . لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، فهذه الأنباء جزء من المؤامرة. ولكن في اليوم الرابع للحرب، اتضح كل شيء. . . كانت لندن وواشنطن وصوت الإذاعة الإسرائيلية على حق، وكان صوت العرب يعيش في وهم كبير. وعندما بدأت الإذاعات العربية في بث أغنية: «إن للباطل جولة» و «زمان الشرق»، أدرك الجميع الحقيقة المرة. لقد انتصرت إسرائيل، والرئيس سيلقي خطاباً في الغد يعلن فيه الحقائق. . . وهل بقي حقائق كي تقال؟ وكانت تلك اللحظة من اللحظات النادرة التي يرى فيها الدمع يترقرق من عيني والده، وعيون أصدقائه. ذهب إلى المدرسة، وأدى الامتحان لا يدري كيف، وسرت إشاعة أن أميركا وبريطانيا وراء الهزيمة، فخرج الجميع وأخذوا يضربون كل من له بشرة بيضاء بأي شيء تصل إليه الأيدي. ورسم عدنان صورة لجونسون وويلسون واشكول، وكتبا تحتها: «لن نستسلم يا أولاد الأفاعي»، وخرجا إلى الشارع وانضما إلى جماهير غفيرة خرجت وهي تهتف بسقوط بريطانيا وأميركا وإسرائيل. ودخلت جموع من الجماهير «شبك أرامكو»، وأخذوا يضربون كل من تصل إليه أيديهم من الأميركان، أو ذي وجه أبيض أو شعر أشقر، ويحطمون كل شيء في طريقهم. وقامت مجموعة بالهجوم على القنصلية الأميركية في الظهران، وأنزلت العلم الأميركي، وألقت به على الأرض وداسته وهي تهتف بسقوط أميركا. وفي الرياض، خرجت الجماهير وهي تهتف بسقوط أميركا وبريطانيا وإسرائيل، وتطالب بقطع النفط عنهم.

وفي اليوم الخامس أعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن مسؤوليته عن

الهزيمة واستقالته، والرغبة في العودة إلى صفوف الجماهير، وترك زمام الأمور لزكريا محي الدين. ولكن الجماهير خرجت إلى الشوارع، وأرغمته على العدول عن الاستقالة، فعاهدها على محو آثار العدوان، فتنفس الجميع الصعداء: لقد انتصرت إسرائيل في معركة، ولكنها لم تكسب الحرب. احتلت الأرض، ولكنها لم تستطع كسر إرادة الأمة والقضاء على زعيمها التاريخي. بل لم تنتصر إسرائيل طالما أنها لم تحقق ما أرادت من الحرب، لقد انتصر العرب فعلاً طالما أنهم لم يخنعوا لقوى العدوان الصهيوني الاستعماري الإمبريالي. ورغم أن الجميع ارتاحوا لهذا التفسير، إلا أن جرحاً دامياً في الداخل كان ينزف، وشيئاً من الذات ضاع بلا رجعة، وإحساساً باليقظة من حلم لذيذ كان سائداً، ولكنه ذهب ولم يبق إلا الإحساس بالوهم والخدعة ضارباً في أعماق النفس.

ـ ٢٩ ـ

أصبحت الحرارة لا تطاق فعلاً، فآب على وشك لفظ أنفاسه الأخيرة، ولم تعد المراوح الناعسة قادرة على فعل شيء. إنها توزع الحرارة والرطوبة فحسب. كم يكره هذا الصيف ويريده أن ينصرم بأي شكل، فقد وصلت فيه معاناته إلى مدى لا يستطيع احتماله. ففي أواخر حزيران، وفي إحدى زيارات والديه، كان والده في غاية الحزن، ورغم تماسكه ووقاره الذي يحرص عليهما، كانت عيناه غير قادرتين على إخفاء دموع تصارع للخروج والانفكاك من أسر جبروته. ألح في السؤال، فقال له والده إنه رجل الآن وقادر على تحمل الأخبار السيئة،

ثم أبلغه بوفاة عمته شريفة بدرن رئوي لم يمهلها كثيراً وقد انتشر في كلتا الرئتين. سمع الخبر مبهوتاً، وغاب عن العالم من حوله. عمته شريفة لا يمكن أن تموت، فهو لا يتصور العالم من دونها. إنه لا يراها كثيراً فعلاً، وهي بعيدة عنه في القصيم حقيقة، ولكنه يعلم أنها دائماً موجودة هناك، وهو قادر على رؤيتها متى اشتاق، ولكن أن تموت!.. وعندما عاد إلى فراشه، بدأ الألم والظلام ينشران قواتهما في أعماق نفسه، وذلك مثل لسعة نار حارة على أحد أظافر القدم، لا تحس بها وبشدة ألمها إلا بعد فترة من اللسعة ذاتها. وأطلق لنفسه العنان، وبكى بحرقة ما شاء له البكاء، وصورة عمته لا تريد أن تفارق مخيلته، ورائحتها تظهر في كل شيء يصل إلى أنفه. ليس للقصيم طعم بعد اليوم بعد أن أصبح خالياً من شريفة، بل لم يعد للحياة طعم.

وحاول عبد الله وولید ولقمان التخفيف عنه، بالقول إن الموت مصير كل حي، ولكنه لا يريد أن يصدق أن شريفة يمكن أن تموت، كما لا يتصور أن أمه يمكن أن تموت. وفي أحلام كثيرة، كانت تبدو له عمته من بعيد وهي في رداء أبيض، وتبتسم وتلوح له بيدها، فيلوح بيده أيضاً وهو في غاية السرور. ثم فجأة تبرز أمه في الصورة وهي تعانق شريفة وتلوحان له وتبتسمان، فينهض من نومه فزعاً وقلبه يدق بعنف. هذا الموت قادر على كل شيء، فكما استطاع النفاذ إلى عمته، فهو قادر على النفاذ إلى أمه، وإذا كانت عمته هي أريج الحياة، فأمه هي الحياة ذاتها. وأخبر عبد الله ولقمان بأحلامه، لعله يجد لديهما تفسيراً يخفف وساوسه، فتبدو ملامح الجد على وجه عبد الله وهو يحاول استعادة ما قرأه من كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد، ويحاول أن يفسر، ثم ينتهي بالقول إنها كلها انعكاسات للحياة النفسية التي هو فيها،

ومخاوف لا مبرر لها، وينصحه بنسيانها. ولكنه ليس بحاجة إلى فرويد الآن، فيخبر لقمان الذي يبتسم ويخبره أن هذه مجرد أضغاث أحلام من عمل الشيطان، وعليه التعوذ منه والاتكال على الرحمن الرحيم، والدعوة لعمته بالرحمة والمغفرة، ثم يحاول تذكر ما قاله ابن سيرين في كتاب «تفسير الأحلام» حول رؤية الميت في الحلم، فيذكر أنها فأل خير، ويحاول أن يهدىء هشام، ثم يتنهد بعمق ويقول: «لا تشيل هم الميتين، فقد عادوا إلى حيث الرحمة والنور، الدور والباقي علينا نحن اللي مو عارفين ايش راح يكون مصيرنا»، ثم يدفع المصحف إلى هشام ويطلب منه القراءة، ففي القراءة تكمن الراحة، ويطيعه هشام باستسلام، وكأنه ولد صغير، فهو اليوم بحاجة إلى ابن سيرين وصحبه، أكثر من حاجته إلى فرويد وصحبه.

وعندما بدأت الجروح التي أحدثتها وفاة عمته في الاندمال، جاءته الأخبار في نهاية تموز بوفاة خاله بحادث سيارة وهو في الطريق من الطائف إلى مكة. كان خاله يقيم في الطائف بعضاً من فترة الصيف مع انتقال الحكومة إلى مقرها الصيفي كل عام، ويأتي عبد الرحمن لبعض الوقت هرباً من حرارة الرياض وجفافها. إن طعم الطائف وصيفها لا يزال عالقاً في الذهن، فقد ذهب هناك مرة أو مرتين عندما يكون الخال موجوداً، وينطلق هو وعبد الرحمن في منتزهات «الهدى» و «الردف» نهاراً، وتلك المقاهي الحجازية الجميلة ليلاً، يتناولون الشاي الطائفي الأخضر، ويختمون الليل بعشوة مطبق ساخن أو دجاجة مشوية، أو بسندويشات جديدة أخذت تنتشر بسرعة اسمها «شاورما». كان الخال يريد العمرة ثم زيارته في جده، ورافقه حمد وعبد الرحمن بعد أن علما بنيته في زيارة هشام في الكراديب. وعندما انتصفوا في الطريق، فاجأتهم

في أحد المنعطفات الجبلية شاحنة صاعدة، فحاول حمد تجنبها، إلا أن السيارة سقطت في أحد الأودية، وتوفي الخال لساعته، ودفن في مكة بعد أن صلوا عليه في المسجد الحرام. جاءت وفاة خاله لتنكأ الجراح من جديد، فقد عادت الأحلام التي يظهر فيها حمد وعبد الرحمن الراقدان في المستشفى، وهما يلوحان له، ثم يدعوانه إلى اللحاق بهما، فيما يظهر خاله من خلفهما وهو بكامل أناقته مبتسماً، والنسيم يداعب بشته الأبيض، فينهض مذعوراً والعرق يتصبب من كل أنحاء جسده. وعادت هواجسه تلاحقه بشأن أمه، فهي ميتة لا شك في ذلك مثل أخيها. والغريب أنه لم يأسره القلق بشأن أبيه، فقد كان يبدو أقوى من الموت، رغم علمه أن ذلك غير حقيقي، فيحس بالغضب من نفسه ويحاول أن يخاف على أبيه، ولكنه لا يخاف عليه. يا لهذا الموت الجبان والغادر... إنه يأخذ أجمل ما في الحياة ويضحك، ويهجرنا حين نريده، ويحل ضيفاً ثقيلاً حين لا نريده... ليت موسى لم يفقأ عين عزرائيل حين أتى لقبض روحه، ولكنه قصم ظهره أو دق عنقه... ولكن... حتى لو مات عزرائيل، هل يموت الموت؟ ويقلع عن أفكاره هذه ويقتنع بأهمية الموت لاستمرار الحياة، ولكنه يكرهه، ولا زال يعتقد بجبنه وغدره... ليتهم يخيرون متى يريدون الموت، لكانت الحياة أفضل... كلا... لن تكون أفضل، فالخيار رغم لذته حيرة، والحرية رغم أثرها المسكر عذاب... ليس سعيداً في هذه الدنيا إلا من كان بلا وعي ولا حرية ولا خيار... ما أبأسك أيها الإنسان، أكان من الضروري أن تقبل الأمانة وقد رفضها الجميع؟.. الاعتداد بالذات شيء فظيع... فظيع... فظيع.

ـ ٣٠ ـ

الثامن والعشرون من أيلول... ها قد مر عامان على وفاة جمال، وعامان على أيلول الأسود، وهم لا يدرون ماذا يحدث في الخارج. خلال الأشهر الأربعة الماضية، قلّ عدد القادمين الجدد، فلم يعد من الممكن معرفة ما يدور في الخارج بشكل نهائي. وحتى الحراس لم يكن بإمكانهم إبلاغهم عن أية أخبار جديدة، فليسوا من المهتمين بما يحدث خارج بيوتهم، يا لحظهم. الخبر الوحيد الذي جاءهم خلال الفترة الماضية هو مقتل عدد من الرياضيين الإسرائيليين في دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ، على يد منظمة فدائية جديدة أسمت نفسها «أيلول الأسود»، وكان من الأخبار التي أفرحتهم جداً وكانت مثار مناقشات قتلت بعض الوقت البغيض إلى النفس.

لم تعد التعليمات والأوامر بذات الصرامة السابقة، فأصبح بإمكانهم التنقل بين الغرف في الدور الواحد دون خشية حقيقية، وتداولت الأيدي مجلدات سوبرمان التي تراكمت عنده ولم يعد من الممكن إخفاؤها. شعر ببعض الحرج في البداية، ولكنه وجد الجميع يتخاطفونها، حتى عبد الله ولقمان ووليد، فصار يطلب المزيد منها من والديه. وقد زارهم العقيد عدة مرات يرافقه جلجل، الذي كان يبدو في غاية الضيق لانتهاء التحقيق تقريباً. وبعد كل زيارة، كان البعض يجتمعون ثم يغنون أغنية لمحمد علي سندي: «على العقيق اجتمعنا، نحن وسود العيون»، ويحرفونها ثم يغنون: «على العقيد اجتمعنا، نحن وسود الوجوه»، ثم يأخذون في الضحك والتعليق على جلجل وتجهمه، والرقة التي كان العقيد يحاول أن يبديها أثناء زياراته، «لا بد أنه في انتظار ترقية بعد

المجهود الذي بذل»، كانوا يعلقون ويضحكون، ثم ينصرفون إلى الشطرنج والداما ونوى الزيتون. وكان أكثر ما أسعده خلال هذه الفترة، نقل منصور عبد الغني وزكي عبد النبي إلى الطابق الثاني، فقد تعرف على منصور آخر لا علاقة له بمنصور الرفيق. لقد عرف منصور الإنسان، واستغرب كيف يمكن لقيود نفرضها على أنفسنا أن تقيد أنفسنا وتبعدنا عن الإنسان فينا. لقد كان واثقاً أن العقيد وجلجل أناس حقيقيون في دواخلهم المنسية والمهملة، ولكن قيود الجهاز هي من أخرجهم من إنسانيتهم. والعلاقات الرفاقية الصارمة في التنظيم والحزب هي من جردهم من إنسانيتهم المختفية في ظلمات القيود، فكره منصور وراشد وفريد وموافق، ولكنهم اليوم لا يشعر نحوهم بأي ضغينة، بل إن منصور تبدت كل صرامته السابقة عن نفس شفافة ورقيقة بعد أن اجتمع به بعيداً عن القيود. وربما كانت رقة العقيد الواضحة في زياراته حقيقية وليست نفاقاً أو سخرية، بعد أن انتهى التحقيق تقريباً وتخلص من أسر بعض القيود. أما جلجل، فيبدو أنه إنسان مريض من الأساس، والشذوذ لا يقاس عليه على أية حال. كان بوده لو أن عارف كان موجوداً للحديث معه في شؤون وشجون لم يجد من رفاقه الجدد من يتحدث معه فيها بذات الصراحة والوضوح والفهم المشترك، إلا أنهم أعادوه إلى سجن الدمام المركزي قبل أقل من شهرين. علم بذلك من أحد الحراس بعد أن انقطعت إرساليته من السجائر بشكل مفاجيء، ثم أتاه مرعي بالخبر اليقين وتحيات عارف وأمنياته أن يراه في ظروف أفضل، ولكنه لم يره بعد ذلك أبداً. لم يعد هناك فرق بين الأدوار الثلاثة بعد انتهاء التحقيق، غير أن الدور الثاني بقي هو الأفضل، فقد كانت شققه مفتوحة على بعضها، ونوافذه أكثر اتساعاً مما يسمح برؤية بعض أبنية جدة من بعيد،

والإحساس بالأحياء خارج المكان.

صباح ذلك اليوم كان يوحي بأنهم بصدد يوم عادي آخر ككل يوم. نهضت الشمس من رقادها في أعماق بحر القلزم، وتسللت أشعتها الدافئة من وراء القضبان كالعادة، ونهضت الأشباح من رقادها، وبدأت جلبة تغيير الحراس وطابور الحمام وقدور عم عبده... كل شيء عادي لا يوحي بأي شيء. نهار ككل ما سبقه من نهارات، وصباح ككل الصباحات، مجرد نقطة في بحر الزمن محكوم عليها بالعبور والعدم في النهاية، شاءت أم أبت. إلا أنه بعد الإفطار مباشرة، كان هناك ما يوحي بأنه لن يكون نهاراً كسابقه، ولن يكون صباحاً كأي صباح. فبينما كان الجميع يتناولون الشاي كالمعتاد، وصلت إلى أسماعهم صوت جلبة قادمة من الخارج. وعندما أطل البعض لاستطلاع الأمر، رأوا جنوداً كثيرين يذهبون ويجيئون، ومن بينهم كان عم عبده جالساً بين قدوره. ما الذي يجري؟ هل سيعدمون أحداً؟ أم أن معتقلاً مهماً في الطريق إليهم؟ وارتعش جسد هشام بقوة وهاجس الموت يمر عليه سريعاً، ولكنه يواصل الترقب والتساؤل... ولكن ما دخل عم عبده في كل ذلك؟ هل أفشى سراً، أو قام بعمل يجازى عليه؟ ربما، ولكن لِمَ كل هؤلاء الجنود؟ أسئلة محرقة في ساعتها، رغم العلم أن كل شيء ستنجلي حقيقته بعد قليل. وبعد فترة من الوقت، بدأ بعض الجنود يأتون إلى طابقهم ويلقون نظرة عجلى، ثم يتحدثون مع الحارس قليلاً ويغادرون ويأتي غيرهم، واستمر ذلك الحال إلى ما قبيل الظهر. وعندما كانوا يسألون الحارس عما يجري، كان يزجرهم بعنف قائلاً: «ما هو شغلك يا سجين... يالله... كل واحد مكانه». ومع آذان الظهر تماماً، جاءت سيارة بيضاء فاخرة من نوع «كاديلاك»، وتوقفت أمام بوابة البيت الكبير

مباشرة، وخرج منها شخصان بملابس مدنية، أحدهما كان العقيد، والآخر لم يكن معروفاً لديهم ولكن يبدو أنه كان شخصية مهمة، فقد كان يشير أمام العقيد الذي كان يحدثه وهو محني رأسه قليلاً. . . لا بد أن يكون هذا الشخص مهماً طالما أن سيد المكان يحدثه وهو مطأطيء رأسه. لم تكن عادة أن يأتي العقيد في مثل هذا الوقت من النهار، وحتى في زياراته السابقة كان يأتي بعد صلاة العشاء مباشرة، فعمله يبدأ حيث ينتهي عمل الناس، فهو عادة يقوم والناس نيام. واليوم ها هو يأتي في رابعة النهار، ويرافقه شخصية مهمة. . . هناك شيء مهم يجري. . . هل انتحر أحدهم؟ هل هو أحد يعرفه؟ ولِمَ لا، فقد تآمر الموت عليه هذه الأيام.

كان الاضطراب واضحاً على وجه وحركات العقيد، وكان عقاله مائلاً، كما أن غترته كانت مطوية على رأسه بشكل غير منظم وهو المعروف بأناقته المفرطة. وما هي إلا دقائق، وكان العقيد ومرافقه المهم يطلان عليهم وهما يحاولان الابتسام، ومن ورائهما أربعة من الجنود. وقف مرافق العقيد وأخذ يجيل النظر في الصالة، ثم قال بصوت دقيق وخافت يكاد أن لا يُسمع: «أنا العميد مصطفى عبد السيد أرسلني اللواء علي قمر لأرى إن كنتم بحاجة إلى أي شيء». وبهت الجميع، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً وهم في حالة اندهاش واضحة. . . اللواء علي قمر بذاته يطمئن على أحوالهم!. . ما الذي جرى في الدنيا؟ هل قامت القيامة دون أن يعلموا؟ لم يقل أحد شيئاً، وبقي الصمت سيداً للمكان، فيما كان العميد ينظر بعينيه الضيقتين في كل الاتجاهات. وعندما لم يسمع أية إجابة، نظر إلى العقيد وهو يقول: «يصرف لكل واحد ثوب جديد وغترة جديدة وملابس داخلية»، ثم غادر يتبعه العقيد والجنود

الأربعة. هناك لغز، والحارس اللعين لا يريد إخبارهم بشيء، فكان لا بد من انتظار «نوبة» مرعي أو عم عبده عندما يحين موعد الغداء. وجاء عم عبده، وقد اختفت الابتسامة من على وجهه، وأخذ يوزع الطعام بسرعة غريبة، وبكميات كبيرة، وقد وقف خلفه جندي يتابعه وهو يوزع الطعام، فلم ينبس ببنت شفة. وأخيراً جاء مرعي، فتجمعوا عليه وهم في غاية التوتر، فأخبرهم بسرعة أن سكان الدور الأرضي قد أضربوا عن الطعام منذ الصباح الباكر، ثم تبعهم سكان الدور الأول عند الظهر. وسألوه عن المطالب، فأخبرهم أن هذا هو كل ما يعلم، ولكنه وعدهم أن يرسل ما يحصل عليه من أخبار مع حارس آخر يثق به. أحس هشام بالحماس يجتاحه من جديد، بعد أن فارقه لأمد طويل. أحس وكأنه يفيق من حلم طويل لم يكن يشغله فيه إلا نفسه وهواجس نفسه. وتناول الغداء بشهية حقيقية منذ أن دخل هذا المكان، ولم يكن حديث الجميع إلا الإضراب ومعرفة مطالب الآخرين. لم يكن يهمهم من خطط للإضراب، وكيف تم الاتفاق، طالما أنه حدث، والمهم الآن معرفة المطالب.

وجاء الحارس الموعود، وعلموا أن المطالب هي أن يقدموا إلى المحاكمة كي يعرفوا ما هم عليه بدل حالة اللاسجن واللاحرية التي يعيشونها، والسماح بالصحف والمجلات والراديو، فهم لا يعرفون شيئاً عما يدور في الخارج رغم أنه يحمل الكثير. وأحس هشام وكأن أحداً يوقظه من منام ثقيل. . . نعم إنهم لا يعرفون شيئاً مما يجري في هذه الدنيا، وبالتالي فهم غير موجودين طالما أنهم لا يعلمون. إنه لا يدري ماذا حدث في مصر بعد جمال، وفي الأردن بعد أيلول، وفي ليبيا والسودان حيث يحكم تلاميذ جمال، وفي سوريا بعد انقلاب الأسد على

مجموعة جديد والأتاسي وزعين، وفي العراق حيث يحكم البعث، وفي عدن حيث تقوم الجبهة القومية وعبد الفتاح اسماعيل ورفاقه بتجربة ثورية اشتراكية جديدة في الجزيرة. لقد كان مشغولاً بنفسه وآلامها الذاتية طوال الوقت، ونسي العالم من حوله في غمرة ذلك، وها هو خبر الإضراب يعيده إلى العالم من جديد، ويبث فيه الحماس المفقود من جديد. ولعله انشغل بذاته وجراحاتها لأنه لم يكن قادراً على الانشغال بالعالم وجراحاته، وذلك مثل ثعلب علق في فخ، فأخذ ينهش نفسه ويصرخ ألماً، رغم أنه هو من يؤلم نفسه. هل هناك لذة في الألم؟ ربما... ولكن كل اللذة الآن في الأخبار الجديدة، فالعزلة والاختلاء بالنفس شيء بغيض، وأقسى عذاب يمكن أن يحدث. جمال الذات حين تكون ضمن ذوات، والأخبار الجديدة تحمل كل الجمال.

كان أكثر المتحمسين لأخبار الإضراب منصور عبد الغني، الذي أخذ يتنقل بين الحجرات ويناقش الجميع. وبدأ سكان الطابق يجتمعون حلقات حلقات، كل خمسة أو ستة قريبون من بعضهم يجتمعون ويناقشون ما يجب عمله، ثم يختارون ممثلاً من بينهم ليجتمع مع ممثلي بقية الحلقات العشر المشكلة، ويناقشون القرار العام. لا يدري كيف تشكلت الحلقات، ومن خطط لها، ولكنها ظهرت بسرعة وكفاءة عجيبة. واختارت حلقتهم التي تشكلت من هشام وعبد الله ووليد ولقمان وسفيان وعباس، عبد الله ممثلاً لهم، وذلك على مضض من وليد الذي كان يريد أن يكون هو الممثل. واتفق الجميع على المشاركة في الإضراب بنفس المطالب ابتداءً من عشاء الليلة، وتعاهدوا على التضامن والصلابة.

وعندما جاء عم عبده بقدوره الساخنة والباردة وهو يصيح بلهجته المميزة: «العشاء... العشاء...»، تقدم الجميع، وملأوا أطباقهم

بالطعام، ثم وضع كل واحد منهم طبقه على حافة فراشه، بينما كومها أهل الغرف الداخلية أمام أبواب الغرف، وكان ذلك إعلاناً عن الإضراب. وأخذ عم عبده والحارس يجيلان النظر في القابعين على فرشهم دون كلام، ثم جمع عم عبده قدوره وهبط الدرج عائداً إلى سيارة النقل الصغيرة «الوانيت» التي كانت تنتظره كعادتها كل يوم أمام باب البيت الكبير. وتبودلت الابتسامات بين الجميع، وقد أحسوا أنهم تحولوا إلى ذات واحدة.

عندما اندس هشام في فراشه تلك الليلة، كان يحس بسعادة غامرة لأول مرة منذ زمن بعيد، وحرارة غريبة تغزوه لا يتذكر مثلها إلا عندما قبل نورة لأول مرة منذ زمن خاله دهراً. ولأول مرة يحس منذ أن جاء إلى الكراديب أن هناك معنىً للأشياء، ومعنىً للحياة. لأول مرة منذ زمن طويل يحس أن هناك غاية وهناك هدفاً يهون كل شيء في سبيله، مهما كان هذا الهدف صغيراً، ومهما كانت تلك الغاية بسيطة، ولكن المهم أن يكون الهدف موجوداً. ولأول مرة يحس بغبطة حقيقية منذ زمن بعيد، وأن الفراغ والخواء والعماء والغثيان غير مسيطرة، وأحس بلذة النصر عليها، وطافت في ذهنه كلمات لسكارليت أوهارا في «ذهب مع الريح»، بعد أن هجرها رت بوتلر في نهاية القصة... «على أية حال، فغداً يوم آخر»... وغاب عن الوجود وهو لا يريد أن يغيب لأول مرة منذ دهور ودهور.

ـ ٣١ ـ

مر اليوم الأول من الإضراب دون أحداث تذكر. الجميع مستلقون على فرشهم، والحرس يأتون ويذهبون، وعم عبده يأتي بقدوره ويعود بها

كما هي، بينما كانت سيارة العقيد، البويك السوداء تقف طوال الوقت في الباحة الخارجية، معلنة عن وجود العقيد في مكتبه طوال الوقت دون أن يراه أحد. وجاء اليوم الثاني مثل سابقه إلا من تطور وحيد، فلم يعد عم عبده يعود بقدوره فارغة، بل أخذ الحرس يعبأون أطباق السجناء بالطعام ويوزعونها عليهم، ثم يضعها السجناء على أطراف فرشهم دون أن يمسوها، رغم أنهم يكتشفون لأول مرة كم هي زكية رائحتها. وابتداءً من اليوم الثالث أصبحت رائحة الطعام لا تقاوم، وكاد هشام أن يلتهم طعامه فعلاً، ولكنه أمسك في آخر لحظة. لقد كان بياض الأرز، وحمرة المرقة، ورائحة الخبز الطازج تجتمع لتكون مزيجاً أخاذاً يخترق كل الحواس المعترف بها وغير المعترف. فالمعدة تتلوى على نفسها، وتبحث عما تتلوى عليه وإلا فهي مثل النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله. وفي ذلك اليوم، أصبحت رائحة الخبز الطازج وحده أكثر إغراءً من رائحة أنثى متعطرة بين يدي مراهق شبق. أمسك هشام الرغيف، وقربه من أنفه وأخذ يشمه بلذة، وكاد أن يتناول منه قضمة واحدة على الأقل، ولكنه أبعده بسرعة، ووضعه جانباً، ثم أشعل سيجارة أخذ يمتصها دون لذة، فسحقها وهو يحس بطعم الدخان كريهاً جداً في فمه، رغم أنه لم يأخذ منها إلا أنفاساً معدودة جعلته يسعل بشكل مؤلم. ليس هناك إلا الاضطجاع والانتظار، فاضطجع وبدأ يدخل إلى عالم الأحلام. كانت كل أحلامه عبارة عن كميات ضخمة من الطعام، ومن كل الأنواع، يلتهمها ويلتهمها ولكن دون إحساس بالشبع، فيصحو فجأة ويجد فمه وقد تحلب بلعاب كثير، والوسادة وقد تبللت بلعاب أكثر، فيقلبها إلى الوجه الآخر ويضطجع من جديد. يتقلب على الفراش، ثم ينهض ويشعل سيجارة جديدة، يتنفسها، يسعل، يسحقها، ويضطجع من جديد.

مع بداية اليوم الرابع، بدأت الشهوة للأكل تقل كثيراً، وإن كانت حساسية الأنف لرائحة الطعام لا تزال في أعلى درجاتها، وبدأ الجميع في شرب كميات كبيرة من الماء والاستفراغ والتبول في الوقت ذاته، مما جعل طابور الحمام مستمراً طوال اليوم. وفي ذلك اليوم، وبدأت الأعين تفقد بريقها، والشفاه أكثر جفافاً رغم كميات الماء التي يشربون. لم يعد الجو حاراً على الإطلاق، رغم حرارة آب، بل كان يميل إلى البرودة أكثر. وفي ذلك اليوم، عدل البعض عن الإضراب، وتناولوا الطعام المقدم، ولكن أعينهم كانت تفصح عن مدى الخجل الذي يشعرون به. والحقيقة أن نفس هشام كانت تحدثه بالعدول عن الإضراب منذ اليوم الثالث، ولكنه كان يحاول المقاومة، خاصة وهو يرى عبد الله ووليد ومنصور وزكي ولقمان ولقد لفوا غترهم حول رؤوسهم وأفواههم واضطجعوا بهدوء لا يتحرك فيه إلا أعينهم في كل الاتجاهات. كان منظرهم يوحي بالقوة والتحمل، وكان ينظر إلى نظرات الخجل في أعين العادلين، فيتصور نفسه أحدهم، فيعدل عن العدول. كما أن ذلك الإحساس بالسعادة والنشوة المجهولة المصدر التي تهيمن عليه منذ بدء الإضراب، جعلته يتشبث بها مهما كان الثمن. لذة الإحساس بالشبع لن تدوم أكثر من لحظة، أما هذه السعادة فهي تملأ عليه كيانه بلذة هي اللذة ذاتها. كما أن الإضراب قد أراحهم من غسل أطباقهم بأنفسهم، فقد كانت تجمع لتعاد إليهم من جديد مملوءة بالطعام، دون أن يتحملوا عناء الغسل والوقوف في طابوره المعتاد.

ومع بداية اليوم الخامس، بدأ كل شيء يبدو وكأنه ليس هو. حتى الأحلام لم تعد تحتوي على الطعام، بل خليط من أشباح وأناس يعرفهم ولا يعرفهم، وشيء كالصور المتحركة، وانتفى الخط الفاصل بين الحلم

واليقظة، فلم يعد أحد يدري أهو نائم يحلم، أم حالم ينام، أم يقظ ينظر. كل شيء بدأ في التحول إلى أشباح وصور وهمسات تأتي من بعيد. يشعل السيجارة ثم يسحقها في الطبق الصغير إلى جانبه دون أن يمسها، فيهيء له أنه دخن، ويشك في الأمر: هل كان يحلم بأنه يدخن، أم أنه دخن فعلاً. ينظر إلى الطبق بجانبه، فيرى سيجارة مسحوقة بالكامل، فلا يدري هل دخنها أم أنها قابعة هناك منذ زمن. إنه يشعر بالبرد الشديد، رغم تأفف الحراس من الحرارة والرطوبة، والشمس تبدو باهتة وكأنها قد تحولت إلى قمر دون حرارة. ومع نهاية اليوم الخامس، بدأ العقيد في استدعاء المساجين إلى مكتبه مرة أخرى.

ـ ٣٢ ـ

عليك الرحمة يا ابن آدم. ظننت نفسك أكرم الكائنات، الذي طرد من أجله عابد الأزل من الرحمة والملكوت، فاكتشفت أنك أتفه من ذبابة وأحقر من بعوضة. يا لك من معتوه يا ابن آدم، أردت أن تكون إنساناً كما أراد لك من أنسنك، ولكنك وجدت نفسك في عالم تداس فيه كصرصار تائه، وتسحق فيه كذبابة وقحة. يا لك من مغرور يا ابن آدم، خلقت عالماً ادعيت فيه السمو، فإذا هو الدنو كل الدنو، وإذا أنت من يدفع غرور أنت. ويا لك من ساذج يا ابن آدم، افترضت البراءة في مكان لا يحتمل البراءة، ومنحت الثقة لمن يعتبر الثقة غباءً وقلة حيلة. آه يا ابن آدم، أنكرك أبوك ورفضتك أمك وبصق الزمان على ما تبقى منك. آه أيها المسكين، آه أيها المغفل، بحثت عن بسمة في وادي العبوس، وعن أمل في بحر اليأس، وعن سعادة في صحراء الألم. آه يا ابن آدم،

الألم يقتلني، والتعاسة تمزقني، والعدم يخنقني. لأجلك كان كل شيء، ومن أجلك ضاع كل شيء، وباسمك تهاوى كل شيء. تبحث عن حل عند من لا حل عنده، فتلجأ إلى الرجاء فلا تجد إلا السماء، وتبحث عن السماء، فلا تجد إلا الرجاء. لقد تبلد في كل إحساس يا ابن آدم، فأنا أخشى الإيمان بك والكل كافر، وأخاف تصديقك والكل مكذب. أنكرك باللسان يا ابن آدم، وذاتي تهتف بك، لأن ذاتي هي أنت. أنكرك بعين أسن ماؤها، والقلب غارق بماء أنت ماؤه. آه يا ابن آدم، أترانا نعيش زمن العهر والجريمة؟ زمن الكفر والهزيمة؟ لقد مات آدم أبوك، ولم يبق إلا إبليس ذو الصولجان. كلهم اليوم لإبليس ساجدون، ومن أجله يسعون، وعلى وجهك البهي يبصقون، وجسدك يسحلون، وعرضك يغتصبون، وباسمك كل ذلك يفعلون. ولكن كم هو جميل غباءك يا ابن آدم... عيناك إلى الأفق ترنو، تعانق النجوم، ولا تكترث برياح السموم. يريدونك أن تكفر بذاتك، ولكنك تبتسم بغباء جميل، وسذاجة فيها كل السعادة. تفوح روائح جسدك كريهة خانقة، ولكن المسك في أحشائك مكنون. آه يا ابن آدم... في ذاتك رحمن رحيم، وشيطان رجيم... ما أغباك أيها الإنسان، لماذا قبلت الأمانة وتحملت الإهانة.

ـ ٣٣ ـ

في مساء اليوم الخامس، استدعاه العقيد إلى مكتبه ضمن مستدعين آخرين. كان جلجل يجلس في مكانه المعتاد، وهو يحمل خيزرانة يلهو بها، فيرفعها في الهواء، ثم يضرب بها كفه برفق. أما العقيد، فقد كان

جالساً في مكانه المعتاد بكامل أناقته المعهودة، ورائحة ذلك العطر الأخاذ تملأ أرجاء المكان. أجلسه العقيد على الكرسي قبالته، وأخذ ينظر إليه طويلاً قبل أن يقول:

ـ ليش يا ولدي تعمل في نفسك كده؟

ـ . . .

ـ أنت ابن ناس، مو متعود على البهدلة. . .

ـ . . .

ـ لا يخدعوك، هؤلاء مجرمون يحاولون ارتداء لباس الفكر والسياسة. . .

ـ . . .

ـ ألا تشفق على أمك؟. . ألا ترحم أباك؟

وأحس هشام عند ذكر والديه بقلبه يخفق بشدة، فرفع رأسه بتثاقل ونظر إلى العقيد، ثم نكس رأسه من جديد وتلفع بالصمت. وأحس العقيد أنه أصاب وتراً حساساً، فاندفع بكليته إلى الأمام وهو يقول بما يشبه الهمس:

ـ تصور ماذا يحدث لأمك لو فقدت وحيدها لا قدر الله؟

وأحس بالدوار يكاد يسقطه أرضاً، والبرودة تحاصره من كل ناحية، وقلبه لم يعد ينتمي إليه.

ـ وأبوك. . . هذا المسكين. أكيد راح يروح فيها لو حدث لك شيء. لا قدر الله. البرودة تتحول إلى حرارة خانقة، والعرق يتصبب غزيراً، وأطرافه ترتعش بشدة، ويحس بالغثيان يحوم في جنبات جوفه.

ـ بلا إضراب بلا كلام فارغ. . . لقد خدعك هؤلاء الأوباش في البداية، فلا تجعلهم يخدعوك مرة أخرى.

ويخور، لقد أمسكه العقيد من اليد التي تؤلمه، وجلجل يبتسم بحبور وهو يلعب بالخيزرانة بقسوة أكثر. الدوار يلف به المكان، وأنه قد شرب لساعته زجاجة خمر على معدة فارغة، والعرق يتسرب من كافة الشقوق وكأنه فئران هاربة من سفينة غارقة، والبلل يعصره وكأنه صبي بال لتوه على الفراش. وأخذ يتحسس ثوبه، فوجده في غاية الجفاف، ولكنه يشعر كمن بال على نفسه. يداه ترتعشان، فوضع اليسرى على اليمنى لعلها تهدأ، ولكنها تنتفض بشدة، وقد تبللت بالعرق وتثلجت بالبرد، ولكنه في غاية الحرارة. ويتململ في كرسيه، ويأتيه صوت سيد المكان:

ـ هيا. . . هيا يا ابن الحلال. . . تناول طعامك وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وأحس هشام باللعاب يتجول في نفسه، وأمه تدفع باللقمة إلى فيه كما في الأيام الخوالي، إلا أنه تحامل على نفسه، وهو يبلع لعاباً كثيفاً، وقال بصوت واهن وكأنه صدى دينار عباسي ألقي في جرة من ألف ليلة وليلة:

ـ وماذا بشأن المصير يا بيه؟. . إلى أين نحن سائرون؟ والصحف؟. .

وابتسم العقيد وقد أدرك أن لحظة الاستسلام قد حانت:

ـ وإنت مالك ومال الدنيا؟. . يا شيخ. . . الواحد أريح له يبعد عن الدنيا وأخبارها. . . بلا قرف.

ـ هذا عندما يكون مخيراً.

وضاقت عينا العقيد وهو ينظر إلى هشام، وقد اختفت الابتسامة من على شفتيه. ثم عاد إلى الابتسام، ومال بكليته إلى الأمام، وقد شبك ذراعيه وهو يقول:

ـ وعلى أية حال، سوف آتيك بنفسي بالجرائد والمجلات...

ثم وهو يبتسم:

ـ وعلى رأسها سوبرمان وسمير... إبسط يا عم. ولكن لك أنت وحدك، وإذا اطلـع عليها الآخرون، أنت المسؤول. ها... ايش قلت؟

وحار هشام... إنه يريد أن يأكل... ليس كثيراً، ولكن الطعام لذة بذاته. وهو يعلم أن العقيد يلعب معه لعبة هو يدري أنها لعبة، ولكنه مثار بها... أمه وأبوه! الصحف والمجلات؟! إنه يعلم أن العقيد صادق فيما يقول، ولكنه ليس صادقاً... وجلجل لا يمل من اللهو بالخيزرانة الطرية... أكيد أن هناك واسطة فيما يحدث له، فرغم موت خاله، إلا أن ذكراه العطرة لا تزال ماثلة في الأذهان... أليس عجيباً ألا يموت إلا الطيبيون؟ لقد كان ذا مركز كبير في داخلية البلد، وتوفي وهو في طريقه إلى مكة. هل لكل ذلك علاقة بما يجري؟ ربما... فللموت احترام أين منه كل احترام. كان الإغراء أكبر مما يمكن أن يحتمل، وحدث نفسه أنه لا يشترك مع هؤلاء الناس فعلاً بأي شيء. لقد فقد الإيمان بأفكارهم، بل فقد الإيمان بأي شيء، وهو يريد الانفكاك... من ماذا؟ لا يدري، ولكنه يريد الانفكاك، ربما من وحشة المكان والزمان، وربما من وحشة ابن الإنسان الذي تحول إلى شيطان... والثمن بخس. دراهم معدودة، كثمن يوسف المعجب بنفسه... أن يأكل...

ـ حاضر... حاضر يا بيه.

وانشرح صدر العقيد، وبانت ابتسامة صافية على ثغره الذي أسمر من الدخان، فتناول سيجارة أشعلها، وأخذ منها نفساً عميقاً أطلقه في الهواء قبل أن يقول براحة تامة أفصحت عنها عيناه الناعستان:

ـ يا جلجل... خذ هشام إلى الغرفة الأخرى. خليه يرتاح، ويتعشى. وأي أكل يبغاه يجي على طول... هيا. هيا يا جلجل.

وهب جلجل من مقعده، فيما كان العقيد يضحك بحبور، وقد ألقى بالخيزرانة جانباً وهو يتقدم إلى هشام ويحاول أن يبتسم ويقول:

ـ تفضل... تفضل يا بني.

ونهض هشام بتثاقل وهو ينظر إلى جلجل، الذي لم يكن قادراً على الاستمرار في تصنع اللطف، فقد كان واضحاً أنه يعاني وهو يبتسم. وحمد هشام الله على أن جلجل ليس أباه فعلاً، وشعر بالاشمئزاز حين دعاه بيا بني.

في الغرفة الأخرى، كان هناك عوض يقف أمام الطاولة الخشبية التي كان عليها قدر كبير من حساء الشوفان الساخن، المطبوخ مع الطماطم واللحم المفروم، وبعض الأطباق الفارغة والملاعق المعدنية. وحول الطاولة، كان هناك أشخاص يماثلونه سناً يتناولون الحساء بهدوء، وقد كان الفزع واضحاً على وجوههم. وغير بعيد عن الباب، كان هناك جردل بلاستيكي تفوح منه روائح كريهة، لم يعلم ما هو ولا ما فيه، حتى هب أحد الجالسين حول الطاولة، وأفرغ ما في جوفه في ذلك الجردل. وعندما دخل هشام، نظر إليه الموجودون بسرعة وانكسار، ثم عادوا إلى حسائهم، فيما أجلسه جلجل بجانب أحدهم وأمر عوض أن

يأتيه بطبق من الحساء الساخن. تناول الطبق، وهو ينظر إلى القيود التي تزين الغرفة، فيما جلجل يقول بلهجة جافة، وبسمة حاول طبعها على شفتيه الغليظتين:

ـ بالهنا والشفا إن شاء الله...

كان الحساء حاراً جداً، وبخاره كثيف جداً، وهو يتذكر الطعم اللذيذ لمثل هذا الحساء الذي يتناولونه عادة في نهاية صيام يوم من أيام رمضان، بعد التمرة والعصير مباشرة. ولكنه اليوم يصيبه بالغثيان ما أن يشم رائحته. أمسك بالملعقة، غمسها في طبق الحساء، ورفعها إلى فمه، ثم أخذ ينظر إليها بهدوء غريب... تلك الملعقة الصغيرة تمثل الآن لحظة من اللحظات الحاسمة التي طالما قرأ عنها. وطافت بخاطره دروس الأستاذ متولي في الرياضيات وتلك النقطة الحرجة في دروس الهندسة، وما زال يمسك بالملعقة وينظر إليها. لقد تحولت تلك الملعقة الصغيرة إلى بوابة واسعة بين عالمين، أو بعدين، وعليه الاختيار... يا للتعاسة... الاختيار دائماً يقف بالمرصاد. ولا يدري لماذا طافت بخياله أبيات لنزار قباني في تلك اللحظة:

إني خيرتك... فاختاري

ما بين الموت على صدري...

أو فوق دفاتر أشعاري

اختاري الحب... أو اللاحب.

فجبن أن لا تختاري.

لا توجد منطقة وسطى.

ما بين الجنة والنار.

مجرد تحريك الملعقة إلى الأعلى، حيث الفم، أو إلى الأسفل، حيث الطبق، هو خيار صعب، وانتقاء ما بين الجنة والنار... ولكن أين الجنة وأين النار؟.. هذا ما لا يعلم... ويبدو أنه لن يعلم. لو علم بموقع الجنة، لعلم بموقع النار، ولهان اختيار المصير، ولكنه لا يعلم، وكُتب عليه ألا يعلم، وهنا المأساة. الحركة في غاية البساطة... أرفع الملعقة أو أخفضها... ولكن نتيجة الحركة البسيطة رهيبة. واستمر ممسكاً بالملعقة وهو ينظر إليها بغباء، ثم ألقاها جانباً وقال ببرود:

ـ كلا... لن آكل.

وهنا استشاط جلجل غضباً، وكأنه كان ينتظر فرصة يستشيط فيها على أية حال، وأخذ يصرخ كثور هائج في حلبة مصارعة:

ـ يا ابن الكلب... يا معرس. يا ابن الشرموطة. يا ابن القحبة. كلكم كلاب. كلكم معرسين. عاملين لي أبطال وأنتم شوية مخانيث...

ثم اتجه إلى الباب الخارجي، حيث جردل الخيزرانات المبلولة، وتناول واحدة منها وعاد كالثور الهائج، وهوى على ظهر هشام بقوة، فصرخ هشام، ورفعها جلجل مرة أخرى وكاد أن يهوي بها، لولا أن العقيد دخل فجأة وهو يقول بهدوء:

ـ على مهلك يا جلجل، على مهلك.

وتقدم العقيد ناحية هشام، وقال بوجه خال من أي تعبير:

ـ كده يا هشام؟.. كده؟.. وأنا اللي كنت فاكرك عقلت! إنت حر على أية حال، أنا سويت اللي عليا.

ثم أمر عوض أن يعيد الجميع إلى البيت الكبير.

وفي الطريق إلى البيت الكبير، كان هشام يفكر: «ما الذي يدعو إنساناً مثل جلجل إلى أن يختزن كل هذه القسوة، وكل هذا البغض لإنسان آخر؟.. كان واضحاً أنه لا ينفذ الأوامر فحسب، بل يزيد عليها ويستمتع بها. كلا... لا يمكن أن يكون جلجل وأمثاله أناساً أسوياء. فالعقيد رغم قسوته، إلا أنه ينفذ الأوامر، ولكنه يبدو إنساناً في لحظات خاطفة تكفي للدلالة على ذلك الخفي من الإنسان... لا يبدو أن العقيد يكره أحداً، كما أنه لا يحب أحداً. ولكن جلجل يكره الجميع. لماذا؟.. حاول العقيد أن يجعلهم يأكلون ممتثلاً للأوامر، وعندما لم يجد تجاوباً، ترك الأمر... ولكن جلجل لا ينفذ مجرد الأوامر، فقد كان واضحاً أنه لو ترك الأمر له، لخنق السجناء بيده العارية، وهو يرتعش لذة... لماذا؟ لا يدري. أكل هذا إخلاص وانتماء؟ لا يظن، بل هو مرض لا يعرف كنهه.

وعندما ألقى هشام بجسده تلك الليلة على الفراش، كان يحس بلذة غريبة، وسعادة صافية لم يكن قادراً على استيعابها بالكامل. لم يأكل... لم يمت على صدر نزار ولا على دفاتر أشعاره. تحدى الجميع، وهذا هو المهم... وأغمض عينيه وهو يحس برطوبة لذيذة تحتل شفتيه.

ـ ٣٤ ـ

إنه اليوم السابع في تاريخ الإضراب. انتفت الحدود بين الواقع والخيال، بين الهلوسة والعقل، وتداخل الزمان والمكان. قبيل الظهر، زارهم مدير عام الجهاز، علي قمر... رجل متوسط الطول، أسمر البشرة، بكرش واضحة، وبسمة دائمة، ونظارات شمسية سوداء لا تفارق

عينيه أبداً. أطل عليهم في الصالة، وأخذ ينظر ملياً، ثم قال بصوت يحمل رنة الوعظ: «إنكم تلقون بأنفسكم إلى التهلكة... ماذا سينفعكم الموت؟.. سوف تخسرون الدنيا والآخرة معاً. ما تفعلونه هو انتحار، والمنتحر في النار. ألا تشفقون على أهاليكم؟»، ولم ينبس أحد ببنت شفة، فهبط الدرج يتبعه العقيد وجلجل وثلة من الجنود، ولا زالت الابتسامة تظهر أسنانه الناصعة البياض.

بعد ما يقرب من نصف ساعة من زيارة علي قمر، أطل عليهم العقيد والبسمة تحتل كل وجهه وهو يعلن أنه قد سُمح لهم بالصحف والمجلات المحلية، والاستماع إلى الإذاعة المحلية، والوعد بالمحاكمة في أقرب فرصة، ثم وهو يبتسم: «ولعلكم لا تحتاجون محاكمة، فقد تخرجون قريباً...». واعتبر السجناء هذا القول بمثابة خبر من شخص عليم بما يدور هناك، فاستبشروا خيراً. أوحت نظرات الجميع إلى بعضهم بعضاً أن هذه التنازلات كافية، وأن الإضراب قد انتصر، فكانت النظرات توحي بنهاية الإضراب. كان العقيد يتوقع أن ينهض أحدهم ليعلن نهاية الإضراب، ومن ثم التحقيق معه في البحث عن الزعماء. ولكن ذلك لم يحدث، فعاد أدراجه إلى مكتبه، ولم يلبث عم عبده أن أطل بقدوره الساخنة.

تناول هشام كوبه المليء بشوربة الدجاج الساخنة، وتناول رشفة منها، فأحس أن معدته سوف تخرج من مكانها. كان الحمام مزدحماً، فاتجه إلى جردل بلاستيكي قريب واستفرغ بعض العصارات والكثير من الفراغ. شرب الكثير من الماء، ثم عاد إلى كوب الشوربة، وتناوله على جرعات متباعدة. أحس بالحرارة تنتشر في عروقه، وببصره يصبح أكثر تركيزاً، فردد ما كانوا يرددونه دائماً بعد انتهاء أحد أيام رمضان وتناول

الإفطار: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»، وقد تحول وجهه إلى ثغر يبتسم. أحس بالرغبة في النوم، واضطجع على فراشه وغاب في السبات، رغم أن النوم ممنوع في مثل هذا الوقت، ولكن التسامح كان سيد المكان في تلك اللحظة... وكانت واحدة من لحظات الصفاء النادرة، التي تؤرخ بها ذات الحياة.

ـ ٣٥ ـ

في اليوم التالي لانتهاء الإضراب، جاءتهم أول دفعة من الجرائد المحلية: المدينة، عكاظ، الندوة، البلاد، الرياض، الجزيرة، وحتى أم القرى. تلقفوا الجرائد بلهفة وشوق مدمن حصل أخيراً على جرعة من مادة إدمانه، ولسان حالهم يشدو مع شوقي: «ولي رمضان فهاتها يا ساقي، مشتقاة تسعى إلى مشتاق». وفي الوقت نفسه، كان هناك بعض الجنود يقومون بتركيب سماعات صوت في الصالة والغرف الداخلية، بمساعدة عمال بقوا في الباحة الخارجية. وما هي إلا دقائق، وكان صوت المذيع الشهير «شمس جواد» يملأ المكان وهو يتلو مقاطع من «بروتوكولات حكماء صهيون»، بصوت رخيم واثق، وكأنه يقرأ من كتاب الموتى. ثم تلاه أغنية محمد علي سندي: «على العقيق اجتمعنا»، فصاح أحدهم من غرفة داخلية: «بل على العقيد اجتمعنا»، وضحك الجميع بحبور، حتى الحارس أطلق ضحكة صافية. ثم غنى عبد الله محمد «يحيا عمر قال»، وعندما وصل إلى مقطع يقول فيه: «وقفت بالباب وهزيت العمود»، بدأت التعليقات النابية، تتلوها الضحكات تدور بين الموجودين. وعندما بدأت أنشودة: «لا شرقية ولا غربية،

إسلامية... إسلامية...»، أخذ الجميع في التهام الصحف، حتى الإعلانات.

لم يكن هناك الكثير في الصحف. بعض مقالات عن أهمية «التضامن الإسلامي» بعد أن تبين دور القومية العربية في حصول النكسة. مقالات وأخبار عما يجري في مصر واليمن، وعن حالة اللاحرب واللاسلم. ولأول مرة يعلم هشام أن أنور السادات لم يكن اسمه الكامل، فقد كان محمد أنور السادات. اعتقد أول الأمر أن هناك خطأ، وربما كان الاسم هو أنور محمد السادات، أي أن محمد هو اسم والده. ولكن تبين له أن لا خطأ، وأن السادات هو محمد وليس أنور. وأخبار عن إحراق شرائط في مصر، والسادات يعلن أن عهد الرقابة والتضييق على الحريات قد انتهى بغير رجعة، وأن ثورة يوليو بحاجة إلى ثورة تصحيح. وتعجب الجميع من قدرة السادات على هذا العمل. فعندما جاء إلى السلطة، اعتقد الجميع أنه مجرد واجهة مؤقتة لا تلبث أن تزاح بمجرد أن تستقر الأمور، ويأتي الأقوياء من تلاميذ عبد الناصر وخلفائه: علي صبري، أو شعراوي جمعة، أو سامي شرف، أو أي شخص آخر، ولكن ليس السادات. وضحك عبد الله وهو يقرأ أخبار السادات وقال: «فعلاً... تمسكن حتى تمكن... لقد تبين أن للقطة مخالب، وأنه يا ما تحت السواهي دواهي. أهذا هو مستر يس؟!..»، فكان رد لقمان أن السلطة لا ترحم، فقد قُتل عمر وعثمان وعلي لأسباب سياسية، وهم أفضل الخلق بعد سيد الخلق، وما يفعله السادات كان لا بد أن يفعله لو أراد البقاء، واشتعلت مناقشة سياسية تراثية حول السياسة والحق. وخلاف ذلك، كانت الجرائد تمتلىء برغبة جلالة الملك في الصلاة في الأقصى قبل أن يموت.

ـ ٣٦ ـ

وتمر الأيام بطيئة مملة لا طعم لها ولا رائحة. مجرد شمس تشرق، وشمس تغرب، وطعام يُبلع، وفضلات تلقى. وعين تغمض وعين تفتح، واللحظات تتالى، والزمن لا يرحم. أيام الإثارة كانت أيام الخميس، حيث يستعد الجميع لزيارة قد تجيء، خاصة وأنهم سمحوا بالزيارة كل أيام الخميس. ومن يسعده الحظ بزيارة، كان يعود بحلويات وأطعمة يفرقها على الزملاء، وقد لا يناله شيء منها، وسجائر مختلفة الأصناف، والأهم من ذلك كله، مجلات عربية وكتب أدبية لم يعودوا يتشددون في دخولها منذ أن انتهى التحقيق بالكامل تقريباً قبل أشهر وجيزة. وكانت بعض الكتب ذات شعبية خاصة لا تصل لأحدهم إلا بعد فترة لطول قائمة المنتظرين. وكان كتاب «جواهر الأدب» للهاشمي، و «لمحات من تاريخ العالم»، لجواهر لال نهرو، على رأس هذه الكتب.

منذ أن تبينت نهاية التحقيق، والكل ينتظر أن يحولوا إلى محكمة شرعية بين يوم وآخر، ولكن الأيام تمر دون أن يتبين بصيص أمل. كان البعض متفائلاً من المحاكمة المرتقبة، والبعض الآخر متشائماً غاية التشاؤم. كان البعض يزمع إنكار اعترافاته أمام القاضي، والادعاء أن اعترافاته كانت تحت تأثير التعذيب، ولا ريب أن القاضي لن يأخذ باعترافه السابق، فالقضاء الشرعي يقوم على الاعتراف المباشر أمام القاضي. وقال البعض أنهم سيكررون اعترافهم أمام القاضي، فليس هناك ما يخشونه. فهم لم يقتلوا أو يسرقوا أو يزنوا، بل معارضون سياسيون، وليس في الشرع ما يحرم ولا يجرم المعارضة. إلا أن المتشائمين كانوا

يردون بالسخرية من كل هذه السذاجة التي يسمونها تفاؤلاً، فباب التعزير في الشرع مفتوح على مصراعيه، ولن يعدموا وجود قاض يعزر كما يشاء. والقضية على أية حال سياسية ولا علاقة لها بشرع أو قانون. ولا ريب أن الأحكام جاهزة أمام القاضي، وربما لن يكون هناك قاضٍ وتصدر الأحكام مباشرة دون حاجة إلى وسيط. وأخذ البعض يتوقعون مدد الأحكام، فاتفقوا على رقم ما بين العشر إلى الخمس عشرة سنة، أسوة بشيوعيي ١٩٦٤. غير أن البعض كان في غاية التشاؤم وهو يتوقع أحكاماً بالإعدام، استناداً إلى آية الفساد: ﴿**إنها جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾، مبررين خوفهم من أن البعض سوف يحاولون التقرب من ولي الأمر على حسابهم، ويزين له اعتبارهم من المفسدين. فتصايح الجميع: «فال الله ولا فالك يا شيخ...»، «وهل كانت الدماء وإراقتها بهذه البساطة؟..»، «وهل ولي الأمر بهذه السذاجة أو الدموية حتى يقبل بنفاق المنافقين؟..»، «والله أنا عندي إحساس إنه ما في ولا حتى سجن... المسألة ما تسوى يا جماعة»، واستمروا في الأخذ والرد وقد تأرجحت القلوب بين اليأس والأمل، والرحمة العذاب.

ـ ٣٧ ـ

اعتاد والدا هشام أن يزوراه خميس وراء خميس. ينطلقان من الدمام يوم الأربعاء، ويطوفان بالبيت ثم يصليان الفجر عادة، ثم يرتاحان قليلاً سواء في الحرم أو في أحد الفنادق الرخيصة، ثم يصليان الظهر والعصر

والمغرب في الحرم أيضاً، وينطلقان إلى جدة. وبعد انتهاء الزيارة، يعودان إلى مكة ويصليان ويطوفان، ثم ينطلقان عائدين إلى الدمام. كان يرجوهما ألا يتعبا نفسيهما، إلا أن أمه قالت إنها تعيش على أمل رؤيته في الزيارة التالية بعد كل زيارة، ولا يريد أن يتعبهما؟.. وفي آخر زيارة لهما، أخبرته أمه أنها متفائلة بأن الفرج قريب. فقد اعتمرت قبل أن يأتيانه، وطافت حول البيت العتيق، وسعت بين الصفا والمروة، وصلت كثيراً، ثم تعلقت بأستار الكعبة وهي تبكي وتطلب مِمّن لا يرد قاصده أن يفرج همها، ويطلق سراح وحيدها. وعندما نامت في الحرم لفترة وجيزة، رأت الرسول الكريم وهو يبشرها بالفرج، ومن رأى الرسول فقد رآه، فالشيطان لا يتمثل لأحد بصورة الرسول الكريم. كما أن أخاها زارها في المنام وهو يبتسم ويبشرها بأن العقبى للصابرين.

وفي إحدى الزيارات الأخيرة، أخبره والده بوفاة جده ثم جدته قبل فترة، وبعيد وفاة عمته شريفة، إلا أنهما لم يخبراه في حينه خوفاً على مشاعره. شعر بالحزن لوفاة جده أكثر من جدته، وأنبه ضميره على هذا الإحساس، وحاول أن يحزن بشكل متكافىء، إلا أنه لم يستطع. الغريب أنه لم يبكِ رغم الحزن، وإن آلمته حنجرته كثيراً. لم يعد يخاف الموت كثيراً، بل أصبح بالنسبة له شيئاً روتينياً مثل الحياة ذاتها، بعد وفاة عمته وخاله وجده وجدته.

كان والداه يأتيان له في كل زيارة بكميات كبيرة من الحلويات الشامية، والمجلات العربية، التي لم يعد سوبرمان من بينها. فقد طلب منهما عدم إحضارها، لشعوره الملازم بالخجل، رغم أن زملاءه كانوا يقرأونها معه دون خجل، ولإحساسه أنها لم تعد تستهويه فعلاً. لم يعد العقيد هو الذي يحضر جلسات الزائرين، بل ضابط صغير السن والرتبة،

وكان الملل واضحاً عليه أثناء تأدية واجبه، فقد كان كثير النظر في الساعة. وفي واحدة من هذه الزيارات، علم أن أمه حامل منذ فترة، وأسعده هذا الخبر إلى درجة كبيرة. سيصبح له أخ صغير، أو أخت صغيرة. لطالما تمنى أن يكون له أخ، وها هي الأيام تحمل في طياتها خبراً مفرحاً بعد أن دمرته بالأخبار المؤلمة. هل رضي عنه الزمان أخيراً؟ ليت ذلك يكون، ولكنه متفائل على أية حال. فإذا كانت الأخبار السيئة تأتي دفعة وحدة، فلا ريب أن الأخبار السارة تأتي كذلك. ولأول مرة ينتظر المستقبل وهو سعيد، ويستعرض الماضي دون أسى، ويتقبل الحاضر دون خوف.

وعندما يعود من زيارات والديه إلى الصالة، كانت الأيدي تتخاطف كل شيء بلذة قصوى، وتتداول المجلات، ولا تعود إليه إلا بعد أن تكون قد استهلكت تماماً. كان الجميع مهتمين بمتابعة المجلات العربية في ذلك الوقت، فقد وعد الرئيس أنور السادات أن يكون عام ١٩٧٢ هو عام الحسم بالنسبة للصراع مع العدو الصهيوني، وها هو عام ١٩٧٣ يقترب من نهايته دون أن تبدو بوادر الحسم. وكانت المجلات تعلق على تبريرات السادات بوجود غيوم في الأفق الدولي عطلت الحسم تلك السنة. ولكن معظم المجلات العربية كانت تغمز من قناة السادات بطريق غير مباشر أكثر الأحيان، وترى أنه غير قادر على خلافة جمال عبد الناصر، وملء الفراغ الكبير الذي تركه. وتناقشوا كثيراً في هذه القضية، وكان أكثر الموجودين يرون أن حالة اللاحرب واللاسلم سوف تستمر، وأن مهمة السادات هي تخريب التجربة الناصرية في مصر، بما يسميه سياسة الانفتاح، وأن الحل هو في ثورة جديدة تسقط السادات وتعود بمصر إلى خط عبد الناصر، وعندها تكون الحرب ممكنة.

وها هو رمضان آخر يحل، ولا بوادر لانفراج الأزمة، والزمن لا يرحم كعادته... كان يوم سبت، العاشر من رمضان، يستعد فيه اليوم للموت كغيره من أيام. البعض يقرأ المصحف، والبعض يقلب الصحف والمجلات بسأم، والبعض يدردش، وكان أحدهم يتحدث في الراديو عن فضائل الصيام وواجبات القيام. ثم انقطع الحديث فجأة، وجاء صوت المذيع «فايز تمام» وهو يعلن: «جاءنا ما يلي...»، ثم أتت الأخبار التي جعلت الجميع يتصايحون بحبور. لقد هاجمت القوات المصرية والسورية مواقع العدو بعد ظهر ذلك اليوم، والقوات المصرية قد دمرت خط بارليف وهي في طريقها إلى سيناء، والسورية تقاتل في هضبة الجولان المحتلة، ولا شيء عن القوات الأردنية. وتعجب الجميع من عدم مشاركة الأردن في معركة المصير، وفتح جبهته العريضة مع العدو، إذ إن ذلك سوف ينهك إسرائيل فعلاً، وتندحر في النهاية، وتعود القدس وحيفا وعكا وتل أبيب. وقد كان موقف الأردن مثار نقاشات طوال الأيام التالية، حتى بعد أن جاءت الأنباء بإرسال الملك حسين لفرقة من جيشه إلى الجبهة السورية. فاتهم البعض الملك حسين بالخيانة والجبن والتواطؤ مع الامبريالية الأميركية والصهيونية ممثلة في إسرائيل، وحاول البعض أن يربط بين الموقف الأردني من الحرب والعلاقة مع الفلسطينيين في أعقاب أيلول الأسود، ومحاولة منظمة التحرير أن تكون الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، وبالتالي لا علاقة للأردن بالقضية، وكان هشام يقف مع القائلين بهذا التفسير. ولكن قلة قليلة جداً كانت تبحث عن مبرر لسلوك الملك حسين. قالوا إن الملك حسين دخل

حرب حزيران مجبراً وهو غير مستعد، ولا يريد الحرب، فخسر نصف مملكته. وهو اليوم لا يريد التضحية بالنصف الآخر، وخسارة جيشه الأثير إلى نفسه، بعد أن خسره يوم أن وضعه تحت القيادة المصرية في حرب حزيران. ولكن الأغلبية سخرت من هذا الموقف الذي يريد أن يبرر الخيانة والتآمر مع أعداء الأمة العربية.

كان الجميع يسمعون الأخبار ويضعون أيديهم على قلوبهم، خوفاً من أن تكون أنباء الانتصارات مثل أنباء تلك الأيام المرة في حزيران، حين كان أحمد سعيد يعلن قرب الوصول إلى تل أبيب، فيما كانت القوات الإسرائيلية على مقربة من القاهرة، عرين الأسد، الذي أعلن أنهم سيقاتلون من شارع إلى شارع، وبالعصي إن لزم الأمر. ولكن مع مرور الأيام، واستمرار القتال في سيناء والجولان، تأكدت الأخبار، وأن كل ما يسمعونه في الإذاعة المحلية صحيح. ولكن، وكي تطمئن النفس، أقنعوا أحد الحراس، الذين كانوا بدورهم في غاية البهجة والحماس، بأن يغير مؤشر الراديو إلى إذاعة لندن ساعة أخبار الخامسة بتوقيت غرينتش، ولعدة دقائق فقط، وكأن الأمر عفوي أو غلطة غير مقصودة. وفعلاً استمعوا إلى البي بي سي لعدة دقائق، كانت كافية لأن يعرفوا من خلالها أن أيام أحمد سعيد قد ولت فعلاً، وأن النصر حقيقة.

كانوا في غاية الحماس وهم يستمعون لأخبار أكبر معارك دبابات في التاريخ تجري على أرض سيناء، ومعارك السلاح الأبيض المباشرة على أرض الجولان، وغارات الطيران المصري والسوري، والاقتراب من القنطرة والقنيطرة. وكان يوماً ابتهج فيه الجميع، وتعانق السجين والسجان حين استطاعت القوات المصرية أن تدمر فرقة مدرعات إسرائيلية كاملة، وتأسر قائدها. وأحس الجميع أن تل أبيب باتت مسألة

وقت ليس إلا. وارتفعت شعبية الرئيسين، السادات والأسد إلى أقصى الدرجات، حتى أنها طغت على شعبية عبد الناصر نفسه، والقيادة القطرية التي انقلب عليها الأسد عام ١٩٧٠، والتي كانت تمثل أفكار معظم البعثيين المعتقلين. لقد كان صلاح جديد ورفاقه يمثلون التيار الجديد في حزب البعث، الذي ينتمي إليه معظم البعثيين المعتقلين، ولكن أنباء الانتصارات جعلت من كل ما يفعله حافظ الأسد حق وصحيح. وعاد الحماس المفقود إلى ذات هشام من جديد، وأحس أن الإنسان قادر على فعل المستحيل عندما يريد، والإرادة لا تتوافر إلا إذا كان الإيمان موجوداً، وأخذ يسخر من عذابات نفسه وسط هذا الجو العاصف من الجمعية الكاملة.

وجاءت الأنباء أن العراق سوف يبعث بوحدات من جيشه إلى الجبهة السورية، وكذلك الجزائر وليبيا والسودان سوف تبعث بوحدات إلى الجبهة المصرية، وأن الملك فيصل وقادة دول الخليج العربية قد قرروا وقف ضخ النفط إلى الغرب. وارتفعت أسهم الملك فيصل عندما تواترت الأنباء عن أنه ممول الحرب بشكل شبه كامل. وكانت الإذاعة المحلية، والصحف العربية والمحلية، تردد أمنية الملك فيصل في أن يصلي في الأقصى الشريف بعد تحريره، وقبل موته. «لقد تغير الملك فيصل كثيراً منذ نكسة حزيران»، قال أحدهم: «لا ريب أنه الإحساس بالواجب»، رد أحدهم: «فقد تكون آثماً طوال حياتك، ولكن تأتي لحظة ترى فيها شريط حياتك كله أمامك، فتقرر أن تفعل شيئاً ينهي الشريط بشكل طيب، وتكون أطيب الأعمال آخرها...»، «المهم...»، قال أحدهم: «لقد تجمع المال العربي، والجندي العربي، والقرار الجماعي الواحد، ولا مجال للهزيمة»، ثم وهو يبتسم بمرارة: «وليس مثل أيام

حزيران حين كان جمال وفيصل يتقاتلان في اليمن، ويعلنان الحرب على إسرائيل... يبتسمان لبعضهما في حرض، وكل منهما يخفي خنجره وراء ظهره».

وبدأت الأنباء تأتي عن قيام جسر جوي بين واشنطن وتل أبيب، بل بين مخازن السلاح الأميركي والجبهة في سيناء مباشرة، بحيث إن الطائرة الأميركية تهبط بطيارها مباشرة إلى أرض المعركة. وتأكد لدى الجميع أن هناك مؤامرة إمبريالية ضد الأمة العربية، عندما استجاب الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون إلى استغاثة غولدا مائير، رئيسة وزراء العدو الصهيوني. ولكن كل ذلك لا يهم... كان كل شيء يبشر بالخير، وما أن يطل عيد الفطر السعيد، إلا وتكون تل أبيب قد عادت تل الربيع، كما يسميها الشاب الثائر معمر القذافي، خليفة عبد الناصر، وأمين الأمة، كما عينه عبد الناصر.

إلا أنه بعد أيام من المعارك الضارية على كل الجبهات، بدأت الوساوس تراود الجميع. فالقوات المصرية توقفت عند الممرات الجبلية في سيناء، رغم أن الطريق مفتوح أمامها لتحرير سيناء كلها، والسير إلى تل أبيب نفسها. وبدأت الأنباء ترد على استحياء من أن العدو استطاع فتح ثغرة في «الدفرسوار» بقيادة الجنرال الإسرائيلي «آريل شارون»، وأن الجيش الثالث المصري مهدد بالإبادة التامة، ومن ثم الطريق إلى القاهرة. وإذا سقطت القاهرة، فلا قيمة لدمشق وعمان أو أي مكان... وعادت ذكريات حزيران... فقد قرر الرئيس محمد أنور السادات القبول بقرار وقف إطلاق النار الصادر عن الأمم المتحدة... هناك رائحة شيء فاسد... وتأكد الفساد لدى الجميع، حين جاءت الأنباء بعزل الفريق سعد الدين الشاذلي، الذي كان من أنصار التقدم في سيناء، وتعيين عبد

الغني الجمصي. وقال الجميع: «السادات يبقى السادات... تعاون مع الألمان قبلاً، ويتعاون مع الشيطان بعداً. سياسي محترف يعرف من أين تؤكل الكتف. قضى على عبد الناصر، ورفاق عبد الناصر، وها هو اليوم لا يمانع من الاتفاق مع العدو...». وسقطت أسهم السادات دفعة واحدة، وقال الجميع إن السادات استغل ما فعله عبد الناصر للعبور فقط، ولكنه جير كل ذلك لإسمه. لم يكن الأمر إلا لعبة سياسية أراد بها السادات توطيد إسمه. دخل عبد الناصر حرباً لم يكن قادراً عليها من أجل الشعبية. ودخل السادات مواجهة لم يكن أهلاً لها من أجل السلطة والشرعية. وضاع الجميع بين باحث عن شعبية وزعامة، وبين باحث عن سلطة...

وعادت كآبة حزيران... وعادت أحزان الجمعة الحزينة في حزيران. لم يعد النصر نصراً، طالما أن إسرائيل على قيد الحياة. لا... إنه لا يكره اليهود، رغم أنه يكرههم، ولكن إسرائيل شيء غير مقبول. مجرد لعبة من ألاعيب من يلعبون بهم. والإذاعة وكل الصحف تمجد في النصر المجيد بعد أن توقف إطلاق النار. كيف يكون نصراً وإسرائيل ما زالت في عالم الوجود؟.. لتحتل ما تحتل، ولتقسو ما تقسو، فليس فرقاً أن تحتل شبراً أو تحتل دولة. النصر هو القضاء على إسرائيل، وليس الحصول على شبر أرض هنا أو هناك. كل نصر لا يقضي على إسرائيل، فهو ليس بنصر...

وبعد أن تبينت حقيقة النصر، ران الذهول على الجميع، وعادت الأحزان. وكان لقمان يردد بعد كل صلاة يصلونها: «ضربت عليهم الذلة والمسكنة... هل تدرون من المقصود بهذه الآية؟» ويصمت الجميع،

فيقول: «إنهم بنو إسرائيل... ولكن يبدو أن المقصود بها اليوم هم العرب والمسلمون... وتلك الأيام نداولها بين الناس»، ثم يضرب كفاً بكف ويقول: «من يعرفني ولا يخافني، سلطت عليه من لا يعرفني ولا يخافني»، ثم يمضي إلى فراشه، ويتناول المصحف، ويتلو بصوت عال: **﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون...﴾**.

ـ ٣٩ ـ

آذار... أجمل شهور السنة في بلاد الله الأخرى. ففيه يبدأ الربيع، وترق النسمات. أما هنا، فالحرارة ما زالت خانقة، وبعض من الرطوبة التي لا تصل إلى حد التوتر، كما في الدمام. ومع ذلك يبقى آذار شهراً مريحاً وقريباً إلى النفس بشكل غريب. لعله الإحساس بقرب الربيع وتفتح الأزهار، وعودة أدونيس من عالم الظلمات، ورجوع الروح إلى عشتار. وقد يكون في أثر الأبراج على الناس والنفوس، فربما يكون للأبراج فعلاً أثر على حياة الناس، بغض النظر عن تجليات الأرض. إنه يسير في سنته الثالثة منذ أن جاء إلى هذا المكان، ورغم ذلك يبدو الزمن ساكناً وكأنه قد جاء ليلة البارحة. نفس الوجوه، ونفس الطعام، ونفس الشطرنج والداما ونوى الزيتون. حتى الأحاديث أصبحت مكررة ومملة بشكل غريب، ولم يعد للنكت أي طعم أو رائحة. لقد أصبحوا يعيشون بإرادة الحياة وجذوتها الباقية دون أي تأثير آخر.

ومع مقدم نيسان، أدركوا أن عشتار قد عادت إلى الحياة، وأن دوموزي قد عاد من عالم الظلمات، وعادت العذراء الدائمة تمنح نفسها لكل طالب. في ذات صباح مشرق جميل، جاءهم حمدان يحمل الأنباء المثيرة... لقد صدر عفو عن معظم القابعين في الكراديب، ولم يستثنَ إلا عدد محدود منهم، ممن اعتبروا أصحاب أدوار رئيسة. وكان هشام وزكي ومنصور وموافق ممن شملهم العفو. إلا أنه علم أن فريد المدراسي وحسين مسيدس وسليحف وشيخون لم يشملهم العفو، فأحس بالأسى العميق من أجلهم فعلاً. لم يعد هناك محل للغل والكره في نفسه حتى لو أراد، فقد يكون ما جرى هو جزء من الحياة ذاتها، وليس لنا إلا أن نتقبلها كما هي، دون زيادة أو نقصان. حتى العقيد وجلجل لا يشعر بأي غل تجاههما، وإن كان لا يحبهما بطبيعة الحال، فهما جزء من حياة علينا أن نتقبلها. يجب أن نسعى لتحسين نوعية الحياة، وتغييرها إن كان التغيير ضرورياً، ولكن ذلك لا يكون بالدم والكره، بل بالحب وإخلاص النية. قد لا نستطيع أن نفعل شيئاً مما أردنا، ولكن طالما كان الحب هو السيد، وكانت النية المخلصة هي الدافع، فكل شيء يمكن أن يبرر، وكل شيء في النهاية يمكن أن يكون... الحب والنية الطيبة... ذلك ما تعلمه في جامعة الكراديب التي ما كان يريد الالتحاق بها، ولكن هل تسير الدنيا بالرغبة والإرادة؟!.. قد يكون ما يسير الدنيا هو القدر، أو العبث، أو الحتم، أو الصيرورة... لا ندري، وليس من الضروري أن ندري. المهم ليس في السؤال عما أو عمن يسير الحياة، ولكن المهم هو أن نحياها، وأن نثريها، وأن لا نغادرها قبل ترك بصماتنا فيها.

- ٤٠ -

كانت الأيام التالية أيام بهجة حقيقية، فقد عادت الروح إلى الكراديب، وأصبحت الضحكات تملأ المكان. وفي كل يوم من الأيام التالية لخبر الإفراج، كانت تأتيهم أطباق ضخمة من الأرز البخاري، يحتل أعلاها خراف مطبوخة بالكامل، وكان السجناء والحراس يتحلقون حول هذه الأطباق وهم يأكلون بشهوة كبيرة ويتضاحكون. وبدأت الأسماء تستدعى إلى مكتب العقيد من جديد، ولكن في النهار هذه المرة، ودون خوف، بل بشوق إلى الاستدعاء. وجاء دور هشام، فسار مع حمدان وهو يكاد يطير فرحاً. دخل إلى مكتب العقيد، ووقع بسرعة أوراقاً لا يدري ما هي، ولكنه يعلم ممن سبقه أنها تعهد بعدم معاودة الخطأ، والإخلاص للدولة. وعندما أراد الخروج، نظر إليه العقيد وقال بصوت خفيض: «هشام... ترى مو كل مرة تسلم الجرة... إذا أردت أن تحقق طموحاتك، فليكن ذلك في ضوء الشمس، وليس على بريق النجوم ووعود السراب. كان الله في عونك». نظر إليه هشام، ولم يدرك مباشرة ما يرمي إليه، ولكنه هز رأسه وابتسم وهو يمضي في طريقه، وليس في ذهنه إلا الحرية.

في اليوم التالي لتوقيع التعهد، استدعوه من جديد مع آخرين، وأمروهم أن يأخذوا معهم أغراضهم الشخصية، فعلموا أنه الرحيل المرتقب. عانق عبد الله ووليد ولقمان ومنصور وزكي، وتواعدوا على اللقاء في الخارج، ثم هبطوا إلى الباحة الخارجية، وكان هناك الأحول القميء ذاته وراء الطاولة ذاتها التي رآها أول مرة. لا يدري أين يخبئونه ومتى يظهرونه، فهو لم يره خلال المدة الماضية إلا حين جاء لأول

مرة، والآن وهو يغادر. . . المهم أنه يغادر، وليفعلوا بالقميء ما يشاؤون. وفتح الرجل صفحة معينة في ذات الدفتر الضخم الذي فتحه لأول مرة منذ أكثر من سنتين، ثم هز رأسه وأخذ يردد بصوت خافت: «هشام العابر. . . هشام العابر. تاريخ الدخول. تاريخ الخروج»، ثم كتب أشياءَ وأغلق الدفتر. ثم فتح أحد الأدراج، وأخرج حقيبته الجلدية وبدأ يخرج محتوياتها: «محفظة جلدية بنية اللون تحتوي على ستة وثمانين ريالاً بطاقة شخصية صادرة عن جامعة الرياض حذاء أسود، وجوارب بيضاء. ساعة يد ماركة ويست اند أبو صليب سوداء»، ثم وضع هذه الأشياء على المكتب أمامه وهو يقول: «هذه هي مقتنياتك. . . هل هناك شيء ناقص؟»، «كلا»، «إذن. وقع هنا»، ووقع هشام، ولبس الحذاء الذي أصبح ضيقاً بعض الشيء، ولكنه أفضل من الشبشب على أية حال، ولبس الساعة، ووضع المحفظة في جيبه، وترك الحقيبة والشبشب في مكانه، بعد أن ترك كل أغراضه الشخصية في الصالة، ما عدا بعض المسابح الزيتونية، فهو لا يريد أي شيء لبسه في هذا المكان. ثم قاده حمدان إلى سيارة الجيب الرمادية التي لا تتغير، ووضع في يديه القيود الحديدية وسط استغراب هشام الذي قال وقلبه يخفق: «ألم يفرج عنا؟»، «بلى. . .»، «إذن لماذا القيود؟. .» «إنها الأوامر. . . هيا، بلا غلبة» ودفع هشام إلى داخل سيارة الجيب، حيث كان هناك سجين آخر في مثل سنه، ورجلان بملابس مدنية، أحدهما في المقعد الأمامي، والآخر في المقعد الخلفي. وانطلقت السيارة في طريقها إلى المطار.

أشعل هشام سيجارة وهو ينظر بلهفة إلى الناس والشوارع والعمارات. كان منظراً بهيجاً وغريباً في الوقت ذاته، لم يره منذ أمد

بعيد، وبالتحديد أكثر من سنة، عندما ذهبوا به إلى المستشفى المركزي في جدة وكان يعاني من أنفلونزا حادة، بعد أن نصح طبيب السجن بذلك، ولكن يبدو أن أشياءاً كثيرة كانت تتغير خلال هذه السنة، وهم في قبورهم ساكنون. فالسيارات الفارهة كانت تزدحم بها الشوارع، والحفريات وأصوات آلات الحفر المزعجة تملأ كل زاوية. وكان الازدحام شديداً، بحيث إن بعض ركاب السيارات الفارهة كانوا ينظرون إليهم وإلى قيودهم ويتهامسون وقد بدت نظرات الإشفاق في عيونهم، ولكنهم لا يلبثون أن يرفعوا زجاج سياراتهم الملون ويختفون في عتمتها. وطوال الطريق إلى المطار، كانت هناك عمارات جديدة تنشأ وأخرى تهدم، والحفر في كل مكان. وعندما وصلوا المطار، كان الازدحام على أشده، فنظر أحد الحارسين إلى الآخر وقال: «يقولون إن المطار الجديد على وشك الانتهاء. . . لا ريب أنه سيخفف الزحمة كثيراً»، وأجاب الحارس الآخر موافقاً بهزة من رأسه. وكما في المرة الماضية، اتجهت سيارة الجيب مباشرة إلى الطائرة في ساحة المطار، وصعد الأربعة إليها، واحتلوا مقاعد جانبية في الدرجة الأولى التي خلت إلا منهم، فيما كانت أصوات ركاب الدرجة السياحية تأتيهم وقد بدأوا يصعدون الطائرة، في الوقت الذي كان الحارسان يفكان القيود ويضعانها في حقيبة يد صغيرة كانت مع أحدهما. وما هي إلا دقائق، وكانت الطائرة تعوم في جو جدة. . . يا لجمالها فعلاً، خاصة وشمس الأصيل تتكسر على ساحلها كشعر أشقر على ظهر حسناء إغريقية عارية. ذات المنظر الذي رآه عندما كان قادماً من هناك ليلاً، ها هو يراه نهاراً، والجمال ذات الجمال، ولكنه الآن يعرف ما يخبئه ذلك الجمال من قبح في جوفه.

ـ ٤١ ـ

كان منظر الخليج من الأعلى في غاية الجمال والروعة، لا يضاهيه في ذلك إلا جمال البحر الأحمر على الجانب الآخر، ولكن الإثنين يشتركان في القبح الخفي في الجوف. أنوار المنطقة تنتشر في كل مكان، وتتكسر بهدوء على الساحل بشكل حالم يجلب النعاس والرومانسية... ها هي الخبر هناك، وهناك الدمام. وتحته مباشرة تبدو الظهران بأنوارها الخافتة وبرج جامعة البترول والمعادن يتوسطها. وهناك شبك الأميركان في أرامكو، الذي لم يعد قاصراً عليهم... وعلى البعد، تبدو البحرين كدانة معزولة في بحر الخليج... كل شيء في غاية البهاء، لدرجة أنك تود أن تلقي بنفسك من هذا العلو وتعانق البحر والأضواء، وتستحم بزرقة البحر وبياض السحب، وصفرة الرمال.

وعندما كانت سيارة الجيب الرمادية تقطع الطريق بين المطار والخبر، كان هشام يشم رائحة الهواء بعمق، ويود لو كان بمقدوره تقبيل الأرض تحت الإطارات... فهو يعلم الآن أن من يحبهم يستنشقون الهواء ذاته، ويدعسون على الأرض ذاتها. ووصلوا إلى المكان ذاته، وإن كان الزمان غير الزمان، ووضعوه في غرفة شبيهة بالغرفة التي احتلها في ذلك اليوم الموغل في بعده... كل شيء يتغير في الخارج، إلا هذا المكان والكراديب، إذ يبدو أن الزمن قد خاف وتوقف هنا وهناك. وأخذ يتفحص المكان... الكلمات ذاتها والجمل ذاتها التي قرأها عندما جاء لأول مرة، فالزمن واقف هنا فعلاً. واتجه إلى النافذة وأخذ ينظر إلى مياه الخليج القريبة، ويستنشق هواءً بدأت الرطوبة تتخلل جزيئاته بكل لذة وسعادة. ولكنه لا يعلم، لِمَ كل هذه الإجراءات المعقدة؟ لماذا يبقونه سجيناً حتى الآن؟ كان بإمكانهم إبلاغ أبيه واستقباله في المطار، أو تركه حراً طليقاً وهو يعرف طريق البيت. هل أن حكاية العفو وإطلاق السراح مجرد خدعة؟.. كلا... غير معقول، ولماذا يخدعونهم؟ واستبد به القلق، ولكنه كان يزيحه، مقنعاً نفسه أن لا ضرورة للخداع. واستلقى على السرير وهو ينتظر الغد بفارغ الصبر.

ـ ٤٢ ـ

في صباح اليوم التالي، أخذوه بعد الإفطار مباشرة إلى المبنى الرئيسي... المبنى ذاته الذي خبره قبل أكثر من سنتين، وأدخلوه ذات المكتب، ذات الشاويش عطية، وإن لم يكن ذات العقيد «مسرور السياف». كان الموجود عقيداً أيضاً، ولكنه أصغر سناً، وكانت اللوحة على مكتبه تقول: «العقيد حسن النواس»... على الأقل هناك تغير ما في هذا المكان. وبعد أن جلس قليلاً، ضغط العقيد على زر بجانبه، وما هي إلا لحظات وكان والده يطل من الباب. هب واقفاً، وعانق والده، ولأول مرة يرى دمعة تخرج من عينه، ثم وقعا بعض الأوراق، وانطلقا إلى الدمام. كان يتوقع أن يرى سيارة أبيه البيجو الزيتية القديمة، ولكنه فوجىء بكاديلاك بيضاء في غاية الفخامة يقودها والده. وانبهر هشام بالسيارة التي لم يكن يتوقع أن يراها أو يركبها في أحلامه، ولكنه نسي السيارة وأمرها وقد طغى عليه الشوق لرؤية أمه وأخيه الصغير، وكل تلك الأخبار عن عدنان وبقية الشلة، و... نورة. وأثار اسمها الذكريات، فود لو سابقت السيارة الريح ليرى ويسمع.

ـ ٤٣ ـ

لم يتجه أبوه إلى العدامة حين وصلا الدمام، بل تعداها، واخترق «كمب البدو» حتى وصل إلى المستشفى المركزي، ثم اتجه شمالاً وكأنه يريد طريق القطيف، في شارع لم يكن موجوداً قبلاً، فقد كان عبارة عن حي جديد أقيم على أرض زراعية في السابق. وتوقف أمام فيلا جديدة فخمة، وهبط وهو يطلب من هشام، الذي كان لا يفهم شيئاً مما يدور حوله، أن ينزل. ولم يكونا بحاجة إلى طرق الباب أو فتحه، فقد كانت الأم تقف خلفه، وتنظر من فرجة صغيرة. وما أن رأتهما يقتربان من الباب، حتى فتحته على مصراعيه وهي تصيح وتزغرد وتبكي في آن معاً، غير عابئة بأنها أصبحت في الشارع دون عباءة أو غدفة تسترها. احتضنت هشام بقوة وقسوة أحس معها أن عظامه قد تهشمت، ولكنه كان سعيداً وهو يشم رائحة أمه التي كانت مزيجاً من رائحة جده وعمته في الوقت ذاته. كان حلقه يؤلمه بقوة، ولكن عيناه لا تريدان ذرف الدموع، وإن كانتا مبتلتين منذ أن شاهد أباه.

ودخلوا منزلاً فخماً لا يعرفه، حديقة واسعة، وغرف واسعة موزعة على دورين، ورخام وأثاث واضح الفخامة. أما السعادة الحقيقية، فقد كانت في رؤية أخيه الصغير «يزيد»، الذي كانت تحمله خادمة آسيوية. احتضن أخاه الصغير بقوة، وأخذ ينظر إليه متأملاً: نسخة طبق الأصل منه، وإن كانت عيناه أضيق قليلاً، وبشرته أكثر سمرة. إنه يكاد أن يكون نسخة كربونية من عمته شريفة. وفاضت عينه بالدمع عندما تذكرها، ولكنه عاد إلى الابتسام وهو يرى أحب خلق الله إليه مجتمعين مرة أخرى.

لم يكن يهمه في كل ذلك البيت إلا محتويات غرفته القديمة، فسأل عنها بلهفة، فكان الجواب صاعقة. لقد صودرت معظم الكتب أيام التفتيش، وأحرق الوالدان ما تبقى. لم يجد ما يربطه بغرفته الجديدة، التي كانت أوسع وأجمل وأفخم أثاثاً وتجهيزات، ولكنها كانت خالية من الروح. والحقيقة أنه لم يرد الكتب ذاتها، إذ يمكن الحصول على طبعات جديدة منها، ولكنه يبحث عن تلك الروح التي تسكن بين الكتب. فلكل كتاب ذكريات، ولكل فصل قصة، ولكل ورقة رائحتها المميزة، ولكل كلمة معناها الذي لا تفصح عنه لكل أحد.

وعلم أن والده ترك الوظيفة الحكومية منذ أن اتسعت مشاريع الحكومة وإنفاقها الهائل، وبدأت أسعار النفط في الارتفاع الرهيب بعد الحرب، ومعها أسعار كل شيء، وافتتح مكتباً عقارياً ضخماً يجني منه في يوم ما كان يجنيه من الوظيفة في سنة. وهدم البيت القديم، وهو يبني مكانه عمارة ضخمة. وأحس أن قلبه قد توقف عن الخفقان عندما علم بهدم المنزل القديم، فهم لا يعلمون أنهم هدموا جزءاً من حياته. ضاعت الكتب وضاع المنزل القديم، فماذا بقي بعد ذلك؟.. نورة... لقد تزوجت وأنجبت ولدين سمت أحدهما هشاماً، وهي تعيش اليوم في جدة مع زوجها، كما أخبرته أمه، بعد أن كررت كم كانت تتمنى لو كانت من نصيبه. إذن فقد كانت نورة طوال الوقت معه في جدة وهو لا يدري. والحمد لله أنه لم يدرِ، إذ كان عذابه سيكون أكبر وهو يشعر أنه يعيش وإياها في مكان واحد دون أن يستطيع أن يراها، ولكن هل كانت هي تعلم بوجوده في جدة؟ ربما، وإن كان لا يتمنى ذلك، فذلك سيعذبها هي الأخرى. وربما يكون واهماً، وأنها نسيته بعد الزواج والأطفال. ولكنها بالتأكيد لم تنسه، فقد أسمت أحد ولديها هشاماً.

وأخبره أبوه أن ماجد، أخا عدنان، قد ترك الدراسة بعد الثانوية العامة، وأنه اليوم من كبار تجار المنطقة، يتاجر في كل شيء يمكن أن يتاجر به، من المواد التموينية إلى مواد البناء، «ولا يقصر في العقار»، كما قال أبوه وهو يضحك، وقد أثرى بسرعة رهيبة. أما عدنان، فلا أحد يعلم عنه شيئاً منذ أن غادر إلى بيروت منذ أكثر من سنتين. وعزم هشام على رؤية ماجد والسؤال عن عدنان وبقية الشلة.

ـ ٤٤ ـ

كانت الأيام التالية أيام ولائم وزيارات لا تنتهي، للتهنئة والاحتفال بخروجه. كل أصدقاء والده احتفوا به: عبد الله الزعفراني، وحمود الشحام، ويحيا العلي، وأحمد الخنيجر، وآخرون لا يعرفهم. الكل يسأله عما جرى وكيف كانت أيامه في جدة، وهو يجيب باقتضاب ودون حماس. وفي منزل يحيا العلي، أبو عدنان، قابل ماجد الذي كانت هيئته قد تحولت إلى هيئة التجار الجدد: كرش بارزة، ومسبحة ثمينة لا تفارق يده، والخواتم الثمينة تملأ يديه، والكلمة لا تخرج إلا بحساب، والضحكة مقتضبة تخرج من الأنف، والحديث مقتضب بكلمات متفرقة متباعدة لا تكاد تظهر. لقد كان مظهره يدل على الثراء الواسع فعلاً، والجميع يعامله باحترام فائق، رغم صغر سنه، ولا ينادونه إلا بأبي يحيا. سأل عن عدنان، فأخبره ماجد أنه غادر إلى بيروت بعد القبض عليه بعدة أسابيع، ثم التحق بالجامعة العربية هناك. وقد كانت تصلهم رسائل منه إلى ما قبل سنة، ولكنها انقطعت فجأة. وسافر ماجد إلى بيروت للسؤال عنه، فاكتشف أنه لم يستمر في الجامعة إلا ما يقارب

السنة وترك، ولا أحد يدري إلى أين ذهب. سأل ماجد عنه في كل مكان: في المستشفيات، ومراكز الشرطة، وحتى بعض المنظمات الفدائية في بيروت، ولكن لا أحد لديه أي خبر. وسأل بعض الذين عرفوه في بيروت، فأخبروه أنه انقطع عنهم بعد تركه الجامعة، وأنه ربما انضم إلى منظمة فدائية، فقد كان كثير الإعجاب بالمنظمات الفدائية، وخاصة فتح التي كان يتحدث عنها كثيراً، وأنها أقرب المنظمات الفدائية إلى الإسلام ومفهوم الجهاد. ولكن أين هو الآن، أحي فيرجى، أم ميت فينسى... لا أحد يدري، وما زال ماجد يبحث عنه من خلال عملائه في لبنان، فأمه لا تكف عن البكاء طوال الوقت. وأما بقية الشلة، فقد التحق عبد الكريم بجامعة الرياض وهو يدرس الكيمياء في كلية العلوم، وانصرف سعود وسالم إلى الأعمال الحرة، بعد أن جربا حظيهما في الجامعة دون فائدة. وعلق ماجد على تركهما الدراسة بالقول: «قرار حكيم... فالفرصة لا تأتي مرتين. ومن لا يغتني اليوم، فلن يغتني أبداً». كم يعجبه ماجد هذا، وينظر إليه بحسد. إنه يعرف بالضبط ماذا يريد، وكيف يصل إلى ما يريد، وهذا هو بالضبط ما ينقصه.

وخلال الأيام التالية، أخذ يجوب مدينة لم يعد يعرفها، ولا يعرفه فيها أحد. ومر على البيت القديم، فوجد أن العمارة التي حدثه عنها والده قد استطالت، فدخل وأخذ ينظر إلى مواقع كانت ذات يوم تنبض بالحياة. هنا كانت غرفته التي تعرف من خلال كتبها على العالم، ومن خلال نورة على الحب. وهنا كانت غرفة التلفزيون، وهناك كان الحمام الخارجي الذي اكتشف فيه معنى البلوغ لأول مرة. وهناك البقعة التي دفن فيها النقود... ما هو مصيرها يا ترى؟ هل وجدها أحد العمال أثناء الحفر، أم أنها ضاعت في الاسمنت والحديد، أم كانت من نصيب

النفايات والفئران؟ وكان في غاية الانشراح لفقدان النقود، فهي لم تعد ذات قيمة كبيرة كما كانت، كما أنه كان سيحتار ماذا يفعل بها لو وجدها. فهي ليست من حقه كي يأخذها أو يتصرف بها، ولا يدري بالفعل ماذا كان سيفعل بها. وها هو القدر يتدخل مرة أخرى لإنقاذه من حيرته، وذهبت كما ذهب كل شيء، وتحولت هي الأخرى إلى مجرد طيف ضمن أطياف.

وعرج على بيت نورة، فوجد عمارة عالية تحتل مكانه، لقد ذهب البيت كما ذهبت صاحبته. وذهب إلى شارع الحب، وحي الدواسر، ولكن الوجوه بدأت تتغير هناك، فقد أصبحت الأماكن تضم وجوهاً من مختلف أنحاء الدنيا، واختفت تلك الوجوه المألوفة، رغم أنها كانت تجري كالأشباح العابرة في خرابة قديمة. يتراءى له وجه راشد وفريد ومرزوق وزكي وعدنان، ولكنه لا يرى إلا وجوهاً لا يعرفها ولا تعرفه.

ـ ٤٥ ـ

ـ ها... ماذا قررت يا هشام؟.. أعني ماذا ستفعل؟

قال والده وهو يسأله ذات أمسية، وقد تحلق الثلاثة حول إبريق الشاي في الحديقة، وقد غفت عينا أمه وهي لا تزال تمسك بالكروشيه، فيما كانت الخادمة ترضع يزيداً غير بعيد عنهم.

ـ على مهلك عليه يا أبو هشام... خليه يرتاح مما كان فيه.

قالت أمه وهي تعود من غفوتها، وتحرك السنارتين بآلية:

ـ الراحة لن تستمر إلى الأبد، لا بد أن يقرر ماذا سيفعل.

ونظر الوالد إلى هشام وعيناه تنطقان بالسؤال:

ـ الحقيقة يا والدي لا أدري... ربما أعمل في الأعمال الحرة، فيبدو أنها مغارة علي بابا هذه الأيام.

قال هشام ذلك دون اقتناع حقيقي، ولكن بدت له الأعمال الحرة هي الدنيا في لحظتها، فأراد إغراق نفسه فيها.

ـ وماذا بشأن الدراسة؟

قال الوالد، فيما ابتسم هشام بمرارة وهو يقول:

ـ الدراسة؟.. يبدو أنها أصبحت من أطياف الماضي هي الأخرى.

ثم وهو ينظر إلى أمه التي عادت إلى الإغفاء:

ـ ثم، لقد أصبحت كبيراً على مواصلة الدراسة.

وهنا تدخلت الوالدة بحدة وهي تقول:

ـ ولا كبير ولا حاجة، فأنت بالكاد تكمل العشرين من عمرك المديد إن شاء الله.

وضحك الوالد وهشام الذي قال:

ـ بل أنا في الثانية والعشرين يا أمي... عندما يتعلق الأمر بالزواج، فأنا كبير، أليس كذلك؟. وعلى أية حال، فالبركة بك لملء البيت الجديد بالأطفال...

وابتسمت الأم بحبور، ثم غمغمت بكلام غير مفهوم، وعادت إلى الكروشيه والإغفاء من جديد، بعد أن أمرت الخادمة بإدخال يزيد في فراشه بعد أن نام دون أن يكمل وجبته، فيما قال الوالد:

ـ ليس هناك كبير وصغير في طلب العلم يا ولدي.

ثم تنحنح وهو يقول:

ـ ثم لماذا تريد العمل؟.. المال موجود والحمد لله، أكمل تعليمك وتوكل على الله.

ثم وهو يبتسم، وقد لمعت عيناه وجحظتا، كما هي حالته عندما يكون متحمساً لشيء:

ـ لنعقد بيننا اتفاقية... أنا للعمل، وأنت للعلم. ما رأيك؟

وساد صمت تحييه ابتسامتان كانتا تبددان الظلام المحيط.

ـ ٤٦ ـ

وها قد عاد إلى الرياض من جديد... لم تعد الرياض هي الرياض، ولم يعد الناس هم الناس. ها هو يكاد يكمل سنته الأولى في الرياض بعد العودة، ولكنه لا يشعر بأي حميمية نحوها، كما لم يعد يشعر بأي حميمية نحو الدمام أو أي مكان آخر، فلم يعد المكان هو المكان. عندما وصل إليها لأول مرة منذ إطلاق سراحه، أخذ يجري كالمجنون بسيارته الكومارو السبور بين أحيائها وحاراتها بحثاً عن أحيائها وحاراتها. جال كالمجنون في الشميسي وشارع عسير والأزقة المتفرعة، ولكنه لم يجد ما يبحث عنه. البيوت التي يعرفها هدمت، وأخذت تحل محلها عمارات شاهقة... مكان هذه العمارة، كان بيت الخال، ومكان هذه البناية كان منزل الشباب، ومكان هذه الأرض البيضاء كان منزل رقية، ومكان هذه الشقق كان منزل سارة... سارة، لا تزال جرحاً نازفاً في القلب. لا يدري ما فعل الزمان بها ولا أين هي. حتى دكان زوجها عليان قد هدم وأخذ يحل محله سوبر ماركت ضخم. هل أنجبت يا ترى؟ وماذا أنجبت؟ ويبقى السؤال الذي يبدو أنه سيبقى هاجسه إلى الأبد... هل ما أنجبت هو وليده أم لا؟ إنه لا يدري، ويبدو أنه قد حكم عليه ألا يدري.

وسأل عن عبد المحسن التغيري ومحمد الغبيرة، وأبناء خاله. فعلم أن عبد المحسن وابن خاله عبد الرحمن ذهبا في بعثة إلى أميركا، ومحمد يتلقى تعليمه في أكسفورد في بريطانيا. أما الباقون، فلا يعلم عنهم شيئاً، ولم يكن يهمه أن يعلم عنهم شيئاً. واستقر ابني خاله حمد واحمد في جدة، حيث أصبحا من كبار تجار العقارات هناك، فيما انتقل محمد بعائلته إلى القصيم في أعقاب وفاة والده، ثم وفاة الوالدة من أثر الصدمة التي لم تمهلها إلا أياماً. أما موضي، فقد تزوجت من دبلوماسي شاب، يعمل في قنصلية البلد في إحدى دول شرق أفريقيا. لم تعد الرياض هي الرياض... حتى زملاؤه تلك الأيام، يستعدون للتخرج هذه الأيام، ولا أحد يعرفه منهم، أو أنهم لا يريدون التعرف إليه. وقد أصبح معظم أساتذته السابقين من أصحاب المناصب، في أول وزارة يشكلها الملك خالد بعد مقتل الملك فيصل.

نعم... لم تعد الرياض هي الرياض، وأصبح يشعر بوحدة باردة وهو يعيش في هذه المدينة الجديدة التي لا يعرفها. ما زال اسمها الرياض، ولكنها ليست الرياض... وكلما شعر بالوحدة والملل من المكان والزمان، وتلك المحاضرات والدروس التي لم تتغير، رغم أن كل شيء يتغير، ذهب إلى مقهى ومنتزه جديد افتتحوه مكان تلك المزرعة القديمة التي كان يلجأ إليها وعبد المحسن في الأيام الخوالي، حيث يطلب إبريقاً من الشاي الثقيل، وشيشة جراك، ويدخن وهو ينظر إلى البعيد... فيلوح له شاب في الثالثة والعشرين من العمر، نحيف

البنية، معتدل القامة أميل إلى القصر، قمحي اللون أميل إلى البياض، بشارب كث فوق فم صغير، وشفتان رقيقتان بنيتان، وأسنان بيضاء ببقع صفراء متفرقة، وأنف مستقيم، وجبين واسع، وشعر مسترسل شديد السواد، تتخلله بعض الشعيرات البيضاء، وحاجبان كثيفان، خرج إلى الدنيا فوجدهم يدعونه هشام إبراهيم العابر... يملأ هشام صدره بالدخان الثقيل، وينفثه بعيداً، وهو ينظر بعينين فقدتا بريقهما، إلى أزقة كانت مأهولة، فلم تعد إلا أزقة مهجورة تجوبها أطياف لا حياة فيها، ولكنها لا تريد أن تموت...

ـ البداية ـ